جمال الدين الآلوسي

أدب الزيات في العراق

يطلب من مكتبة المثنى ببغداد

الطبعة الاولى

١٩٧١م – ١٣٩١ هـ

جمال الدين الآلوسي

أدب الزيات في العراق

الطبعة الاولى
١٩٧١م - ١٣٩١ هـ

الإهداء

الى الذين تروقهم الكلمة المهندسة ويطربهم الاسلوب البليغ .

الى الذين يرون استخدام العامية في التعبير والتحرير اثماً دينيـــاً وقومياً وهم قادرون على اصطناع الفصحى .

والى الذين يحسبون الفصحى الدعامة الاولى الجامعة للوحدة العربية أهدى هذه الاشتات .

جمال الدين الألوسي

مُقَدَّمَة

الزيات أحد الكتاب القلائل الذين يكتبون لغتهم عن علم ، ويفهمون أدبها عن فهم ، ويعالجون أدبها عن ادراك ولا سيما البارزون منهم ، خلا مكان العقاد من قبل خمس سنين ، وها ان الأجل المحتوم يخلي مكان الزيات في الثاني عشر من شهر أيار سنة ١٩٦٨ . وطه حسين يعاني العلة حبيس الفراش عافاه الله وابقاه للأدب واللغة ذخراً .

والزيات أقوى الثلاثة اسلوباً وأوضحهم بياناً وأوجزهم مقالة وأنقاهم لفظاً ، يعنى بالكلمة المهندسة ، والجملة المزدوجة ، وعند الكثرة الكاثرة هو أكتب كتّابنا في عصرنا .

عرف الزيات العراق واحبه منذ خمسة وثلاثين عاماً ، وهي مدة من الزمان اكتهل فيها شباب ، وشاخ فيها كهول ، واختفى فيها جيل ، ونجم خلالها جيل ، غير ان افكاره لم تغب عنا طوال هذه الحقبة ، وقلمه الرفيع ظل يواصلنا بالقول الجديد ، ويزودنا بالرأي السديد ، ومترجماته ومؤلفاته ما زالت مصدراً ثراً وينبوعاً سائغاً لمن يتذوق الكلمة المهذبة والصورة الجمالية أوالفكرة الهادفة ، والزيات أشد الناس التزاماً بالأساليب العربية المشرقة وأكثرهم عناية باللفظ الانيق للمعنى الرفيع ، يعرف للكلمة حقها ويقدرها قدرها ، وهو القائل في الدفاع

عن البلاغة : « وفي اختيار الكلمة الخالصة بالمعنى ابداع وخلق ، لأن الكلمة ميتة ما دامت في المعجم . فإذا وصلها الفنان الخالق بأخوتها في التركيب ، ووضعها في موضعها الطبيعي من الجملة ، دبت فيها الحياة ، وسرت فيها الحرارة ، وظهر اللون ، وتهيأ لها البروز ، والكلمة في الجملة كالقطعة في الآلة ، إذا وضعت موضعها على الصورة اللازمة ، والنظام المطلوب ، تحركت الآلة ، وإلا ظلت جامدة ، وللكلمات أرواح » .

والزيات صاحب رسالة ، رسالته ظلت تبشر بالأدب ، والفن ، والحرية ، وبالعروبة والإسلام .

والزيات جاحظ القرن العشرين ، ارتقى بالمقالة حتى تسنمت قمة الكمال ، امست واضحة لها دلالتها الدقيقة المحددة الابعاد ، والمتساوقة الافكار ، بيان مشرق ، ووصف مقصود ، وأدب هادف ، تغرس الوطنية ، وتربي الكرامة ، وتزرع العزة ، وتنمي القومية ، وتعمق مفاهيم العروبة ، يوم كانت مفاهيم العروبة غائمة في أذهان الكثرة من الساسة والمثقفين هنا وهناك .

والزيات علم من شوامخ أعلام الأدب العربي في العصر الحديث ، ورأس مدرسة ما زال ينهل من معينها العذب المتأدبون وعشاق الأناقة الذين تروقهم الكلمة الانيقة والجملة البليغة والفكرة المدروسة .

وكان لمدرسته أثرها في توجيه الجيل إلى نشر العربية والثقافة الإسلامية .. أبرزت كتاباً ، وخلقت كتاباً ، ووجهت الادباء إلى رحاب القومية المتفتحة ، ونأت بهم عن الاقليمية المنغلقة ، وانطلقت باقلامهم إلى القيم العربية الحضارية ، وظلت رسالته ملتقى لشيوخ الأدب ومحتوى لأقلامهم ، ومنبراً لأفكارهم ، وميداناً لنقدهم وآرائهم .. فإذا ما انقطع عنها رائد ، حلّ مكانه عائد يعود عليها بدم جديد وأدب

من لون طريف ، وكانت مدرسة لكتّاب جدد ناشئين ، صقلت أقلامهم ، وأشاعت أفكارهم ، ورفعت أقدارهم ، وعوضت قراءها من فقدوا من الشيوخ الذين كانوا الطلائع من كتابها ، كأمثال الدكتور طه حسين ، وأحمد أمين ، ومحمد كرد علي ، والرافعي ، والمازني ، والعقاد..

ربّت جيلاً ، وأنشأت أدباً ، وهيأت أدباء ، وقامت على صفحاتها معارك النقد والتجديد . ربع قرن وهي تبشر بالعروبة النامية والافكار الواعية ، وتعبر عن الأحداث الكبرى التي تشغل الرأي في العالمين العربي والإسلامي ، وتعرب عن المشاعر والأحاسيس التي تصطرع في نفوس المواطنين في أقطار العروبة من المحيط إلى الخليج ، فكانت مقالات الزيات تقف بالمرصاد لأعداء العروبة والإسلام ، الذين راحوا بدعاياتهم المضللة يشككون أبناءنا بقابليات أمتهم ، ويزهدونهم بمقومات حضارتها ، ويفسدون عقائدهم ، فكانت مقالات الزيات تنير الطريق ، وتغرس العقيدة ، وتجدد الأمل ، وتنمي المعنويات .

كان صدور الرسالة بعد عودة صاحبها من العراق ، فقد ندب الزيات للتدريس في العراق سنة ١٩٢٩ واستمر لبثه فيه الى سنة ١٩٣٢ ثلاث سنين مليئة بالعمل والفكر ، اختلط فيها بأدبائه ومفكريه وقادته وشعرائه ، فتملّى أفكار الدعوة للقومية العربية وللوحدة ، عرف أبعادها وأفكارها من كبار دعاتها ، مثل فيلسوف القومية ساطع الحصري ، والثعالبي ، وياسين الهاشمي ، والشبيبي ، والراوي ، والأثري ، والرصافي ، والزهاوي ، وطه الهاشمي ، فظهرت الرسالة في زمن نضج فيه تفكير صاحبها بالعروبة في الزمن الذي نفض فيه الكائن العربي عن نفسه الخمول والخنوع ، وراح يتطلع الى التخلص من الاستعمار وإلى حكم وطني حر غير مقيد أو مكبل بقيود المعاهدات . صدرت الرسالة في وقت برزت فيه ملامح الشخصية العربية واضحة ، وتحركت فيه التطلعات العربية

الى حرية كانت موؤدة ، وحقوق كانت مهدورة ، وكرامة كانت مضاعة في العراق ، في مصر ، في سورية ، في الجزائر ، في المغرب . ثورات ومناهضات للاستعمار ، ومظاهرات وثورات على عملائه وأذنابه .

في هذا الزمن المضطرب بالافكار المتناقضة ، صراع بين القديم والحديث ، وصراع بين الرأسمالية والاشتراكية ، وصراع بين الرجعية والتقدمية ، ونزاع بين المحافظين والمجددين ، وعراك بين الاقليمية الضيقة وبين العروبة الرحبة الواسعة الشاملة للوطن العربي مغربه ومشرقه ، فكانت الرسالة ثورة على الجمود على القوالب المألوفة في التحرير والتعبير ، وكانت مشعلاً لإنارة الدرب للسائرين من المتأدبين .

مولد الزيات ونشأته :

ولد الزيات عام ١٨٨٥ في قرية « كَنفشردَميرة » من مركز « طلخا » ، وتلقى علومه في الأزهر ، مكث في هذه الجامعة الكبرى عشر سنوات يتلقى العربية والشريعة والتأريخ والأدب ، وظهرت بواكير أدبه فيما كان يحبره من مقالات اجتماعية وأدبية ونقدية للازهر خاصة ، نشرتها له صحافة ذلك العهد ، ثم انتقل الى الجامعة المصرية القديمة مع زميله طه حسين ، مما أثار ثائرة شيوخ الأزهر عليهما ، وكتب في « الجريدة » التي كان يصدرها أستاذ الجيل احمد لطفي السيد وكتب في مجلة مصر الفتاة التي نشر على صفحاتها بعض الفصول الادبية مع صديقه طه حسين ، وكتب في مجلة السياسة التي صدرها الدكتور حسين هيكل .

الزيات في الأزهر :

وصف الزيات حياته الأولى في الأزهر ، قال : « كنا ثلاثة ألف بيننا وحدة الطبع والهوى والسن ، فالطبع مرح فكه ، والهوى درس الأدب وقرض الشعر ، والسن فتية لا تجاوز السادسة عشرة ، وكان

طه قاعدة المثلث ، ومحمود زناتي وأنا ضلعيه القائمين . أو كان المبرّد صاحب الكامل قلب الطائر ، والزمخشري صاحب الكشاف وثعلب صاحب الفصيح جناحيه الخافقين ، لقّب بها بعضنا بعضاً ، لنزعة فكرية أو فنية كان ينزعها كل منا في نظر أخويه ، ووجه الشبه بيننا وبين الطائر ، فان حياتنا كانت كحياته تردد إلى كل روضة ، وتغريد على كل شجرة ، وتحليق في كل جوّ ، كنا ننتقل من حلقة العلم إلى درس الأدب ، ومن درس الأدب الى مجلس الشعر ، الى دار الكتب ، ومن دار الكتب ، الى الجامعة المصرية القديمة ، ومن الجامعة إلى ادارات الصحف نعرض عليها ما كنّا نسميه يومئذ شعراً ، ثم ننتهي إلى دار أحدنا فنتدارس ما حصلنا من علم ، ونتذاكر ما حفظنا من أدب ، ونتنادر بما سمعنا أو رأينا من سخف ، فإذا أخطأنا أو نسينا لجأنا الى ذاكرة طه العجيبة ، فتعيد ما وعت لا تخرم منه حرفاً ، فنصحح أو نستكمل أو نستفيد . وإذا سئمنا أو ونينا ، فزعنا الى حافظة محمود الخصيبة فيسرّي عن خواطرنا بقطعات من أعذب النوادر يحكيها عن نفسه أو يرويها عن أبيه ، ويضيق الطائر بقلبه النابض بالأمل والحب ، وبجناحيه الخافقين بالخيال والنشوة ، يضيق نفسه بعشه الباغم في ركن من الرواق العباسي بالأزهر فيخرج إلى هدوء الطبيعة ، يستمتع بفاتنها في خمائل المطرية ، أو في حدائق الجزيرة ، فنتصل بالحياة المصرية ، وننال من ثمار المدنية ، ثم نعود الى الأزهر فنجد الاختلاف شديداً بين حياته وحياة الناس ، فنقلق ونثور ، ويكون حظ هذا القلق وهذه الثورة التمرد على الأزهر المنعزل من العالم ، والسخر من الطلاب ، والعبث بالشيوخ الجاهلين بالأدب » .

وسافر الزيات الى باريس ، ودرس الحقوق ، وتعلم الفرنسية ، وترجم منها ، وافتتن بأساليب كتابها ، غير أنها لم تصرفه عن لغته ، ولا

طفت بأساليبها على أسلوبه العربيّ الأصيل ، وفي هذه الفترة التي أصابه فيها حب فتاة فرنسية شغل قلبه وفكره ، وقع نظره على قصة للشاعر الالماني الكبير (غوته) هي – آلام فرتر – قصة الحب الخالدة ، فآثر أن يترجمها ، لانها تعبر عن عواطفه المكتومة .

فقال في العوامل التي دفعته الى ترجمتها سنة ١٩١٩ :

« كنت أجتاز هذا الحين وأنا شاب طرير ، حصره الحياء والانقباض والدرس ، ونمط التربية ، وطبيعة المجتمع ، في دائرة ليس فيها من الواقع غير وجوده ، واحساس مشبوب يتوقد بالجمال ، وقلب غريب يتحرق ظمأً الى الحب ، فالطبيعة في خيالي شعر ، وحركات الدهر نغم وقواعد الحياة فلسفة . وكان فهمي لكل شيء ، وحكمي على كل شخص ، يصدران عن منطق أفسد أقيسته الخيال ، وزوّر نتائجه المثل الأعلى ، ثم فجّر هذه الحال التي وصفت هوى دخيل هادىء . وأحسست أن وجودي الخالي قد امتلأ ، وقلبي الصادي قد ارتوى ، وحسي الفائر قد سكن ، ورحت أسلك هذا الطريق السحري محمولاً على جناح الهوى ، حتى ذكرني الزمن الغافل ، فأقام فيه عقبة الخيال بالواقع ، والحبيب بالخاطب ، والعاطفة بالمنفعه . فلما قرأت « آلام فرتر » سمعت نواحاً غير ذلك النواح ، ورأيت روحاً غير هاتيك الأرواح ، وأحسست حالاً غير تلك الحال ، وكنت أقرأ ولا أدرى في الحادثة سواي ، وأشعر فلا أشعر إلا بهواي ، وأندب ولا أندب إلا بلواي » .

وفي هذه القصة المعبرة عن أحاسيس الشباب ، قال غوتة لصديقه كريمان :

« وكل امرىء يأتي عليه حين من دهره ، يظن فيه أن فرتر إنما كتبت له خاصة » .

والزيات في ترجماته لا يكتفي بالنقل الحرفي ، وطريقته : « أنني

أترجم النص الأجنبي الى العربيــة نقلاً حرفياً ، ثم أعـود فأجريه على الأسلوب العربي الأصيــل ، ثم أعود مرة ثالثــة فأفرغ في النص روح المؤلف ، وشعوره باللفظ الملائم ، والإعجاز المطابق ، والنسق المنتظم ، فلا أخرج من هذه المراحل الثلاث إلاّ وأنا على يقين جازم بأن المؤلف لو كان كتب قصة أو قصيدة بالعربية لما كتبها على غير هذه الصورة » لذلك جاءت ترجماته مثالاً لدقة التعبير ، وتخيّر الالفاظ التي تنقل الصورة والفكرة ، وهي من جمال الأسلوب وأناقته لا تقل روعة عن الأصل .

وترجم الزيات قصة « رفائيل » ، وهي إحدى روائع لامارتين شاعر فرنسا الأكبر ، بأسلوب عاطفي ، حكى فيها قصة غرامه أيام شبابه ، وقد تدفق حسه بالجمال والطبيعة ، وفاض قلبه بالحب لمحبوبته « جوليا » ، قال : « وجدت في حظها مشابهة لحظي ، فكلانا طريد همّ ووحيـد غربة ، وكلانا نضو أسقام وأليف وحدة ، وهي مثلي تتجنب الضوضاء وتتقي عيون الناس . لقد أثرت في كل قلب ، وامتزجت بكل نفس دون أن تتصل بانسان ، أو تتحدث الى أحد ، كانت الفكرة في كل خاطر ، والفتنة في كل ناظر ، والكلمة في كل فم ، والجـلال في كل قلب . إن هذا النوع من الناس يشيعون الأنوار ، ويخطفون الأبصار ، ويجذبون الى مدارهم من حولهم دون أن يفكروا في ذلك ، أو يقصدوا اليـه ، أو يشعروا به ، لهم مـا للشموس من نظام وجاذبية ، فهم يجذبون من تابعيهم الأبصار والأفكار والنفوس ، فتتعلق بهم ، وتجري في الفضاء على ضوئهم » .

وترجم قصيدة « البحيرة » للشاعر نفسه ، وقصيدة الوحدة ، وهاتان القصيدتان من أروع قصائد لامارتين ، بـل من أروع الشعر العالمي ، وترجمها شعراء وكتّاب ، ولكن ترجمة الزيات تبقى هي المتفوقة على بقية الترجمات العديدة مثل ترجمة علي محمود طه المهندس ونقولا فياض وغيرهما .

الاستقامة والوضوح سمته :

والزيات أديب مطبوع ، تتسم كتاباته بالصدق ، ومقالاته بالفن . وهذا سر بقاء ما كتب ، بليغ ، وسر بلاغته وصف الشيء بصفته ، ووضع الكلمة في موضعها . وهو يفضل الإيجاز على الإطناب ، وجوهر إيجازه الإبانة والأناة . ظل يكتب في تواصل ، ولم يتخلف عن مجالات العلم والفن ، ويعبر عن متطلبات الحياة العربية مع دفقات من الايمان تغمر قلبه بالحرارة والحياة ، وتزخر بالشعور والوطنية ، ويتميز مذهبه في الحياة بالاستقامة والوضوح كما وصف نفسه :

« وبفضل هاتين الميزتين – الاستقامة والوضوح – بلغت الغاية التي قصدتها منذ وعيت ، ولم أبلغ الثراء الضخم ولا الجاه العريض ، ولكن بلغت عليه العيش الرخي ، والبال الرضي ، والذكر الحسن ، والسعادة الحقة أقرب الى الرضا والسكينة منها الى المال والمنصب ، وحرصت على أن يكون مذهبي واضحاً ، حتى إذا كانت المشكلة الصعبة تعرض فيكون حلها يسيراً بشيء من النفاق ، وقليل من المصانعة . ولكني كنت أنفر من ذلك كله ، واحاول أن أعالجه بالصدق والصبر والصراحة فتنحل بعد ان تترك في النفس من الأثر ما يتركه الجرح في الجسد من الندوب . ولكن هذه الندوب ستظل على الزمن مثاراً للذة من لذات الروح ، فيها العزة والحرية والكرامة . نهج لي هذا المذهب ، وألزمني إياه طبع حر مسالم ، فأنا منذ حملت نصيبي من عبء الحياة أحاول أن أستقل في عملي عن إرادة الغير ، وأستغني بقدرتي عن معونة الناس ، فلم أضع يدي ولا عنقي في أغلال الوظائف الحكومية ، ولم أصعد صعود العُلَّيْق على أكتاف الطوال من ذوي السلطان ، وإنما اضطربت في مجالي الحيوي طليقاً من كل قيد إلا قيد الخلق ، مستقلاً عن كل عون إلا عون الله ، بذلك سلمت نفسي من رذائل الوظيفة ، فلا جبن ولا رياء ولا ملق ،

وبرئت حياتي من نقائص التبعية ، فلا خضوع ولا إغضاء ولا ذلة » .

والزيات كما تحدث عن نفسه حيي وقور هادىء يكره المماحكة والمجادلة ، وينأى بطبعه عن الخصام ، يمشي بتؤدة ، ويتحدث بصوت خفيض ، ويتأمل بعمق ، ويرسل أفكاره كالنسيم تجري رُخَاءً حيث أراد . فاذا أحس كرامته أو كرامة أُمته يعتدي عليها أو عليه غريب أو قريب ، ثار كالبركان ، وراح يرسل من قلمه شواظاً من نار يقذف به ذلك الجبار ، وقراء الرسالة يذكرون غضبته العارمة يوم تطاول « النبيل عمرو إبراهيم » أحد الأمراء وتعاظم على المصريين أبناء الفلاحين — كما حلا له أن ينعتهم — أمثال محمد محمود ومحمد حسين هيكل ، ثار ثورة الأسد الجريح يؤدب ذلك الأمير المتطاول ، فقال : « إن الوطن لا يعرف التفاضل بين أبنائه إلا بأثرهم في تقويته وترقيته وخدمته ، فالفلاحون على درجته العليا لأنهم عماد ثروته وعدة دفاعه وقوة سلطانه ، والامراء درجته السفلى لأنهم فيه معنى السرف الذي يفقر والترف الذي يوهن والبطالة التي تميت ، وبين هاتين الدرجتين تفاوتت مواقف الوزراء والكبراء على حسب ما لكل منهم عليه من فضل . لقد كان امتياز طبقتك على طبقتنا أنك تمسك « القرباج »[1] ، ونحن نمسك الفأس ، وتأكل الذهب ، ونحن نأكل التراب ، وتعبد الشيطان ، ونحن نعبد الله ، وتتكلم التركية ونتكلم العربية . لا يا سيدي النبيل ، ليس المصريون في الجنسية والوطنية سواء ، فان منهم من تمصر بالقانون لا بالأصالة ، وتوطن للمنفعة ، وكيف يستوى في ميزان الوطنية من يقف على مصر يده وقلبه ودمه ، ومن لا يعرفها الا معرفة الغرماء ، ولا يعيش فيها إلا شهور الشتاء » .

---

(١) السوط .

وثار لنفسه حين عرض به صديقه محمد كرد علي ، فكتب يرد عليه بأدب جم ، ولكنه ثار ثورة عارمة حين ظلمه العلامة أمين الخولي ، ولم يقف بسهامه الرائشة عند تسديدها الى جسم الخولي ، وإنما أبعد الرمي الى زوجه وشريكة أدبه وحياته ابنة الشاطىء . وسبحان من تنزه عن الخطأ ، ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ؟ .. كفى المرء نبلاً ان تعدّ معايبه .

الزيات في العراق :

كتبت جريدة البلاد في ١ كانون الأول سنة ١٩٢٩ خبر وصول الأستاذ الزيات ، قالت : « وصل بغداد أخيراً حضرة الأديب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات الذي ذكرنا خبر تعيينه استاذاً للادب العربي في دار المعلمين العالية ببغداد في عدد سابق . وقد قالت السياسة بمصر في توديع حضرته ما يلي :

« رسول الثقافة المصرية :

علمنا أن الحكومة العراقية تعاقدت مع الأديب الكبير الاستاذ أحمد حسن الزيات على أن يتولى منصب أستاذ الآداب العربية في مدرسة دار المعلمين العليا ببغداد ، وقالت :

« ولسنا في حاجة لأن ننوه بتوفيق الحكومة العراقية في هذا الاختيار ، فالأستاذ الزيات من أعلام المدرسة الأدبية الجديدة ، وله طرافة في النقد الأدبي يشهد بها مؤلفه المعروف في « تاريخ الأدب العربي » وبيان ساحر يذكره كل من قرأ ترجمته « لآلام فرتر » و « رفائيل » . والاستاذ الزيات انما يذهب الى العراق رسولاً للثقافة المصرية الجديدة التي يبدو أثرها اليوم واضحاً في جميع البلاد العربية ، وسوف يكون له من

مهمته في عاصمة العراق وسيلة لتقوية الروابط الفكرية والاجتماعية بين القطرين الشقيقين » .

تحية بغداد :

افتتح أول درس ألقاه الزيات بالكلمة التالية :

... ثم ألقى السلام على دار السلام وحاضرة الإسلام ، وأنحنى إجلالاً لأحفاد الهاشميين وسلائل العباسيين ، أولئك الذين بلغوا رسالة العلم والادب وأدوا أمانة الحضارة والفن الى العالم الحديث ، ثم أحيي فيكم ناشئة العراق ومعقد آماله ومجددي شبابه ، فأحمل اليكم عطف إخوانكم في مصر وشدة إعجابهم بنهضتكم وحسن تقديرهم لخطتكم ، وقوة أملهم في أن يعود العراق بفضلكم وعملكم كما كان مغدق الجذع مثمر الافنان جياش الينابيع بالقوة والثروة والعمران والسلطان والحضارة .

ان بغداد لم تحل من التاريخ الإنساني هذا المحل الأرفع الأوسع لأنها عاصمة قطر وحاضرة خلافة وسوق تجارة ، وإنما شغلت صحائف الدهر وملأت مسامع الكون ، لأنها كانت عنواناً لحضارة نظمت القديم والحديث ، ورمزاً لثقافة شملت الشرق والغرب ، ومناراً لهداية عمت البر والبحر ، وبرزخا بين الظلام والعدم نجت عليه الإنسانية بتراثها التليد من علم وأدب وفن الى هذا العصر ، وما أزورت العمارة والحضارة عن « الزوراء » وتفجرت الدواهي على العالم العربي الا بتغلب الأعاجم وتحكم الهوى وشيوع الجهالة . فاذا عقدتم القلوب يا شباب العراق على استرجاع المجد الذاهب ، واسترداد التراث المنهوب ، فلا سبيل ولا دليل إلا العلم . وإذا لجأتم اليوم الى أوربا ومصر فانما تسترجعون من الأولى بضاعتكم وتستردون من الثانية أمانتكم ، فان علومكم بعد أن تجهم الشرق لها وأضعف الزمان أهلها ، نزحت الى أوروبا عن طريق الشام والمغرب ، فأحيتها من موات،

وأوجدتها من عدم . أما حضارتكم وثقافتكم وخلافتكم ، فقد لجأت فلولها الى مصر بعد أن رأت بغداد يصرعها غدر الفرس وتوحش التتر ، ورثت مصر بغداد ، والليث لا يرثه إلا شبله ، والعظيم لا يخلفه الامثله ، ولكن مالي أقول ورثت ، وبغداد القوية العظيمة إنما هيضت ولم تمت ، وهل الأمة التي سجلت أخبارها في كل خاطر ، وطبعت آثارها في كل ناظر ، تقوى يد الحدثان على محوها من سجلات الوجود ؟

إن بغداد التي انشأها العرب وحضرها العلم ، لا يجددها إلا العرب ، ولا يعمرها إلا العلم ، وقد اذن الله لمدينة المنصور ووليدة النور ومهبط وحي العلم أن تخلص من سلطان يأجوج ومأجوج بعد أن فدحها سبعة قرون ، فتولى أمرها صفوة الامة العربية ، وتبوئ عرشها فرع الدوحة الهاشمية ، وأخذ قتام الجهل والفقر والظلم ينجاب رويداً عن سماء الرافدين ، إن بغداد هي الوطن الروحي لكل عربي ومسلم فبأدبها نتثقف ، وبحضارتها نتشرف ، وبمجدها نفتخر . عرفتها صغيراً في ألف ليلة وليلة فكانت موطن الأحلام والأنغام والشعر والسحر والحب والفخامة ، وعرفتها كبيراً في التاريخ والأدب فكانت عش الشعب وكعبة الادباء ومبعث الأنوار وملتقى الأفكار ودار الحكمة ، ثم رأيتها والأسفاه اليوم فاذا بغداد الكبيرة في القلب ، صغيرة وآسفاه في العين ، صغيرة ولكن صغرها صغر النواة تضمنت سر النخلة السحوق ، وان بكم شباب الرافدين نماءها ، وفيكم رجاءها ، وعلى الله وعليكم اعتمادها فتعهدوا هذه النواة بالغداء والري ، تفئكم ظلها وتؤتكم أكلها ، وتنعموا منها بروح وريحان وجنة ونعيم [1] » .

---

(١) جريدة البلاد ١ / ٢ / ١٩٢٩ .

الادب العربي – أو الدرس الاول – :

ثم نشرت البلاد في ٦ كانون الأول ١٩٢٩ ، في « صحيفة الشعر والبيان » التي اعتادت الجريدة نشرها يوم الجمعة من كل اسبوع ، الكلمة التالية للزيات تحت عنوان الأدب العربي ، وهي تتمة تحيته لبغداد ولطلابه في أول لقاء مع طلابه في أول درس .

« أدبنا العربي على سعته وجماله فوضى ، فلا حدوده مرسومة ، ولا مناهجه معلومة ، ولا قواعده ثابتة ، فنحوه أصداء مختلطة ، بهمة للهجات القبائل الجاهلية ، لا يكاد تتفق على وجه من وجوه الاعراب ولا يطرد مذهب من مذاهب القول ، حتى ليوشك أن يكون كل كلام صواباً وكل كلام خطأ . وبلاغته مسائل اجتهادية وقضايا جدلية ونكات لفظية ، لا تحور الى فن ولا تكشف عن غاية ، كأنها وضعت لكل شيء غير الشعر والكتابة ومذاهب مطموسة الاعلام دارسة الرسوم ، لا تدري أين تبتدىء ولا أين تنتهي . فالكاتب يسلك الى غايته السبيل بعد السبيل ، وهو يظن نفسه على الجادة الأولى ، وربط وجدت في المقال الواحد ازدواج ابن المقفع وفقرات الجاحظ وسجعات ابن العميد ونكات القاضي الفاضل وترسّل ابن خلدون ، ذلك لأن الأدب العربي لم يكن أدب أمة واحدة ولا مظهر ثقافة واحدة ولا محصول لسان واحد ، وإنما هو مجموعة من الاخيلة والتصورات والمعتقدات التي امتزجت باقتراح الامم الاسلامية في شباب الدولة العباسية ، فهو أشبه بالبحر ، لكل نهر فيه مصب ، ولكل ملاّح فيه طريق ، وفي كل ناحية منه تيار ، ثم هو من بعد مجتمع اللؤلؤ والمرجان ومستودع المحار والأحجار ، على أن الدهر ما لبث أن نظر الى هذا البحر العجيب المادر ، فخفت روافده ، ونضبت موارده ، وجزر ماؤه ، حتى ارتد الى مثل الغدير الآسن يطن على متنه البعوض ، وتنقّ على حافتيه الضفادع ، انحسرت ظلال الأدب العربي قبل أن تعبد

طرقه وتمحص قواعده ويكمل نقصه ، وطمت سيول العجمة على ما بذر عبد القاهر وابن الأثير ، فاعتاقته عن النماء والتفرغ ، وأخذت الألسنة العيية تتحرك في هذا التراث المضاع بالهراء والهذر ، فتعفوا طرائقه وشوهوا حقائقه ، ثم ألقوه بين أيدينا جثة يتردد فيها ذَمَاء ، وصورة لا يحول فيها رونق ولا ماء .

فنظرنا فيه ، فاذا هو مسيخ الخلق ، منكر الطلعة ، لا إلى القديم ولا إلى الجديد ، فوقفنا موقف الأثري من حلل فرعون ، يحيص جوانبها لتنظر لا لتلمس ، وتؤثر لا لتلبس ، وأخذنا نحدد هذا الأدب البالي بالشرح والتلخيص والدرس دون أن ندعم أساسه الواهي ولا أن نرفع بناءه المنقضّ ، فما برحنا نعتمد في البلاغة على تقسيم القدماء وتعليمهم ، ونقصرها على تعليلهم وتمثيلهم ، فنفرد أهم دواعي التقديم والتأخير والحذف والذكر مثلا الى نحو ما قالوه من تعجيل الاساءة أو المسرة ، والتسجيل على السامع وصون اللسان عن ذكره ، ونقول في التشبيه : إن الثريا كعنقود العنب المنور ، وفي الاستعارة : رأيت أسداً في الحمام وعلى فرس ، وفي الكناية : زيد كثير الرماد أو جبان الكلب أو مهزول الفصيل ، ونقرض الشعر على النمط القديم من الوزن والقافية والأسلوب والعرض ، كأن لم نسمع الى اليوم بالشعر القصصي التمثيلي ، ونعرف النثر في تدبيج الفصول وإنشاء الرسائل ، والغربُ يمطرنا كل بريد فنوناً شتى من القصص الرفيع يعالج فيه كتابه مشاكل الحياة ومسائل اليوم .

لقد اختلفت مذاهب الكلام ، وتعددت أغراض الكتابة ، وتنوعت فنون الانشاء ، ورأى شبابنا في الأدب العربي صوراً حقيقية حيّة لما يجول في نفوسهم ويتنزى في رؤوسهم من الهوى والأمل والفكر ، فأقبلوا عليه ظماءً مهطعين ، ينهلون العذب الروي من حياضه ، ويقطفون الحلو الجني من رياضه ، وتركوا أدبنا الصناعي التقليدي المتشابه يذوي على

ألسنة المحافظين وأقلام الجامدين من بقايا العهد القديم ، فالحال إذن تنادي بإعادة النظر في علوم الأدب وفنون الإنشاء ، فيصلح منها الفاسد ، ويتم الناقص ، ويفصل المجمل ، لتتسع لأغراض الحياة ومقتضيات الحضارة ومطالب العصر ، ويقيننا أن أقدر الناس على الاضطلاع بهذا العبء الخطير هم أساتذة الجامعة ، لما يتهيأ لهم من وسائل الدرس وحرية البحث وقوة الأثر » .

وختم كلمته الرائعة بقوله :

« لا جَرَمَ أنْ قد آن لمعلمي البيان أن يصيخوا الى هذا الهمس الساخر والانكار الحق ، « يريد همس الطلاب واستنكارهم لما يحفظون من قوالب بالية وأمثلة لا ذوق فيها » ،فيوفقوا بين موروث البلاغة ومستحدث الأساليب ، ويؤلفوا بين ذوق الاسلاف وذوق الأخلاف ، ويوسعوا نطاق الفن الكتابي ليشمل الملحمة والقصة والرواية ، فان الادب أصبح اليوم شعبياً فيه لكل نمط نصيب ، ولكل غرض سهم ، ولكل غاية مسلك ، وما مثل الذين يحاولون أن يحصروا فنون الأدب في حدود القدماء ، ولا يستذيق الشعر الا مسؤوم المدح والرثاء ، الا كمثل الذين يحاولون أن يحصروا السيل الجحاف في المفيض الضحل ، ويتلهون بفقاقيع الماء عن المنطاد السبوح » .

الزيات يشارك في تأبين المرحوم السعدون :

أقيمت في بغداد حفلة تأبين كبرى أثر انتحار عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء ورئيس الأسرة النبيلة الشريفة أسرة السعدون التي كانت لها رئاسة عرب المنتفق ، وكانت انتفاضة وطنية اجتاحت العراق من شماله الى جنوبه إثر حادثة الانتحار، فألبست لباساً وطنياً ، وألقي في روع الناس أنه ذهب شهيد الصراع بين مطاليب الانكليز وبين رغبات الشعب التي عبر عنها بوصيته الخالدة : « الأمة تطلب الخدمة والانكليز لا يوافقون » .

وصل الأستاذ الزيات الى العراق والشعب لما يفق من أثر الصدمة ، والحزن ما زال بادياً على وجوه الخاصة والعامة ، فتأثر أدب الزيات بالحادث بكلمته الساحرة : (تأمل ساعة) ، ثم بمشاركته بكلمته البليغة هذه بالرغم من أنه كان طريح الفراش لوعكة ألمت به ، وهو لم يَعْتَدْ جوّ العراق ، قال :

ومصر أيضاً تبكي السعدون :

« سعدُ » في مصر مفروُ لا يثنى جمعته العراق في « السعدون »

وقديماً كسر اعراب العراق نون الجمع ، فلله ذانك الاسمان كيف اتحدا في المادة اللفظية واتفقا في الغاية المعنوية ، واختارتهما عناية الله ليكونا نبييّ وطنية وباعثي قومية وعلمين من أعلام الهدى سار على هديهما الضالون والحائرون والشرد ! فكلاهما كان روحاً لبلاده ، ووحياً من الله في وصاياه وإرشاده ، ومثلاً عالياً للنشىء في صدق جهاده ، وزعيماً صلب العود في رأيه واعتقاده ، وحياة خالدة بتضحيته واستشهاده ، هكذا علمنا « سعد » وسمعنا عن السعدون ، فإنا لله وإنا اليه راجعون .

صدع سعد بما أمر فصارح الخصم بعاداته ، وملأ عليه الارض بخطبه ونداءاته ، ونبأ عنه بثقته ووده طيلة حياته ، وآثر السعدون الرفق به فابتغى الخير من صلحه ، تحرى له وجوه النصح ، فما انتفع بنصحه ، فكانت عاطفته الجياشة حتى استيأس من نجحه ، فتفجرت من قلبه ، وسالت من جرحه .

هكذا علمنا من سعد ، وسمعنا عن السعدون ، فإن لله وإنا اليه راجعون .

على النيل حياة عجيبة ، وعلى الفرات موت مرعب : موت هو الحياة ، ويأس هو الامل ، وعدم معناه الوجود ، ورصاصة منقذة دوّت في سكون الليل الساجي ، فكأنها صُور القيامة أو صيحة الكرامة ، وكأن روح

السعدون – وقد أكرهت على مفارقة جسمه – حلت في كل جسم ، فترى العراق بين يوم وليله وقد فار كالبركان ، وثار كالعاصفة ، واهتز اهتزاز الشجرة الفناء هاجتها الزوابع الهوج .

يعزّينا عن موت الحُر أنه حياة لأمته ، والشعب الناهض لا بد له من التضحية في نهضته ، وطريق الحرية الغالية محمرة بالدماء ، محفوفة بالألم ، والحرية منذ قدستها الشعوب وألّهتها ، شرهة إلى لحوم القرابين ، ظميئة الى دماء البشر ...

فعزاء أيها الشعب الكريم ، وصبراً ، فإن من الشدة فرجاً ، ومن العسر يسراً ، وأصخ الى صوت هذا الطلق يدوي من بعيد ، واكتب إلى أبنائك صحيفة الفخر بـدم هذا الشهيد ، وقل : يا رب ، هـذه الضحية ، فهل يكون لنا من بعدها عيد ؟؟ » .

مشاركة الزيات
في حفلة تأبين عبد الرسول الجلبي

كان الفقيد من نوابغ الشباب ، فذاً في ذكائه فرداً في صفاته حبيباً لنفس كل من عرفه دؤوباً على الدرس برغم أنه سليل بيت عرف بالغنى والجاه العريض ، وأولاد الأغنياء قليل منهم من يقبل على الدرس ويصبر على التحصيل كشأن أبناء الأسر الفقيرة أو المتوسطة .

أنهى الدراسة الابتدائيـة والتحق بالأليانس لتعلم اللغات – الفرنسية والانكليزية – وبعد أن أنهى الثـانوية درس الحقوق وحصل على شهادتها بامتياز ، وكانت وحدها تؤهله أن يتوسد أعلى المناصب لما له من شخصية محببة وما لوالده من نفوذ ، ولكنه فضل المحاماة ، فزاولها برهة من الوقت ، ثم انصرفت همته الى الاستزادة من العلم ، فرحل الى انكلترا ، والتحق بجامعة أكسفورد في كلية « الاقتصاد السياسي » ، فكان مفخرة للشباب العربي في

تفوقه على المئتين من الشبــاب الغربي على اختلال صحته ونحول جسمه ، وعاد إلى العراق يحمل العلم والخلق والصلابة في العقيدة والوطنية ووسدت اليه وظيفة في مديرية الضريبة العامة فكان مثالاً حسناً للموظف الكفؤ علماً وخلقاً ، ولكن القدر لم يمهله طويلاً فقد اصيب بمرض أعيا نطس الأطباء شفاؤه وحمل البرق نعيه وهو في باريس يوم ٢٧ حزيران سنة ١٩٣٠ ولمـا يتجاوز السابعة والعشرين فكان لنعيه صدى حزن وتفجع على الشباب الناضر والأمل الزاهر والوالد الصابر .

وفي أربعينيته أقيمت له حفلة تأبينية شارك فيهـا نخبة من الشعراء والأدباء في مقدمتهم الأساتذة أحمد حسن الزيات والشاعر الأديب ناجي القشطيني والأديب الشاعر محمد بهجة الأثري والشاعر الشيخ باقر الشبيبي والدكتور الجمالي ، وأصدرت لجنة التأبين كراساً ضم هذه القصائد والخطب طبع في مطبعة العهد بعنوان ذكرى فقيد الشباب عبد الرسول الجلبي .

كلمة الزيات

الشباب الذابل :

سادتي : دخلت حين مقدمي الى بغداد على معالي وزير المعارف أسلّم عليه واعرّف نفسي اليــه ، فلقيني معاليه لقاء جميلاً ، وآنسني بحسن حديثه طويلاً ، ولكنني كنت ألمح من خــلال نظراته ، ومن كلماتــه أن الرجل يتحامل على نفسه فكأنه يخفي وراء هــــذا الوجه المتهلل والحديث المتسلل مَضاً موجعاً وحزناً دخيلاً ، فحملت ذلك على طبعه واستأذنته وانصرفت فلقيني المستشار ، وكان أول ما قال لي بعد التحية ما معنــاه : آسف انك لقيت الوزير وهو في أشد حالاته ، وأحرج أوقاته ، فإن ابنه مريض وقــــد تبلغت به العلة اليوم ، وهو شاب لا كالشبــان ، وزهرة نضرة عاجلها الذبول قبل الأوان فمن حقه أن يعظمَ بَثُّهُ ويشتدّ أساه .

كانت هذه الشهادة النزيهة من لسان أجنبي أول ما وقع في سمعي عن الفقيد ، الكريم ، ثم أخذ بعدئذٍ لسان الحمد يروي إلى ذكره كلما جرّ الحديث الى ذكر الشباب العامل والخلق المُصفّى ، والهمة البعيدة . فتمثل في ذهني لهذا الشاب صورة منسقة مهذبة ، لو ان « فدياس » تخيل تمثالاً للتواضع الابي والطموح الحي والعزم النافذ والحس اللطيف لما عداها . كان الحديث عن عبد الرسول من كل لسان ، وفي كل مكان مزيجاً من الأكبار والأسف ، لأن شبابه كما سمعت من النمط الذي يعوز الشعوب الناشئة والأمم المهيضة ، لجمعه بين فقه الدين والدنيا ، وملاءمته بين جدة الفكر وقدم الفضيلة ، وعزوفه عن ثروة الأهل ومنصب الحكومة ، ولهو الحياة ابتغاء الكمال العقلي ، وطلباً للثقافة الصحيحة ، فكان تواتر هذه الأحاديث العطرة يغريني بلقائه كما يغريني عبير النسائم بأفياء الرياض ، ولكن النفوس الكبيرة وا أسفاه لا تتحملها أجسادها ولا تقوى على حبسها أقيادها ، فكانت نفسه الفتية الطموح لا تفتر عن النزوح ، واجنحته القوية السبوح لا تني عن الخفوق ، حتى بلغت به على صغره ذرى العلياء ، ثم استشعرت هناك نعيم اللانهاية فطارت إلى السماء .

جاء النعي على جناح البرق ، يعلن استشهاد الغريب ، فأرفضَّ عن القلوب المعروقة الصبر ، واستولى على الناس ذهول وكمد ، وذهبتُ مع الذاهبين الى القصر الحزين أواسي الوالد الواله ، فلم أسمع من الكرخ إلى الكاظميه إلا ذكر الفقيد يتصاعد من القلوب المحترقة كما يتصاعد البخور من خلال الجمر ، فكأنه قريب إلى كل نفس وحبيب إلى كل قلب .

فيا وحشة الدنيا وكانت أنيسةً   ووحدة من فيها بمصرع واحد

ويا حسرتاه على الأنفس الكريمة كيف تموت ؟ وعلى الآمال العظيمة كيف تفوت ، وعلى الوالدين يغرسان المنى فيسقيانه بدم القلب ، ويكلآنه بنور العين حتى إذا وَرِفَ الظلُّ وآنَ للمنضور الزهر أن يكشف عن

موفور الثمر ، قال لهما الموت الجائر : حسبكما هذا نصيبي .

والموتُ نقاد على كفـه جواهر يختار منها الجياد

ليست المصيبة في فقدان الفقيد مصيبة أهله فحسب ، إنما هي مصيبة الوطن والشباب والعلم ، فقد كان رحمه الله للوطن الناشيء عدة وقوة ، وللشباب الناهض زينة وقدوة ، وللعلم الصحيح رسولاً وحجة .

إن الوطن لا ينهض إلا بشبابه ، وإن الشجر لا يثمر إلا بأغصانه ، أما الشيوخ والجذوع فهم الاصل والمدد والسند ، ولكنهم الصق بالارض وأميل إلى السكون وأقرب إلى الجمود ، فلا تقوى على تحريكهم رياح الامل ، ولا تغرد على حطبهم طيور السماء . فالفجيعة بالشباب الصالح فجيعة لا يفيد فيها الصبر ولا يعوض منهـا الاجر ، لأن الاحتساب والثواب إنما يرجعان الى الوالدين . أما الامة فمصابها في أمثال الفقيد الكريم ، يَفتُّ في سواعدها ويوهن من قواعدها ويضعف من قواهـا العاملة على حين تستغيث بأبنائهـا من « الندبة » وتهيب بهم إلى السعي متحدين لتنفيس الكربة فلا عزاء لها عنه إلا بسد الخلة وتوثيق العقدة وانتهاج الشبـــاب العامل خطة الكريم الراحل فيستكملون فضائـل النفس ويستبطنون دخائل العلم ، ويطلبونه لنفسه لا للمنصب ويعملون به للأمة لا للمكسب ، ويشعر كلٌّ منهم أنه كلمة مفيدة في جملة الامة ولَبِنَةٌ قوية في بنـاء الوطن ، فيسيرون بقومهم في طرق الاصلاح والتجديد ، ويقولون لمن أقام الوصاية إنها باطلة على دار (الرشيد) .

حينئذٍ تعرف الامة معنى العزاء ، لإنهـا لم تعرف معنى الثكل ، وحينئذٍ يحق لها أن تقول في أبنائها بلهجة الصابر الفخور .

نجومُ سماءٍ كلَّما غابَ كوكبٌ بَدا كوكبٌ تأوي اليه كواكِب

تأمل ساعة :

سكن الأستاذ أولَ قدومه بغداد فندق « كارلتون » على صدر دجلة بالقرب من جسر الأحرار (جسر مود) ، وكان من أوسع فنادق بغداد وافخمها ، مدخله من شارع الرشيد مصاقبٌ لمدخل (أورزدي بك) ، ولهذا الفندق شرفات وحديقـــة تطل على دجلة يتخذها نزلاء الفندق مستراحاً لهم . ندب الزيات للتدريس بالعالية بتوصية وترشيح من زميله وصديقه الأستاذ عبـاس العقاد الذي رشحه استاذنا طه الراوي قبـل الزيات ، فاعتذر لارتباطه مع الوفد وخوضه المعركة الانتخابية .

جاء الزيات العراق وشهرته تسبقـه ، فقد عرفناه أديبـاً مشرق الديباجة بترجماته (آلام فرتر ورفائيل) ، وقرأنا له مقالاتة في الصحافة المصرية ، فاستقبله المتأدبون والصحافـة العراقية بالترحاب ، وتقاطروا على فندق كارلتون يسلمون عليه ويرحبون بقدمه ، وفتحت جريـدة البلاد صدرهـا لنشر محـاضراته ومقالاته ، فنشرت له تحيته لبغداد ، ونشرت مساجلته الطريفة مع الأستاذ محمـد بهجة الاثري ، كما نشرت كلمته في رثاء السعدون ، ومحاضرته القيمة في الأدب العربي . وفي ٢٦ شباط سنة ١٩٢٩ نشرت له البلاد مقاله الممتع (تأمل ساعة) ، فكان له صدى استحسان لدى القراء ، وأثار تعليقـات كثيرة على صفحات الجرائد ، ونال تقدير الوطنيين ولا سيما الشباب ، وكانت الصحافة يومذاك تعنى بالمقالة وصفحاتها تغطيها القصائد الوطنية والمقالات الادبية والاجتماعية والتاريخية ، والقراء على قلتهم بالنسبة إلى المتعلمين اليوم كانوا يتلقفون الصحف والمجلات والكتب يقرؤونها ويستوعبون أخبارها ويتذوقون اساليبها ، وقلما تقابل شاباً متعلماً لم يتأبط كتاباً أو مجلة يقبـل على قراءتها وقت فراغه في الاندية أو المقاهي .

« في الشرفة الوسيعة من فندق « كارلتون » جلست اطالع في صفحة

دجلة ما خطته يد القرون ، وكانت شمس الأصيل تنفض تبرها على أمواج النهر وسطوح الكرخ وحواشي الافق ، والطبيعة الأنيقة تنعم بالصفاء والبهاء والدفء ، بعد ما أجهدها رعد الأمس وبرقه ، وأغصها وابل الغمام وودقه ، فالسماء مصرية الأديم ، والجو عبهري [1] النسيم ، والأفق الغربي مزدان بقزعات [2] من السحاب الأبيض الرقيق ، والماء قد استحال لجينه نُظاراً من طول ما حمل اليه السيل من كنوز الجبل [3] ، أخذت أصوب النظر وأصعده في النهر والجسر والشاطىء ، فأرى أنماطاً من الناس وأخلاطاً من الاجناس ، وصوراً من الأشياء تنكرها العين ويعرفها القلب ، لانها شرقية ، ولانها عربية ، ولانها مظلومة .

ذكرتني هذه المناظر مناظر غابت في سويداء القلب ولفائفه ذكرتني تقابل الرصافة والكرخ على دجلة ، تقابُلَ القاهرة والجيزة على النيل الاعلى ، وتقابل المنصورة وطلخا على النيل الاسفل ، وفي هذه الاماكن الحبيبة كان مدرج طفولتي وشبابي ، وملتقى أحبتي وصحابي ، فهاجت شجوني ، وسالت شؤوني ، فوضعت جبهتي المضطرمة على سياج الشرفة البارد ، وعدت بالذاكرة وشيكاً الى بغداد ، ثم انطويت على نفسي ، وأخذت أتفكر وأتذكر وأمعه في غيابة الماضي حتى انقطع ما بيني وبين الحاضر ، فانمحى من حولي العالم بأسره .

وحينئذ انبعث من جانب الكرخ صوت شاد يرّجع بالنغم العربي الشجي ، فخيل إليّ أنني أرى دجلة « الامين » وجسر « ابن الجهم [4] » وكرخ المجان والخلفاء من أهل بغداد المترفة ، ووقع في سمعي أن هذا الشادي يقول :

---

(١) العبهر : الياسمين .
(٢) القزعة : قطع من السحاب المتفرقة .
(٣) هو الغرين .
(٤) علي بن الجهم يشير الى قوله .
عيون المهابين والرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري

سقى الله باب الكرخ من مُتَنَزَّهٍ الى قصر وضّاح فبركة زلزل
مساحب أذيال القيان ومسرح الـ حسان ومثوى كل خرق معذّل [١]

وصوّر لي أني أسمع غناء الملاحين في الزلالات [٢] ، وأبصر « الدلفين » و « العقاب [٣] » يمخران العباب بالخليفة « الامين » وحسانه وقيانه وندامه !

وترآت لي على الشاطىء الشرقي قصور « البرامكة » الحزينة ، يقابلها على الشاطىء الغربي قصور الخلفاء والأمراء : تعج بالجواري والغلمان ، وتضج بالشعر والندمان ، وتموج بالسادة والقادة والجند ، وتفيض بالنعيم والجلالة والعظمة ، وتمثلت في خاطري بغداد الامس كباريس اليوم في عدد سكانها وفخامة بنيانها ، واتساع رقعتها ، وازدهار مدنيتها ، وانبعاث الحضارة من مجامعها ومنابرها ، وانبثاق الهداية من جوامعها ومنائرها ، إلا أن باريس تشع في جواء مشرقة تسطع فيها شموس أخرى تضارعها وتصارعها ، أما بغداد التي عنت لها وجوه القياصرة ، وكان من جندها أبناء الدهاقين والاكاسرة ، فكانت شمساً واحدة ترسل الضوء والحرارة والحياة في القارات الثلاث ، فتبدد ما غشيها من ظلام وخمود ونوم .

لا أدري متى كنت أصحو من نشوة هذه الذكريات الحلوة المرة لو لم يعدني الى وجودي صوت منكر من أصوات الحضارة الحديثة ، قد انطلق من جوف مركب بخاري عظيم كان يشق بحيزومه صدر دجلة ، فسرّحت طرفي في الافق ، فاذا شمس الشرق تجاهد ظلام الغرب ، وإذا القزعات قد ارتدّ بياضها سواداً ، ضربت في حواشيه حمرة الشفق ،

---

(١) الخرق : الفتى الكريم الخلية ، والمعذل : من يعذل لافراط جوده .
(٢) الزلالات : وحداها الزلال : أي الزورق .
(٣) الدلفين والعقاب : مركبان من مراكب الامين .

فصارت كأجنحة الغربان الدامية ، أو كقطع من الفحم علقت بأطرافها نار حامية ، ثم نظرت شمالاً فاذا المكان الذي سجدت فيه رسل « شارلمان» أمام « الرشيد » يخفق فوقه علم غريب [1] لا هو أسود ولا أبيض ولا أخضر [2] .

وإذا قطع من السحاب السود قد انعقد فوقه ، ملبدة هنا ، مبـددة هناك ، فقلت في نفسي : ليت شعري أهذه بقايا أعلام الرشيد والمأمون ، أم هذه أثواب الحِداد لبستها سماء العراق على السعدون [3] ؟

(١) هو العلم الانكليزي على دار الاعتماد في الكرخ .
(٢) هي ألوان أعلام العرب الثلاثة في القارات الثلاث آسية وافريقية وأوربة .
(٣) كان العراق يومئذ لا يزال مروعاً بانتحار الزعيم عبد المحسن السعدون .

مأساة الشاعر وضّاح

كتب الزيات مأساة الشاعر وضاح اليمن ، ونشرتها له البلاد في ١٧ و ٢٤ كانون الثاني ١٩٣٠ ، فأرضت الفن وأغضبت التاريخ . كانت مثالاً رائعاً للانشاء العالي ، فرد عليه الاستاذ الكبير محمد بهجة الأثري بأسلوب أنيق ، وتحقيق دقيق ، وروعة من البيان لا يقل عن روعة أسلوب الزيات . وكان رده وتعقيب الزيات على الرد نموذجاً عالياً للنقد العلمي النزيه ، أوضح في رده أن القصة مختلقة من وضع الشعوبين ، لحمتها الاختلاق ، وسداها الدس للشرف العربي في أكرم بيت من بيوتات قريش ، والحط من كرامة الخليفة الأموي في أعز ما يحرص على صيانته كريم من أبناء هذه الاسرة العربية ، والقصة ظاهرٌ بطلانها ، ينفيها التاريخ ، وينكرها العقل ، ويهدمها النقد العلمي . كانت المساجلة مثالاً يحتذى في الوقار والتصوّن والادب والنقد البنّاء الذي يجب أن يتّسم به العلماء والأدباء في المناقشة والمداولة والرد ، لا كما نراه اليوم عند بعض أدعياء الأدب من التهجم والشتم والانكار لكل مزية يتصف بها غيرهم ، والله تبارك وتعالى أدّبنا في محكم كلامه الكريم فقال : « ولا تنسوا الفضل بينكم » وقال : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » .

وقد نشرت القصة والمساجلة بين الزيات والأثري في كراس سنة ١٩٣٥

وطبع بمطبعة العهد ، ودامت صلات المودة بين الكاتبين الأديبين موصولة ، تجدد وشائجها كل سنة في أثناء اجتماعات مجمع اللغة العربية في القاهرة ، وعلى صفحات الرسالة التي كانت تزين أعدادها بقصائد الأستاذ الأثري .

ولما في الرسالتين من أدب ممتع ، ونقد نزيه ، وفائدة للقارىء ، أثبت نصيهما ، وهما بعد هذا وذاك من صلب موضوعي :

القصــــة (١)

– ١ –

في اليمن الخضراء ، وفي صنعاء ذات الظل والماء ، نشأ (وضاح) أزهر اللون ، أصهب الشعر ، مليح القسمات ، رقيق الأديم ، ثم ترعرع بين خمائل الأودية ومروج السهول وأزاهير الرُّبا ، فازداد رواء وجهارة .

وإذا كان الجمل يكتسب لون الصحراء ، والسمك يستفيد مرونـة الماء ، والطاووس يستعير أفواف الروض ، فإن اليمانيين لم تصلهم بطبيعتهم ولا ببيئتهم صلة ، فهم سمر الوجوه ، ضئال الجسوم ، قصار القدود ؛ وأرضهم مشرقة الأجواء مونقة المناظر ، خصبـة التربة ، لذلك راعهم (وضاح) بقدر ما راعهم ، فقالوا إنه من أبناء (الفرس) الطارئين على اليمن في عهد (ابن ذي يزن) ، ولكن الحكم سفه هذا الرأي وقضى بعربيته .

لا يعنيك ولا يعنيني أن نكشف عن دخيلة هـذا الشاب ، فنصف تاريخ أسرته وحقيقة ثروته وطبيعة عمله ، إنما يعنينا من (وضاح) ذلك الفتى الطرير الذي أشقاه شعره ، وأبأسه شعوره ، وقتله جماله .

نريد أن ننقل عن لوح القدر هذه الصفحة الدامية التي كتبت لهذا

---

(١) نشرت في جريدة البلاد ، في ١٧ و ٢٤ شعبان ١٣٤٨ هـ . ١٧ و ٢٤ كانون الثاني ١٩٣٠ م .

البائس ، وجرت عليه في غير رفق ولا هوادة .

كان وضاح الجميل الشاعر كالبلبل ، يعرف في نفسه جمال الريش وجمال الصوت ، فهو لا ينفكّ في حذر من الصائد ، وخوف من القنص ، فكان يغشى المواسم والأسواق وهو مقنّع منتقب ، خيفةَ الحاسد ، وحذَرَ المرأة !

ولكن المرأة كانت تعترضه بكل سبيل ، وتترقبه في كل مرصد ، وتتراءى له في كل مكان : تحت النخيل ، وفي الأسواق ، وعلى الماء ، وهو لا يزداد إلا تمنعاً وترفقاً ووحشةً ، لأنه محبوب ، ومن طباع المحبوب الإدلال ، ولأنه مطلوب ، ومن غرائز المطلوب الهرب ، ولم يجد مع ذلك فيمن رأى من النساء روحاً جذابة ولا قوة غلابة ولا جمالاً أبرع من جماله ، على أن (وضاحاً) خلق للحب ، وكتبت عليه فيه الشهادة ! فعيناه على غير علمه ترتادان الحبيب ، وقلبه من قلقه وانتظاره يضطرب في حنايا صدره ، وعواطفه من اضطرامها وانبساطها تكاد تسيل ، وكان يفر من ضوضاء (صنعاء) ومتاجرها وقوافلها إلى سكون الصحراء الرهيب ، وهدوء الطبيعة الموحش ، فيقضي سحابة نهاره جالساً في روضة ، أو مستلقياً على غدير ، أو نائماً في مغارة ، كأنه نبي من أنبياء بني إسرائيل ينتظر الرسالة .

- ٢ -

ففي صباح يوم من أيام الربيع مشرق الأديم ، عنبري النسيم ، منضور الخمائل ، استهوته الطبيعة فأخذ يضرب الأرض حتى متع النهار ، وإذا هو على ماء من أمواه (الخصيب) من قرى (اليمن) ، وفي (الخصيب) شدّ الجمال أطنابه ، وشاد الحب معبده ، والعرب يقولون لك : « إذا بلغت أرض الخصيب فَهَرْوِلْ ! » .

فجلس (وضاح) ينضح ظمأه ، ويرفه عن نفسه ، إلى أن طاف به الكرى فنام .

تنبه (وضاح) ساعةَ الأصيل على صوت رخيم الحواشي متسق النبرات في رنين الفضة ، فنظر فرأى حورية من حواري الحقول قد حسرت عن ساقها ، وغمست رجلا في الغدير ووضعت رجلا على الحافة ، وهي منحنية على الماء تجمع ثوبها بيد وتملأ سقاءها بيد ، فرجف قلبه وبرق بصره وخيل اليه أن عينه لم تقع من قبل على فتاة ، فنهض يملأ من هذا المنظر الرائع عينيه ، فلفتتها حركته ، فرفعت بصرها اليه في سكون طرف وفتور لحظ ، وكأنها همت بالنكوص لولا أن رأت منه ما رأى منها ، فوقفت جامدة لا تتحرك وشاخصة لا تطرف ، بل أحست من نفسها الهفوان اليه حين تقابل النظران وتجاذب القلبان ، ومشى اليها مشية الحباب في حياء ووناء ورقة ، َحيّاها فردت التحية ، واستنسبها فاستنسبت كِنْدِيَةً ، واستسماها فقالت : (روضة) .

ثم جرى بين المحبين حديث الشباب الحيّ المضطرب الحائر .. ويكاد نصه يكون واحداً على اختلاف الألسنة والأزمنة والأمكنة فلا نثبته ، وكيف نثبت كلام الناظر للناظر ، وتدفق الخاطر للخاطر ، وعناق القلب للقلب ، وامتزاج النفس بالنفس ، ولحن اللسان للسان ؟

كانت (روضة) كما تشتهي كل فتاة أن تكون ، فهي كما صورها (وضاح) في شعره « كاعب وضيئة الطلعة ، لطيفة التكوين ، مصقولة الجبين ، يزينه شعر أثيث ، شعر كذنب الكميت ، زَجّاء الحاجبين كأنما ُشقّا بقلم ، تقوّسا على مثل عين الظبية ، ساجية الطرف ، ذلفاء الأنف ، عبلة الذراعين ، لا ترى فيهما عظماً يحس ولا عرقاً يجس ، َطفْلَة الكفَّيْن ، تعقد إن شئتَ منها الأنامل ، ممشوقة القد قد أفرغت في قالب الحسن » .

وجـد كل منهما في الآخر مَشابهَ في زهرة الوجـه وصهبة الشعر وهجنة النسب بالدم الفارسي ، فتعارفا بلحظة ، وتفاهما بلفظة ، وتآلفا تآلف الأخدان ، كأنما كانا على موعد .

طوت شمس الطَّفَل الغاربة مطارفَها العسجدية عن السهول والحقول ، فلم يبق منها إلاّ هـلال على رؤوس التلال وشعاف الجبال وأعراض النخيل ، وأخذ الرعاة يروحون بالقطعان إلى الحظائر ، وآن للراعيـة الحسناء كذلك أن تؤوب ! فقامت (روضة) متثاقلة ، وودعته متخاذلة ، وسارت وراء قطيعها تتهادى في مِرْطها المفوَّف ونطاقها المحبوك وخمارها الأسود كأنها إلهة الرعاة أو تمثال الحسن . تلاقيا مرة أخرى في سرة الوادي المعشب ، وقـد عملت فيـه يد الطبيعة فأزّرته بعميم النبت ، وطرزته بألوان الزهر ، وضمخته بعبير الخزامى وريّا البَشَام وأرج الرند ، فجلسا ساعة تحت دوحة يتساقطان عذب الحديث ، ويتناشدان حلو الغزل ، ويتساقيان كؤوس الهوى ، ثم نهضا يسيران صاعدَيْن تارةً في مدارج السيل ، وهابطين تارةً الى قرارة السهل ، يجنيان الكمأة ، ويقطفان البهار ، ويلتقطان الجزع المفصل . فلما نفضت الشمس على الأفق الغربي تبر الأصيل ، توادعا ، ثم تواعدا على اللقاء ، وتعاهدا على الوفاء بعد أن شق عليها رداءه وشقت هي عليه برقعها ، استدامةً للحب وبقياً على الهوى .

- ٣ -

ظل العاشقان في غفلة الزمان والإنسان ، يتلاقيان كل يوم على خلاء ، حتى نمَّ على هواهمـا شِعر (وضاح) ، فتنبه الغافل وتحرش العـاذل وتحذر الأهل ، فحالوا بينهـا وبين لقائه وتوعدوه . فكان (وضاح) يأتي كل يوم على عادته ، فيجلس في الأماكن التي اعتادهـا ، ويرتاد الغياض التي ارتادها ، ويستروح النُّعَامى والخُزامى ، فلا يجد قراراً في

مكان ، ولا جمالاً في طبيعة ، ولا رَوْحاً في أرَج ، فيدنو من « الخصيب » يترصد غفلة القوم ، ويتنسم ريح « روضة » ، يقول :

يهددوني كيما أخافهم هيهات أنى يهدد الأسد

حتى لقي ذات مساء عبدها الذي كان يرعى عليها رائحاً بالقطيع الى مراحه ، فحمله رسالة اليها يطلب فيها أن توافيه على الكثيب متى غفت العين وهدأت القدم ، فوافته في إحدى أترابها ، فجلسا على الحصباء يتشاكيان حرقة الجوى ، وتحكم الهوى ، وتعقب الرقيب ، وأخذت « روضة » تحكي « لوضاح » كيف استفاض الخبر وخاض فيه الناس ، وكيف حجبها إخوتها وراقبوها بعين لا تغفل ، وذكرت له والدمع يتقاطر من عينيها انهم صمموا على رفض خطبته ومنع تزويجه ، وقرروا تزويجها من موسر كثيف الظل جافي الخلقة ، وحذرته أن يدنو من الحي ، فان قومها يأتمرون به .

غلي جوف « وضاح » وعصفت في رأسه الحمية ، ونزلت بقلبه الصبابة ، وعقد نيته على معالجة الأمر بالحزم ، ومواجهة الخطر بالصراحة ، وقرر زيارتها بعد هذا الحوار البديع الذي خلده وضاح في هذه القصيدة :

قالت : ألا تَلِجَنْ دارنا إن أبانا رجل غائرُ
قلتُ : فاني طالبٌ غِرّةً منه ، وسيفي صارم باتر
قالت : فان القصر من دوننا ، قلت : فاني فوقه ظاهر
قالت : فان البحر من دوننا ، قلت : فاني سابح ماهر
قالت : فحولي إخوة سبعة ، قلت : فاني غالب قاهر
قالت : فليث رابض دوننا ، قلت : فاني أسد عاقر
قالت : فان الله من فوقنا قلت : فربي راحم غافر
قالت : لقد أعييتنا حجةً فأت إذا ما هجع السامر

واسقَطْ علينا كسقوط الندى   ليلةَ لاناهٍ ولا زاجر [1]

وفي الليلة التالية كان « وضاح » في طريقه إلى « الخصيب » ، وكان إخوة « روضة » وعمومتها يرصدون سبيله ، ويطلبون لقاءه بعد أن علموا من الرقيب اجتماع الكئيب ، وكانت الحبيبة على علم بخروج القوم وقدوم المحب الخاطر ، فطرقت مضجعها الهموم ، وتخالجت قلبها الوساوس ، وأخذها عليه المقيم المقعد .

لم يطل انتظار الجماعة للفرد فتلاقوا وراء الوادى ، ثم كان عتاب على الأشعار الجارحة ، وسِباب على الشهرة الفاضحة ، وقتال انتهى بطعنة تلقاها في موضع حبه ، ثم خلا المكان إلاّ من جريحٍ يئنّ ، وفرس يحمحم ، وتحاملَ « وضاح » على نفسه فضمد جرحه وركب جواده وقفل راجعاً الى أهله .

قضى المسكين شهرين على فراش الألم يتضور من ضربان الجرح وهذيان الحمى وثوران الحب . ولكن الجرح كان قريب الغور فاندمل ، والحمى كانت عارضة فأقلعت ، والحب ؟ هذا هو المرض الخامر والداء العياء ، فليس له غير الله من آسٍ ولا طبيب ، لذلك نصحوا « لوضاح » أن يحج البيت ، فشد اليه رواحله ، وسنلقاه هناك بعد قليل .

— ٤ —

أذّن مؤذن الحج للمرة الثمانين بعد الهجره ، فسالت فجاج الجزيرة

---

(١) هذا شعر مولد يتآلف مع مجان بني العباس والغاوين من الشعراء الخلعاء ، ولا يتناسب مع محب محبوب . وأين القصر من راعية بهم ، بل أين البحر من أرض الخصيب ؟ ولا ادري لماذا تنتهي كل قصص الحب في البيداء وعند الأعراب بهذه النهاية ، منع المحبين من اللقاء والزواج ، وتزوج المحبوبة من زوج غني بليد . إنه الخيال الضعيف والوضع الواهي .

بالقباب والهوادج ، وأشرقت دروب الحجاز ومسالكه بالناس رجالاً وعلى كل ضامر ، واكتظت بطاح مكة ورباعها بالحجيج من الشام والعراق واليمن ، ودوّى الفضاء المشرق بأصوات التهليل والتلبية ، وروى الثرى المكروب من دماء البدن والضحايا ، وتعطر الجو القائظ بأنفاس الحسان الغيد ، وفاضت أندية « مكة » النبيلة بالقصف والعزف والغزل ، وخرج الشعراء من بني الأنصار والمهاجرين في مطارف الخز وبرود الوشي على النجائب المخضوبة ، يتعرضون للغواني المحرمات ، ويقطفون من فوق شفافها اللعس ألفاظ الدعاء ، قبل أن ترفع الى السماء . وهناك على الربوة العالية ، ضرب الفسطاط الرفيع العماد ، وفرشت الطنافس ، ونصبت الأرائك ، وصفت النمارق ، ونضدت الوسائد ، وقامت الجواري والولائد ، وعلقت السدول والستائر ، وبرزت من خلالها « أم البنين » زوج الخليفه « الوليد ابن عبد الملك » في زينتها وفتنتها ترسل النظر تارة الى الأفق البعيد وتارة تتصفح به الوجوه المختلفة والأزياء المتعددة ، والناس يتحامون جانبها ، ويتهيبون ظلالها ، لهيبة الملك وشراسة الجند وجلال الخليفة ، حتى الشعراء من شباب الهاشميين وخلفاء « ابن أبي ربيعة » لم يجرؤوا أن يعدوا الى جمالها الفاتن عيناً ولا لساناً ، لأن الخليفة كتب « يتوعد الشعراء جميعاً إن ذكرها أحداً منهم أو ذكر أحداً ممن تبعها » . ولكن الملكة تريد على رغم الملك أن تكون من عرائس الشعر ، وأن تظهر في ديوان الشاعر كما ظهرت في ديوان الملك !

والشعر في « الحجاز » كان حينئذ للمرأة ، يصف حالها ، ويعرض جمالها ، فتصل من طريقه إما الى الزواج وإما الى الشهرة .

فتراءت « أم البنين » للناس ، وسهلت للغزلين الحجاب ، وكان « وضاح » يومئذ مشغولاً عن الشعر والشعراء بنفسه ، فهو يطوف بالبيت ويتعلق بستور الكعبة ، ويسأل الله أن يشعب قلبه بالسلوة : حتى إذا خرج الحجيج

الى « عرفات » ، وتطـاولت الرقاب ، وتطلعت العيون ، وأومأت الأصابع الى موكب الملكة الحاشد ، جذبه جلال الحاجة النبيلة وجمال وصائفها ، فدنا من فلكها ، فوجد كهنَـة الحب وشياطين الشعر يسايرون ركابها ويراقبون سناها ، فمشى بجانب الشاعر « كُثـَيِّر » ، ووقعت عين « أم البنين » عليه فراعها جماله وعلقتها حباله ، فأشـارت بطرف العـين الى جاريتها « غاضرة » فأثبتت معرفته ، فلما أفاض الناس من « عرفات » ، وانحدروا الى مرمى الجمرات ، وقفت بجانبه فتاة فتانة ناهد ، وأسرّت اليه وهو يرجم الشيطان أن الملكة تريد لقاءه في مخيمها على « مِنَى » . اضطرب « وضاح » لهذه الارادة ، وخشي عاقبـة هـذه الدعوة ، وتردد طويلاً في الذهاب الى هذا الموعد ، لأن هذا الحب الملكي أكبر من عواطفه ، ولأن قلبه الجريح لا يزال يقطر في لفائفه ، ولأن خيال « روضة » يعتاده في جميع مواقفه ، ولكنه عربي طمّاع طمّاح مُخاطر ، فلماذا لا يبذ الشعراء ، ويكبت الأعداء بالسبق الى جمال الملكة ومال الخليفة ؟؟

أمسى المساء وكان هلال ذي الحجة قد توارى بضوئه الشاحب خلف الجبل ، وأخذت الأضواء المنبعثة من بواقي المشاعل والمصابيح والكوانين تكافح ظلمة الغسق ، وألقى الناس أرواقهم على الرمال مجهدين بعد نهار قائظ احمرت حواشيه من دماء القرابين ، وضرب الكرى على آذان العامة ، فلم يبق يقظان إلا ذو الحس الرقيق ممن جرهم جمال الليـل الى جمال السهر ، وإلاّ نـَفـْسان شاعرتان بسط الحب عليهما جناحه ، وأزال مـا بينهما من فروق ، ورفع مـا يفصلهمـا من حواجز حتى التقى ابن آدم ببنت حواء وجهاً لوجه ، وأقبلت « أم البنين » على « وضـاح اليمن » تناقله الحديث ، وتساجـله الشعر ، وتنصب له شرك الفتنـة في مطاوي اللفظ ، وتسدد الى قلبه سهم الغواية في مرامي اللحظ ، وحسبنا أن نروي من هذا الحديث المشقق العذب هذا الحوار :

– وكيف حال « روضة » بعدك يا « وضّاح » ؟

– على شرّ حال وأسفاه ! زوجوها من موسر مجذوم ، فأعداها بالجذام ..

– وما حالك أنت من بعدها ؟

– أما قبل هذه الليلة ، فكنت لا أنتفع بنفسي ، ولا أشعر بوجودي .

– ومنذ الليلة ؟

– منذ الليلة عرفت نعيم السماء بعد ما عرفت في « الخصيب » نعيم الأرض .

– اذن ستحبني [1] ؟؟

– نعم ، ولو خيرت ما اخترت .

– وستنسب بي في شعرك ؟

– نعم ، ولو كره « الوليد » !

– اذن ، اصحبني الى « دمشق » فامدح الخليفة ، وسأرفدك لديه ، وأقوي أمرك عنده .

– ٥ –

وعلى « نهر بردى » وفي القصر المشيد ، زكت شجرة الحب حتى عرشت على كل حائط ، وسطعت فوحتها في كل أنف ، وتهدلت أغصانها المزهرة على سرير الخليفة ، ودنت قطوفها المحرمة من فم المجنون وليلاه ، فأكلت منها « حواء » وجرت الى الخطيئة « آدم » ! وآدم دائماً هو الذي

---

(١) لو كانت من بنات الهوى لما جاهرت محبوبها بمثل هذه السرعة ، ولا أدري كيف استساغ الزيات هذه الرواية وصدقها ، وراح يزوقها ويمد أطرافها حتى جاز في أدبه أن وضاحاً أضحى عند أم البنين كعروس الأطفال تلعب به متى شاءت وترده الى مأمنه متى خافت .

يكفر الخطيئة .

ظل « وضاح » ابن الطبيعة الطليقة سجيناً في قصر « الوليد » لا يبصر سماء ولا أرضاً ، ولا يرى غديراً ولا روضاً ، ولا يسمع حركة ولا صوتاً ، ولا يشعر بمجرى الحياة إلا حينما تخرجه أم المؤمنين من مخبئه ساعة يغفل الرقيب وتغفو العين المريبة ، فتطارحه أحاديث الغزل ، وتسقيه من سُلاف الهوى عَلَلاً بعد نَهَل ، ثم ترده عند الخوف الى مأمنه .

ومضت على تلك الحال حقبة من الدهر ورفت عليها ظلال الأمن فيها ، ولكن وجه الجريمة وقاح لا بُدَّ من سفوره ، ذفِرَ مهما كتمته فلا مناص من ظهوره ، والخطيئة لا يطهرها إلا عقوبة أو تضحية . فأهدي الى « الوليد » ذات يوم جوهر نفيس ، فراقه حسنه وأحب أن يطرف به « أم البنين » ، فبعث به اليها مع خادم له ومعه كلمة رقيقة ، فمضى الغلام بالتحفة الى مجلس الملكة فلم يجدها ، وعلم أنها في بعض الغرف فدخلها عليها مفاجأة ، وكانت قد أحست بخطاه دون الباب فبادرت الى إخفاء « وضاح » فأدخلته في صندوق وأغلقته ، وحينئذ دخل الغلام فرأى أواخر جسمه تغيب تحت الغطاء ، فأدى الى الملكة الرسالة ، ودفع اليها الجوهر ، ثم قال لها بلهجة الخبيث الماكر : ألا تهبين لعبدك يا مولاتي حجراً من هذا الجوهر ؟

فأجابته « أم البنين » بلهجة العزيز الممتعض : « كلا يا ابن اللخناء ولا كرامة » (١) .

---

(١) ان الذي دس هذه الفرية على البيت الأموي شعوبي ضعيف الخيال ، أحدنا لا يدخل على أمه او زوجته الا أن يستأذنها فكيف ساغ بعقله أن يفاجيء العبد مولاته ، فأين وصائفها وحواضنها ، وبين قتل العبد ومجيء الوليد وقت كاف لاخفاء الحبيب إذا كان له حقيقة ، واذا كان العبد قد قتل فمن أشاع الخبر ، وهو قد بقي سراً بين الزوج والزوجة . فالقصة موضوعة، وعقدتها تافهة وحبكتها واهية بعد هذا تهمة لسيدة عزيزة عرفت بالصلاح وأخت للرجل الصالح عمر بن عبد العزيز وزوجة وأم أولاد .

ولعلها لو كانت تحسن قراءة الوجوه لحشت فمه بهذا الجوهر حتى لا ينطق ، أو لعلها فهمت لحن قوله ، ولكن نفسها الملكية الأبية أنفت الخشوع لهذا العبد ، فآثرت نقمة زوجها على نعمة خادمه ، وهي مع ذلك قوية الثقة في شفاعة الجمال ووساطة الحب ! ومهما تكن الدوافع الى هذا الجواب فان الخادم قد ارتدّ الى سيده بجلية الأمر ، ولكن الأمر نزل من الخليفة « الوليد » في بال واسع ، فأمر بالغلام فوُجِئت عنقه ، ثم لبس نعليه ، ودخل على أم البنين وهي جالسة تمتشط في تلك الغرفة ، فجلس على الصندوق وقد علم وصفه من الغلام ، ثم قال بلهجته الهادئة الرزينة :

– يا « أم البنين » ما أحب اليك هذا البيت من بين بيوتك ، فلم تختارينه ؟

– أختاره وأجلس فيه ، لأنه يجمع حوائجي كلها ، فأتناولها منه كما أريد من قرب .

– ألا تهبين لي صندوقاً من هذه الصناديق ؟

– كلها لك ، يا أمير المؤمنين .

– ما أريدها كلها ، وانما أريد واحداً منها .

– خذ أيها شئت .

– أريد هذا الذي جلست عليه .

– خذ غيره ، فان لي فيه أشياء أحتاج اليها .

– ما أريد غيره .

– إذن خذه يا أمير المؤمنين .

– فأشار الى الخدم ، فحملوه الى مجلسه ، ثم أمر العبيد فحفروا تحت

بساطه بئراً بلغوا بها الماء ، ثم دعا بالصندوق أو الناووس ، وقال له : « إنه بلغنا شيء إن كان حقاً فقد كفناك ودفناك ودفنا ذكرك وقطعنا أثرك الى آخر الدهر ، وان كان باطلاً فقد دفنا الخشب وما أهون ذلك ! »

ثم قذف به في البئر ، وهيل التراب ، وسويت الأرض من وراء البساط ، وأخذ الخليفة مجلسه ، واستمر الفلك يدور دورانه الأبدي المنتظم ،

كأنْ لم يكن بين (الحَجُون) الى (الصفا)
أنيس ، ولم يسمر (بمكة) سامر

●

المساجلة [1] :

الى الأستاذ الزيّات [7]

أحييك بتحية العروبة ، وأحيي فيك « الأدب » الذي تصل بيننا وشائجه ، وتجمعنا أواصره ، والبيانَ الذي ألفيته يترقرق على لسانك سائغاً عذباً ليلةَ ضمتني وإياك « دار البلاد » فأخذنا بيننا بأطراف الأحاديث حتى ملكني تواضعك الجم ، وخلقك السمح ؛ وبيانك المشرق الذي دلني على أن وراءه قلباً كبيراً هو منبع ذيّاك التواضع النبيل ، وذلك الخلق السجيح ، وهذا اللطف الفياضة كله بالروح الشريف . فأنا ما زلت أتذكر ذلك وأذكره مُكبِراً ومُعْجَباً ، وما زلت أحب لو أني أجد في وقتي متسعاً فأجتمع بك وأتمتع بحديثك وأستفيد من مساجلتك وحوارك في أدب العرب وبيان لغتهم الساحر الأخاذ . أما — وقد ضاقت بي رقعة الوقت حتى لم أوفق لبلوغ الأرب على نحو ما أشتهي — فلا أقلَّ من أن تكون لي منه قسمة تتسع لإنشاء رسالة يحملها اليك عني بريد « البلاد » بما يبدو لي من وجوه الرأي والفكر فيما

---

(١) بقلم الأستاذ الكبير محمد بهجة الأثري .
نشر الرد المفحم في غرة شهر رمضان ١٣٤٨ هـ ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٣٠

أطالعه من فصولك القيمة التي كان آخرها ما طالعتَ به الأدب منها مأساة الشاعر وضاح ..

★ ★

لقد قرأت بإمعان هذا الفصلَ الرشيق أسلوبه ، الناصعة ديباجته ، الكريمة ألفاظه ، وما زلت أسايره وأقلب النظر في أعطافه حتى فرغت منه ، وإذا أنا بإزاء أمر لا أعلم كيف أدبرتْ عنـّي أوائله ، وأقبلت عليّ أواخره ، وإذا أنا تجاه خبر لا أدري كيف غرب كُنْهُه عن بالك ، ولا كيف جرت به يراعتك شوطاً بعيداً ، والمظنون أنها يراعة تتلكأ دون المشتبهات ، فلا تضرب في مجاهلها قبل أن تخبر أعلام المذانب وتأمن الخَبَار ووعوثة الموطىء الذي تطؤه ، فلقد راعني إيمانك اليقيني بقصة وضاح وأم البنين على النحو الذي أوردته ، وراعني أن يقدم أديب مثلك في عصر التمحيص على إثبات أخبار موضوعة نفاها أهل العصور الغابرة واتهموها بالوضع . ولا أعلم هل تختلف معي في أخبار الماضين وفهم التأريخ بأمر جوهري ؟ فإني لم أقف على رأيك في مزاعم الرواة وأهل الأخبار ، ولست أريد بمجرد ما لاح لي من الرأي في مقالتك أن أقوّلك ما لم تقل ، وأحكي على لسانك ما لم تحكِ ، ولكنني أحب أن تعرف رأيي في ذلك ، لتدفع عني ما عسى أن يختلج في صدرك من وجوه الشبهات في سبب دفاعي عن أم البنين زوج الخليفة الوليد بن عبد الملك .

فاني على سلفيتي وحبي لقومي العرب لا أسبغ على الغابرين غلائل التقديس والاجلال فيما ليس هو من الحق في شيء ، ولا أزعم أن الماضين يجلون حتى عن إتيان اللمم ، فأخرج بهم عن البشرية ، وأخلع عليهم نعوت النبيين والصديقين ، وإنما أنا أعتقد أنهم بشر مثلنا ، فيهم الطيب والخبيث ، وفيهم البر والفاجر ، وفيهم المؤمن والملحد ، وفيهم العالم

والجاهل ، وفيهم العاقل والأفين ، لا يفضلوننا ولا نفضلهم الا برجحان كِفـّة صفة من هذه الصفات الفاضلة فينا أو فيهم . أما التشيّع لنحلة دون نحلة ، وأما العصبيه ، وأما الحزبية لحزب دون حزب ، فمعاذ الله أن يخطر لي شيء من ذلك ببال ، فما أنا في ديني بمقلد ، ولا في قضايا التأريخ – ولا سيما الإسلاميّ – بذي عصبية ، ولكنني امرؤ أستمع القول فأمحصه ثم أتتّبع أحسنه وأحله منزلته في القلب ، وأحمد الله على أن لم يجعلني علوي الهوى أو أموي الرأي ، بل جعل مني إنساناً لا يعنيه بعد أن يبدو له رأي أفرغ له اجتهاده أوافق أهواء قوم أم خالف أهواء قوم آخرين . ذلك قول الحق ، أفضي به اليك لتعلم وليعلم من يعنيه الأمر أني لم أجاذبك بردة المساجلة عصبيةً لذوي « عبد شمس » وأرباب التيجان من « بني مروان » ، أو تقديساً مطلقاً للقوم لأنهم كانوا ملوكاً للعرب والإسلام ، يجلـّون عن النقيصة ولا يعلـَقُ بهم ذام !

أقول هذا وأنا جد مغتبط بأن أرى قلماً مثل قلمك مطبوعاً على الجري في ميادين الاصلاح يتنزّى في مجاله الذي انفرج أمامه ، ثم لا يخرج عنه فيتخذ من الأخبار الموضوعة قـَصَصاً لا ينتهي بمغزاه إلا إلى غير ما يهوى منه الإصلاح ، ولئن أعجبتنا الغلائل المـُصَبَّغَة التي خلعتَها على هذه الأحدوثة ، والألوان التي رسمتها بريشتك التي يجدر بعشاق الإنشاء الرقيق أن يترسموا خطوطها – لم يعجبنا ما تحت ذلك من المعاني والأخيلة ، فانها معان وأخيلة تؤلم الواقع ، وتخدش ضمير التأريخ الذي لا يريد من أهل الأدب الانساني أمثالك إلا أن يُبْقُوا عليه ، هذا إذا لم يروا أن يوسعوه تمحيصاً فيحسنوا اليه بنفي الشوائب التي ما زجت صفو حقائقه حتى أخنت منها على كثير .

وما تحدثتَ به في قصتك عن أم البنين ووضاح ، قد كنت تستطيع

– وأنت القدير – أن تقص نبأه كما قصه الأخباريون ، وتعلق عليه كما علقوا . هذا إن لم نطالبك بأن تبالغ أنت في نفيه أكثر منهم لِما جَدَّ في هذا العصر من أصول وطرائق في النقد والتحليل تتقنها أنت وما كانت منهم على بال ، وكنت تستطيع أيضاً – إن لم تر بُدّاً من كتابة هذه القصة – أن تقصها كما تريد مستبدلاً بأسماء أبطالها وأماكنها غيرَها مما تختاره ، فتكون في منجاة مما صرتَ اليه . ما وجدنا هذه القصة أيها الفاضل ، تدخل في حساب الصدق والواقع ، لا من ناحية العقل ، ولا من ناحية النقل . فكيف يسوغ لنا أن نقبلها ؟ أم كيف يسوغ لنا أن نرويها واثقين مطمئنين ، فندنس بالتهمة شرفاً طاهراً ، ونلوّث بالوقيعة عرضاً نقياً ؟

أم البنين تعشق وضاحاً ، وتجمعه بها على غِرّة من زوجها الخليفة ، تطارحه الغزل . ثم يطرفها الخليفة بجوهر نفيس يحمله اليها خادم له ومعه كلمة رقيقة ، فيمضي الخادم اليها فلم يجدها ، ثم يعلم أنها في بعض الغرف ، فيدخل عليها مفاجأة ، فتحس بخُطاه دون الباب ، فتبادر إلى إخفاء وضاح فتدخله في صندوق وتغلقه – . وحينئذ يدخل الخادم فيرى أواخر جسم وضاح تغيب تحت الغطاء ، فيؤدي الى الملكة الرسالة ، ويدفع اليها الجوهر ، ثم يستوهبها بلهجة الخبيث الماكر حجراً من هذا الجوهر ، فتمتعض منه ، فيتوارى ، فيرتد الى سيده الخليفة بجلية الأمر ، فتوجأ عنقه . ثم يلبس نعليه ويدخل على أم المؤمنين فيجدها جالسة تمتشط في تلك الغرفة ، فيجلس على ذلك الصندوق ، وما يزال بها حتى يأخذه منها ، ثم يأمر أن تحفر بئر فيقذف الصندوق فيها ، وهو يقول : « إنه بلغنا شيء ، إن كان حقاً فقد كفناك ودفنا ذكرك وقطعنا أثرك الى آخر الدهر ، وان كان باطلاً فقد دفنّا الخشب ، وما أهون ذلك ! » .

فأنت ترى أن الأمر محصور بين أربعة : أم البنين ، ووضاح اليمن ، والخليفة ، والخادم . فأما الخادم الذي نقل السر الى الخليفة فقد أمر الخليفة به فوجئت عنقه فمات قبل أن ينث الحديث . وأما وضاح فقد رمي في البئر وهيل عليه التراب ثم سويت الأرض ورد البساط إلى مكانه . بقي الخليفة وأم البنين ، فهل يعقل أن واحداً منهما حدّث بالخبر حتى شاع وملأ الاسماع ؟

اللهم ، لا !

فان قلت : إن الخدم الذين حملوا الصندوق ورموه في البئر ، قد حدثوا به .

قلنا لك : ومن أين لهم أن وضاحا كان في الصندوق والخليفة نفسه لم يفتحه ، ولم يدر أكان فيه شيء حقا أم لا ، حتى قال فيما يزعم الواضع : « إنه بلغنا شيء ... ان كان حقا فقد كفناك ودفناك الخ الخ .. » ؟

ثم هل يعقل أن الخليفة اليقظ الذي بادر إلى الخادم فقتله – على افتراض صحة ذلك – يغفل عن هؤلاء ، ويدعهم أحياء يتمتعون بخيراته ، ويتحدثون بما يجزع منه حتى لم يبق سمع لم يطرقه هذا النبأ ؟

حديث خرافة ، يا زميلي الأستاذ ، من أبين الأحاديث الخرافية وضعا ، وواضعه كذاب ضعيف الحيلة ، لا يحسن الوضع ، يخذل أول كلامه آخره وآخره أوله .

فهل يليق في مذهب القصص أن يتخذ هذا الكذب المتخاذل أساسا لقصة ؟ وفي أساسها يرمي بخليفة عربي شريف هُمام ، وزوج خليفة هي من أرومة قومها الغُرّ في الذؤابة والسنام ؟

هذا مجمل من النقد والتحليل عرضناه له من ناحية العقل والمنطق .

ونحب أن نعرض الآن لتزييفه من ناحية النقل ، ولا أحسب أن هذا لا يدخل في محيط اطلاعك الواسع ، فلعلك قد حرثت « كتاب الاغاني » حرثاً وقتلته بحثاً ، حتى وفقت لاستخراج مثل هذه « الأقصوصة » منه ، ولعلك – لو أعدت النظر فيه – تجد أبا الفرج الإصفهاني ، وهو من تعرف مذهبه ونحلته ، قد أفضى الينا في كتابه هذا[1] بأن هذا الحديث من وضع شعوبي زنديق في عهد بني العباس ، وقع بينه وبين رجل من ولد (الوليد) فخار ، خرجا فيه الى أن أغلظا المسابة ، فوضع الشعوبي كتاباً زعم هذا الزعم .

ووضاح ، بعد ذلك رجل نكرة أشبه أن يكون خيالياً ، وضعه القصاص وضعاً متكلّفاً ، فهم مختلفون في كل أمر من أموره : مختلفون في نسبه ، مختلفون في نشأته ، مختلفون في عشقه وأخبار من يعشق .

وقصته – كما يقول صاحب حديث الأربعاء فيما أتذكر الآن – مكونة من عناصر مختلفة منها السياسي ، ومنها العصبي ، ومنها المبالغات العامية . وهذا الرأي نوع من التحليل لقول صاحب الأغاني في تحدثه عنه وعن عشيقته المزعومة روضة : « ... ولم نجد لهما خبراً يرويه أهل العلم الا لمعاً يسيرة وأشياء تدل على ذلك من شعره ، فأما خبر متصل فلم أجده إلا في كتاب مصنوع غثّ الحديث والشعر لا يذكر مثله » .

وبعد ، فهذا مجمل ثانٍ من القول في هذا الخبر المصنوع ، وإنّا لنتقاضى قلم الأستاذ أن يصوغ لنا من عقود الأقاصيص كل ما يثير الإعجاب ويهز النفوس ويربي الفضيلة ويحيي القومية من معاني الشجاعة والفروسية والمجد والإرادة والهمة والمضاء وما الى ذلك مما كانت تفيض به الأخلاق

---

(١) الأغاني ج ٦ ص ٣٢ ، ط. الساسي .

العربية ، وتفيض به عنهم الكتب والأنباء ، فما أشد حاجتنا اليوم الى مثل هذا النوع الذي أذكره ، وما أشد هذا النوع من المعاني العالية إلى قلمٍ صَنَاع كقلم الأستاذ يجيد الصياغة ، ويبدع في تنويع الصور البيانية !

نص جواب الزيات :

الى الأستاذ الأثري [١]

أدت الي « البلاد » كتابك الرقيق القيم ، فهز عطفي ما وجدت من سمو أدبه ، ونُبل غضبه ، وجميل من رجال الأدب أن يصطنعوا الأدب ، ومن حماة الحق أن يتبعوا الحق ، وجدير بمن اصطفاه الله لحمل هذه البراعة القدسية أن يصل ضميره بربه ، ويقطع أسباب الهوى من قلبه ، فيبحث للعلم ، ويكتب للإفادة وينقد للحقيقة . إن فقه لسان العرب أيسر من فقه لسان الأدب ، لأن اللغة من الناس ، والأدب من الله ، وللمرء حيلة فيما يكسبه ، ولكن لا حيلة فيما يوهبه .

أما بعد ، فتعال يا زميلي نخض فيما بدأت من حديث وضاح ، لعلك أخذت عليّ ما أخذت لأنك حسبتني كتبت ترجمة تأريخية أو حررت حادثة واقعية ، ولم يدر في خَلَدي حين قصصت نبأ هذا الشاعر البائس الا أن أصور الحياة البدوية ، والبيئة العربية في أقاصيص أنتزعها من الأساطير أو ما يشبه الأساطير ، فأنا في هذه القصة وفيما نشرت من أمثالها قصصيّ لا مؤرخ ، وبين القصص والتأريخ رحم جذاء وعداوة مستحكمة ، لأن التاريخ يروي ولا يبتدع ويحقق ولا ينمق ويصدق ولا يمين . أما القصة فانها تختلق وتبالغ وتؤثر بالصور الكلامية

---

(١) نشر في جريدة البلاد في ٨ رمضان ١٣٤٨ هـ – ٧ شباط ١٩٣٠ م

الخلابة ، ثم ترتب الأحوال وتسوق الحوادث على حسب الخيال الممكن لا على حسب الأمر الواقـع . وفي اعتقادي أن « ولتر سكوت » ومَنْ نهج نهجه من القصصيين قد أساؤوا الى التاريخ والقصة جميعاً حينما أرادوا أن يصلوا رحمهما ويوفقوا بينهما بابتداع القصة التأريخية ، فإن القصة بطبيعتها تفسد التـأريخ وتشوهه بقبولها الاغـراق والاختلاق والرواية المتهمة ، والتأريخ بتوخيـه الحقيقة وتمحيصه النقل يضيق مجال المخيـلة ويحصر حدود القريحة .

فاذا اتفقنا ، يا سيدي الأستاذ ، على ما اتفق عليه علماء البلاغة الحديثة من أن للقصصي أن ينسج الأخبار ويسرج الاحاديث في حدود الإمكان ابتغاء التأثير والامتاع ، لا ابتغاء التقرير والاقناع ، خرجت من عهدة مـا أخذتَ علي ، وأدخلنـا مأساة وضاح في باب القصص الشعري ، ثم خرجنا معاً نضحك ممن يترك أسفار التأريخ المحررة ، ليدرس العصر الجاهلي في قصة عنترة [1] .

ولكنك تقول لي : إن الاعتماد على فن القصص لا يكفي مساغـاً لنسبة حادث متخيل الى انسان متحقق ، وأنا أقول لك : إن حادث وضاح لم يكن متخيلاً كله ، فان حبه لروضة واتصاله بأم البنين وقتله في دار الوليد أمور تواترت بها الرواة ، وتوافرت على حدوثها الشواهد ، وما كان عملي إلا خلق الظروف ووضع الالوان وربط السياق وجلاء الصورة .

هلم نعد النظر في (الأغاني) ، وهو أوفى وأوثق كتاب ترجم بوضاح ، فماذا نجد ؟ نجد أن أبا الفرج قد روى في أمر وضاح وأم البنين عشر

---

(١) حبـذا لو أن الاستاذ الزيات وقف بالرد عنـد هذا الحد ، اذن لخرج من بعض مـا اقترف ، ولكنه ماحك وجادل ، واراد إثبات باطل الرواية بباطل رواية ثانية ، فأخفق . (المؤلف)

روايات في أسانيدها الاصمعي والخليل بن أحمد والحرمي بن أبي العلاء وابن الكلبي من أثبات الرواة ، وبديح وكثيرٌ ممن عاينوا الحادث ولابسوا أهله . تتناصر هذه الروايات جمعاء على أن وضاحاً شبب بأم البنين ، وأن أم البنين هويته واستقدمته ، وأن الوليد قتله ودفنه في داره ، وإنما الخلاف في مسألة الصندوق ، فعلي بن سليمان الاخفش يروي في كتاب المغتالين عن ابن الكلبي ان أم البنين هي التي وضعته في الصندوق على النحو الذي قصصناه ، وخالد بن كلثوم يقول إن الوليد لما همّ بقتل وضاح راجعه ابنه عبد العزيز ونصح له ألا يفعل حتى لا يكون في قتله تحقيق فعله ، فلم يقبل منه ، وجعله في صندوق ودفنه حياً .

أما وضع أم البنين اياه في صندوق اخفاءً لأمره عن الخادم المفاجىء ، فيقول خالد : إن رجلا شعوبيا افتراه ، ليغيظ به رجلا من أعقاب الوليد .

فالحادثة إذن قائمة الاساس باجماع الرواة ، وما كان الخلاف الا في مسألة تفصيلية مهما تعددت وجوهها فلن ترى فيها وجهاً أجمل من وجه ! والذي حملني على الاخذ برواية ابن الكلبي اتفاقها مع المنطق ، فان دفن وضاح في قصر الخليفة دليل ناهض على اقامته في مجلسه ، فان وضاحاً أهون على الخليفة من ذاك ، والوليد أقدر على أن يوعز بقتله بين أهله ، فيسلم لسانه من الختل ، ويده من القتل ، وعرضه من القالة .

على أن العقل يظاهر النقل في إمكان وقوع هذه الحادثة ، فان عصر الأمويين كان عصر انتقال من خلافة الى ملك ، ومن بداوة الى تحضر ، ومن بؤس الى نعيم ، وفي عصور الانتقال تنحلّ القيود ، وتتعطل الحدود ، وتفسد الأخلاق ، وتطغى الشهوات ، وتكثر هذه المخاطر الغزلية . ولا أريد أن أثقل على طبع الأستاذ بسرد ما يعلم من أخبار الشعراء مع النساء في موسم الحج في شباب هذه الدولة ، وحسبي أن أذكّره بحادثة

من هذا النوع لا يتمارى في وقوعها أحد ، وهي أشبه في طبيعتها بحادثة وضاح من الليلة بالليلة ، ووقوعها قرينة قوية على وقوع تلك ، أريد حادثة أبي دهبل الجُمَحي مع عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان ، فقد يعلم أن أبا دهبل الشاعر الجميل رآها في سرادقها بالحج ، فملأ عينيه من جمالها على غرة منها ، فلما فطنت له سترت وجهها وشتمته ، فقال فيها :

إني دعاني الحين فاقتادني حتى رأيت الظبي بالباب
يا حسنَه اذْ سبني مدبراً مستتراً عني بجلباب
سبحان من وقفها حسرةً صبت على القلب بأوصاب
يذوب عنها ان تطلبتها أب لها ليس بوهاب
أحلها قصراً منيع الذرا يحمى بأبواب وحجاب

فلما اضطربت الألسن بهذا الشعر ، وسمعته عاتكة إنشاداً وغناء أعجبت به ، ووصلت الشاعر بالهدايا ، وجرت الرسل بينها وبينه ، وصدرت عن مكة فتبعها ، ووردت دمشق فوردها معها ، وهي تتعهده بالبر والعطف ، وانتشر الصوت بهذا الأمر انتشار الصبح حتى بلغ سمع معاوية ، فخلا بالشاعر خلوة حذره فيها جوار يزيد ابنه (فان له سورة الشباب وأنفة الملوك) ، وإنما أراد معاوية أن يهرب أبو دهبل ، فتنقضي القالة عن ابنته ، فخرج الى (مكة) هارباً على وجهه ، فكان يكاتب عاتكة ، وكان لمعاوية من الخصيان رقباء على ابنته ، فجاءه أحدهم ذات يوم يقول : « إن كتاباً سقط الى عاتكة ، فلما قرأته بكت ، ثم أخذته فوضعته تحت مصلاها » ، فأمر الخصي أن يلطف لهذا الكتاب حتى يأتيه به ، فلما قرأه الخليفة اعتلج في صدره الغم ، وبعث الى يزيد ، فلما جاء قال له : « إن هذا الفاسق أبا دهبل قد كتب هذا إلى أختك عاتكة ، فلم تزل باكية منذ اليوم ، وقد أفسدها فما ترى فيه ؟ » فكان من رأي يزيد أن يكمن له عبد من العبيد في أزقة مكة فيريحهم منه . ورأى داهية العرب أن

رأي ابنه فائل ، فصرفه ، وحج في تلك السنة . فلما انقضى موسم الحج ، دعا اليه وجوه قريش وشعراءهم ، وكتب فيهم اسم أبي دهبل ، ففرق فيهم صلات كثيرة ، ثم صرفهم واستبقى أبا دهبل ، وأقبل يعاتبه على ما صنع في رفق ولين ، ثم سأله في آخر الحديث : هل تزوجت ؟

فقال : لا . .

فقال : أي بنات عمك أحبّ اليك ؟

قال : فلانة .

قال : قد زوجتكما ، وأصدقتها ألفي دينار ، وأمرت لك بألف أخرى يجري عليك مثلها في كل سنة .

فعقل الشاعر لسانه في فمه ، وكفن حبه المقتول في دمه ، وانصرف معاوية مسروراً الى دمشق ، ولم يحج في تلك السنة إلا من أجل أبي دهبل .

أظنني يا سيدي الاستاذ قد أدليت اليك في شي من الاجمال بحجج من الفن وبينّات من التاريخ ، وشواهد من القرائن تتساعد كلها على تأييد مذهبي في هذه القصة . فاذا نقعت نفسك ، وأراحت ضميرك ، حمدت الله على السلامة من الملامة ، وان وجدت مع كل ذلك ان الشبهة قائمة ، ووجوه الخلاف لا تزال قائمة ، فأني أعدك ان اطوي هذه الأسماء متى عزمت على نشرها مع غيرها للقراء [1] .

---

(١) تاريخ بني امية وضع بيد اعدائهم ، إما عداوة نحلة ، او عداوة سياسة ، او عداوة جنس ، وهذه الاخبار والمثالب التي يتناقلها رواة اكثرهم عرفوا بالوضع وخلق المثالب تقرباً من هوى الخلفاء العباسيين ، او بدافع الحط من الاسرة العربية التي اعلت راية الاسلام خفاقة على سفوح الأنضول وسهوب التركستان وسهول البنجاب وعلى شرائع اللوار ونجاد البرنس ، وابن الكلبي رجل وضع مثالب العرب ، وهو كذاب مجاهر بالشعوبية يناصرها على العرب ، ومثله الهيثم بن عدي وهو شر من صاحبه ، ومثله بديح مولى عبدالله ، وكثير عزة هل ادل على غفلته وضعف عقله من ايمانه برجعة محمد ابن الحنفية ، وانه في غاره حي يغذى اللبن والعسل ؟ (المؤلف)

عود على بدء

الى الاستاذ الزيات [١] :

هبطت عليّ من محلك الارفع رسالتك بل طرفتك هبوط نثير الطل على نظيم زهر الروض في السحر ، فنقعت فؤاداً بات ظمِئاً الى نداها ، وانعشت روحاً كان شيقاً إلى شميم شذاها ، وعكفت عليها امتع النفس باستجلاء ما ضمنتها من اغراض ومقاصد وإشارات ، واشُوفُ وذيلة الروح بما خلعت ريشتك الجميلة عليها من الوان ودهان ، واللسان يتحرك رطباً بقول الشاعر :

ظفر الطالبون واتصل الوصـ ـل وفاز الأحباب بالاحباب

أجل ، إن ظفري برسالتك ظفر باخائك ورضاك . ومن الحق على من يصطنع هذا الأدب العلوي الطاهر أن يرضي بأقواله وافعاله « الأدب » ، وكل من يتصل اليه بسبب ، ويمت اليه بنسب ، لأن الأدب في الحقيقة ليس هو صنعة اللسان يحذقها الإنسان ثم يبرزها قوالب لا تجد تحتها إلا الخسيس من معاني الروح الكزّ الجاف ، وإنما هو أدب النفس : يصل المرء بربّه ويعلو به عن مراتب الضعة والهوى ، ويقطعه عن جاذمات الارحام وقاطعات حبال الإخاء ، وذلك مُصَاص هذا الفن الذي نمَتّ اليه ، ونقيمه فيما بيننا مقام الوالد ، ونعمل على رفع شرفه حين نتداول فنونه ونتجاذب أبحاثه حتى ننتهي بذلك الى مداولة التعارف فمجاذبة حبال الإخاء فأخذ بضبع الانسانية .. لذلك لا أراني في عودتي اليك أذاكرك فيما تضمنته رسالتك من فنون القول الا عائداً على التعارف أحكم وشائجه ، وعلى الإخاء أوثق أواصره ، وأعوذ بالله أن أكون من ذوي اللجاج بالباطل ،

---

(١) نشرت في جريدة البلاد ، في ١٥ و ١٧ شهر رمضان ١٣٤٨ هـ - ١٤ و ١٦ شباط ١٩٣٠ م .

أو المساجلة على غير طائل .

لقد كان الخلاف بيني وبينك ، أيها الزميل النبيل ، يتناول حادثاً واحداً هو حادث وضاح مع أم البنين : هل يصححه العقل ويؤيده النقل ، أو يبطلانه ؟ وإذا به يصبح – لِما أوردتَ – في فنون مشتبكة من القصص والتاريخ والجرح والتعديل والمعقول والمنقول ، كلها يستدعي النظر ويستثير الانتباه ويستدعي التمحيص ، وأحسب أن في تناولها بالتحليل البرىء خدمة للأدب والتاريخ والحقيقة أراك جد حريص عليها .

تقول أيها الفاضل في شرح مذهبك : « إنك حين قصصت نبأ هذا الشاعر البائس لم يدر بخلدك الا أن تصور الحياة البدوية والبيئة العربية من أقاصيص تنتزعها من الأساطير او ما يشبه الأساطير ، فأنت في هذه القصة وفيما نشرت من أمثالها قصصي لا مؤرخ » .

حسن جداً ، وأحسب أنك لو وقفت عند هذا المعنى من تنصلك إذن لخرجنا من البحث ونحن ظافرون بالذي قصدنا اليه من القول بأن مأساة وضاح أسطورة من الأساطير ، وإذن لانقطع الخلاف بيني وبينك إلا في أمر الغاية التي ترمي اليها القصة الغرامية المنتهية بنتيجة يندى لها الجبين ، وفي أمر آخر هو أن القصة التي تختلق وتسرج الاحاديث وتمين لا يمكن أن تصور ألوان الحياة ما لم تجد من الواقع مستنداً وظهيراً . نعم ، لو أنك وقفت عند ذلك المعنى من القول لانقطع سبب الخلاف بيني وبينك في الجوهر ، وسهل الخطب فيما يستتبع ذلك من الرأي في القصص ومراميه . ولكنك عدت بعد هذا التقرير فوقفت من الأمر موقف المؤرخ ، لتدفع اعتراضي : (بأن الاعتماد على فن القصص لا يكفي مساغاً لنسبة حادث متخيل الى إنسان محقق) ، فقلت : (إن حادث وضاح لم يكن متخيلا كله ، وان حبه لروضة واتصاله بأم البنين وقتله في دار الوليد أمور (تواترت) بها الرواة وتوافرت على حدوثها (الشواهد)

ثم سلكت لتأييد ذلك طريقة البحث في الأسانيد ، فسميت مَنْ سميت من الرواة الذين سنعرض لهم ، ثم ظاهرت ذلك بقصة لعلها أوهى من قصة وضاح في نظر النقد والتحليل ، وأكذب منها في مذهب الجرح والتعديل كما سأريك .

وأنا أقول لك : إن وضاحاً رجل نكرة اخترعه الرواة ، وهم يروون عنه الشيء ونقيضه ، ويختلفون في كل حال من أحواله ، فهو عربي حميري تارة ، ومن سلالة الفرس تارة أخرى ، أو هو في مذهب الموفقين عربي ولكن أباه مات عنه طفلاً فتزوجت أمه رجلاً من سلالة الفرس الذين يسمون الأبناء ، ورواية رابعة تشعر أن أباه مات عنه وهو رجل متصل بالخلفاء في دمشق وأنه رثاه بشعر .. فبأي ذلك نأخذ ، يا سيدي الاستاذ ؟ إن ما رأيت من الخلط والخبط في نسبه ونِجاره ، تراه بعينه فيما يتحدثون به عن أحواله وحبه ، وعن حبيبته روضة ، أهي فارسية أم عربية — ؟ وعن موته كيف كان أدفناً في البئر وهو في الصندوق ، أم اغتيل اغتيالاً ؟ إذ شبب بأم البنين في شعره ، فنمي ذلك الشعر الى الوليد فأوعز باغتياله ؟ كل ذلك تضارب وتناقض يدل دلالة بينة لا يداخلها الريب ، على ما أرى في أمر هذا الرجل المخترع . ورواة يختلفون كل هذا الاختلاف ، ويسرجون كل هذا السرج الفاحش ، لا أستطيع ان اجرؤ في مذهب العلم فاعتدّ معك اختلافهم وكذبهم (تواتراً) أصدّق به مثل خبر الصندوق الموضوع ، فأنت تعلم من غير شك أن (المتواتر) هو ما يرويه جماعة لا يمكن تواطؤهم على الكذب لكثرتهم وعدالتهم وتباين أماكنهم ، وأين توافر الشروط كلها أو بعضها فيما يروون من أخبار وضاح فنؤمنَ بها ؟

والله ، لو أني وجدت فيها خبراً واحداً سالماً من التناقض والاعتلال

لنزلت على حكمك ، وسميت (متواتراً) كما تسمى ما لم يعدّ حتى من (الآحاد) ، وان كنت أخرج على مواضعات العلم ومصطلحاته ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن قط ، ومن اعتددتهم أثباتاً ممن رووا أحاديث وضاح أو لابسوها كلهم متهم مجروح ، وأبو الفرج حين ينقل عنهم لا ينقل عنهم لكونهم ثقات ، وإنما هو يريد أن يكون أغانيه جامعاً لما تضطرب به الالسنة إن حقاً وان باطلاً[1] . فما على الناظر في كتـــابه الا ان يعرف ذلك ، ليمحص الحق من الباطل .

فمن أولئك الرواية هشام بن محمد بن السائب الكلبي راوي خـــبر الصندوق ، وهو رجل كذاب أشِر ، أجمع المحققون على اطراحه واطراح ابيه أيضاً لاشتهارهما بالكذب والوضع . وكان هشام شعوبياً يتعصب على العرب ، وضع في مثالبهم كتابـــاً نقضناه بكتاب سنخرجه للنـــاس . وهذا صاحب الاغاني نفسه حين ينقل عنه يقفّي على ذلك بمثل قوله : « هذا من أكاذيب ابن الكلبي » ، وقوله : « لعل هذا من أكاذيب ابن الكلبي[2] » .

ومنهم الهيثم بن عدي ، وهو شر من هشام وابيه ، فقد ذكر الجاحظ في (البيان والتبيين[3]) : ان ابن الكلبي كان يأكل الناس اكلا ، حتى إذا رأى الهيثم بن عدي ذاب كما يذوب الرصاص ! وقد اجمع العلماء على جرحه وترك حديثه ، لكذبه وسقوطه وانكشاف قناعه[4] . وللحسن ابن هانيء ودعبل الخزاعي هجاء مرّ فيه لا نحب روايته .

ومنهم بديح مولى عبدالله بن جعفر ، يقال له بديح المليح ، كان مغنياً

---

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٩ و ٢٠ .
(٢) تأريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وميزان الجرح والتعديل الذهبي .
(٣) ج ٣ ص ٧٣ ط . السلفية .
(٤) راجع الخطيب البغدادي والذهبي .

يغني اغاني غيره ، وكانت امه بربرية . وكانت ترقي من عرق النَّسا، فأخذ ذلك عنها ، وكان هو صاحب سَمَر ، ومثل هذا الرجل لا يعتد علماء الجرح والتعديل بمرويّه .

ومنهم كُثَيِّر عزّة ، وكان احمق مسرفاً في الحمق ، ضعيف العقل الى حد غريب ، كان الناس يتخذونه هزواً وسخرية، فيصدق كل ما يلقى اليه ، ويسمع المزاح فيجيب جاداً مقتنعاً . مرض ذات يوم فدخل عليه نفر يعودونه ، فسألهم : بم يتحدث الناس ؟ قالوا : يتحدثون بأنك الدجال ، فأجاب : أما اذْ قلتم هذا فاني لاجد في عيني هذه ألماً منذ أيام ! وكان مذبذباً منافقاً ، يقدم محمد ابن الحنفية ويؤمن بالرجعة ، ثم يمدح بني أمية ويغلو في مدحهم ويفاخر بعشيرتهم نِفاقاً ، بل كان يستبيح الكذب والنفاق في كل شيء[1] .

لا أريد ان أولف معجماً في رجال أسانيد الاغاني فاستوعب احوالهم ، وانما قصدت ان اضرب لك الأمثال ، لاثبت لك ما تسميه (تواتراً) وتأخذ به على انه ثابت صحيح استناداً الى روايات هؤلاء الكَذَبَة من الشعوبيين والاخباريين – لم يتوافر فيه شرط من شروط التواتر ، بل ولا الآحاد ، بل الادلة قائمة على تسميته كذباً واختلاقا .

اما ورود اسم الاصمعيّ والخليل بن أحمد في بعض الاسانيد ، فلا ينهض دليلاً على صحة هذا الخبر . ذلك لان الراوي عنهما ، وهو محمد بن المرزبان ، يروي عن الوضاعين والكَذَبَة أمثال ابن الهيثم وابن الكلبي وابيه ، فلا حجة فيه ، ولا خير بما يرويه .

ومن الغريب أن تقول ، يا سيدي الاستاذ ، باتفاق خبر الصندوق

---

(١) راجع اخباره في الأغاني ، ووفيات الاعيان ، وحديث الاربعاء .

الذي رواه ابن الكلبي مع المنطق ، بعد أن أقمت لك في رسالتي السابقة الدليل النقلي والدليل العقلي على استحالته . وليتك إذ قلت باتفاقه مع المنطق كررت على دليلنا المنطقي فنقضته وأبطلته ، ليعلم أي الادعاءين ألصق بالصواب ، ولكنك لم تفعل ، بل طويت الأمر على غِرّه ، وتعرضت لغيره ، فكان كما عرضت عليك .

وذكرت (معقولا) آخر يظاهر (منقولك) في إمكان وقوع هذه الحادثة ، فذهبت الى أن العصر الاموي عصر انتقال من الخلافة الى الملك ومن البداوة الى التحضر ومن البؤس الى النعيم ، وذلك يقتضي أن تنحلل القيود ، وتتعطل الحدود ، وتفسد الاخلاق ، وتطغى الشهوات .. واذن فالعصر الاموي في رأيك عصر فساد ولهو وعبث ومجون ، استحال به ظاهر الاخلاق الى رجس وفساد ، وغمر العهر الناس ملوكهم وصعاليكهم وساغ فيه الجهر بالفحشاء فلا قيود ولا حدود : كل ذلك لأن الخلافة استحالت الى ملك ، والبداوة الى تحضر ، والبؤس الى نعيم ، ونحن نعلم من أمر الخلافة والملك أن الخلافة قائمة على الشورى في انتخاب الافضل كائناً من كان لا تنتقل الى الأبناء والحفدة ، والملك قائم على القهر والقوة وحصره في الأعقاب . وتغير صورة الحكم وتطورها على هذا النحو ليس فيه شيء من دواعي تعطيل الحدود وانتشار موبقات الاخلاق ، والا كان الملك في طبيعته سبباً في فناء الامم وتدمير الشعوب ، ولا قائل بذلك ، بل الواقع المشهود قائم على خلافه ، كما أن انتقال كل أمة من البداوة الى التحضر ، ومن البؤس الى النعيم ، لا يقضي بتفسخ الاخلاق وتغلب الرذائل وان صح في بعض الامم لم يصح قطُّ في العرب فجر

الاسلام [1] اذ كان الدين في عنفوان شبابه ، والناس على نصره حراص ، وشرائع الآداب مرعية الجانب ، وأولو الامر عليها ساهرون من ايام الخلفاء الى عهد معاوية الى الوليد بن عبد الملك الى عمر بن عبد العزيز .

وحسبك أن تعلم ان الخمر التي هي الاولى في مرافق الامم المتحضرة لم يستطع أحد من الشعراء المسلمين في عصرهم أن يجرؤ على ذكرها ووصفها (هذا اذا استثنينا الوليد بن يزيد ، وفي أخباره مجال كبير لشكوك الناقدين . ثم أبا الهندي أيام افول الدولة وانشغال الحاكم بتهدئة الفتن وتسكين الاضطرابات) اذن فانتقال العصر الاموي من البداوة الى التحضر ، لم يكن من طبيعته – والدين الاثر العميق في النفوس – فساد الاخلاق وطغيان الشهوات ، وانما كانت طبيعته التوسع في الفتوح ، والاستبحار في العمران ، والتشييد لدعائم الملك ، والحرص على ضبطه والاحتفاظ به ، واذا كانت مشاهد الحضارة المادية تدفع العرب بطبيعتها الى الانغماس في « بحاج اللذات » ، فقد كانت طبيعة الدين المتمكنة منهم تمنعهم أن يأخذوا منها الا ما لا يفسد مروءة ولا يدنس طهراً ولا يمس عفافاً ، فكان القوم مع أخذهم بحظهم من متاع الحياة يحتفظون بآداب الدين ، ويحرصون على شرائع الاسلام ، ولا يفرطون فيها ولا يفرطون .

وبحسبك أن تعلم أن شعراء الغزل الذين نشؤوا في الحجاز وفي أكناف

---

(١) انني اتفق مع الاستاذ الجليل بفرية قصة وضاح وانها من دس الوضاعين الحاقدين على البيت الأموي ولكني اختلف واياه باستحالة وقوع مثلها بل واقطع منها من العرب فجر الاسلام . ألم يضرب الجيش الاموي الكعبة صدر الاسلام الم يسبوا المدينة ويستبيحوها ثلاثة ايام ؟ الم يسبوا نساء آل محمد ويقتلوا حتى الاطفال؟ فأين هذا من اقامة الحدود ؟؟ اكانوا على نصره حراصاً يوم قتلوا عثمان ؟

هذه شؤون سياسية وحربية ، وكلا الجانبين المتخاصمين شريك في تبعاتها ، والكلام في قضايا الاخلاق والآداب العام كما يرى من استمراره على هذا النحو في الصفحات الآتية .

البداوة كانوا الى العفاف أقرب منهم الى ما يُشَمّ منه فجور ، حتى إذا استعرضت في (الأغاني) حديث زعيمهم عمر بن أبي ربيعة ساعةَ حضرته الوفاة مع أخيه ، علمت أنه كان امرءاً ماجناً في أقواله ، عفيفاً في أفعاله ، ومع ذلك ضج الناس من هؤلاء الأفراد الغزلين الذين كانوا يشببون بكل شريفة هاشمية أو أموية ، أو من سائر قبائل العرب ، حتى منعوا النساء من الحج . ومضوا يرفعون عقائرهم بالشكوى إلى الحكام ، وترصدوهم للاغتيال ، على علمهم بأنهم لا يريدون بذلك إثماً ولا نكرا ، وانما يذهبون في تشبيبهم مذهب المديح والدعابة ، « والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ... » . ولقد حدثنا الاخباريون أوقل حدثنا التأريخ بتوعد الوليد والحجاج والشعراء الغزلين إن ذكروا في غزلهم احدى نسائهم أو احدى وصائفهم ، وطارد عمر بن عبد العزيز الشاعرَيْن الاحوص وابن أبي ربيعة ، وكذلك طارد هذا الثاني كل من عبد الملك بن مروان وسليمان بن عبد الملك ، ونذر مروان بن الحكم وهو على المدينة من قبل معاوية ليقطعن لسان جميل بن معمر لتغزله ببثينة ، إذ شكاه اليه أهلها بذلك مع مراقبتهم ووثوقهم بعفته ، ويحسن أن نعلم أن من هؤلاء الغَزِلين من كان يدفعه الكيد السياسي – ليس غير – إلى الغزل بنساء الولاة والحكام ، كما فعل العرجي حين تغزل بأم محمد بن هشام والي مكة زوجه حتى أدى ذلك الى الإيقاع به .. وغيره يومئذ كثير .

ومهما يكن من شيء فإن الروايات في هذا الباب وذاك كلها متضافرة على أن القوم كانوا أعفاء حراصاً على الشرف والمجد ، والحكام ذوي حزم وغيرة على الحرمات . ولو لم أجد من بينات التاريخ وقرائن الاحوال دلائل على أنهم كانوا بالمنزلة التي أصف لك ، لآمنت معك بأن عصر بني أمية عصر تحللت فيه القيود ، وتعطلت الحدود ، ففسدت الاخلاق

حتى لم يبال الناس ديناً ولا شرفاً ، ولكنني – والحال ما أرى – لا أستطيع ، في مذهب العلم ، أن آخذ بظاهر طرف من أقوال أفراد الشعراء ، وأغض عن « ماجرياتهم » مع الناس وأولي الامر ، وأتناسى الرجوع الى طبائع العرب ، فأؤمن بأن العصر الاموي هو كما أقرأ في أخبار هؤلاء الافراد الغزلين ، وأن هؤلاء الافراد الغزلين يمثلونه اصدق تمثيل ... هذا إذا اكتفيت بما تقدم ، ولم أنظر النظرة الدقيقة فيما يكتنف هذا العصر من عصبيات الاحزاب السياسية ونكاية بعضها في بعض ، ثم استغلال الشعوبيين لخصومات هذه الاحزاب ونشاطهم لوضع كل ما يوافق مذاهبهم السياسية الباطنية : من تشويه للدين بوضع الاحاديث على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، وتشويه لتاريخ العرب باختلاق الاكاذيب والحط من ملوك العرب وخلفاء الإسلام وكبار صحابة النبي ، حتى كان من شجار الهاشميين والامويين والخوارج ، واستغلال الشعوبية هذا الشجار الذي رسخت جذوره وامتدت عروقه – ما ترى من الانباء السيئة في الكتب تحمل على القوم وهم منها براء ، ومن هنا فان من يقدم على البحث في التأريخ الاسلامي ، وهو غير بعيد النظر في علم طبائع الاجتماع وأخلاق الامم ومنازع الشعوب يأخذ أخبار الحوادث بظواهرها ويلقي الكلام على عواهنه – يقع في خلط غريب ، ثم لا يسيء الا الى نفسه ، كما وقع كثير من المؤرخين والمفسرين وأئمة النقل في مغالط ترى بحاكيها لاعتمادهم على مجرد النقل غثاً أو سميناً ، كما أفاض في ذلك العلامة ابن خلدون في أوائل المقدمة .

فاذا عرفت ، أيها الاستاذ ، مذهبي في البحث التأريخي ، عرفت مصدر الخلاف بيني وبينك في فهم العصر الاموي . فأنا لذلك لا أستطيع أن أطمئن الى أكثر ما يرويه (الاغاني) من أحاديث السيدة سكينة والثريا بنت علي وزينب بنت موسى وأضرابهنّ مع الشعراء ، ولا الى ما نقلت من حادثة أبي دهبل مع عاتكة وما هو منها بسبيل .

ولقد قلبت حادثة أبي دهبل التي ترى أنه لا يتمارى فيها أحد على وجوه من النظر ، فما بانت لي إلا واهية سخيفة ، واهية من جانب السند ، سخيفة من جانب المنطق . أما سندها ففيه شيوخ الكذابين والوضاعين وزعماء الشعوبيين هشام بن الكلبي وأبوه والهيثم بن عدي ، ووجود واحد من هؤلاء في سندٍ ما كافٍ مساغاً لاطراح الخبر واسقاطه .

وأما سخفها فلأن فيها استحالة ظاهرة ، وهي القول إن معاوية لما سمع بتشبيب أبي دهبل بابنته ومراسلته لها من مكة غادر دمشق الى مكة ليعقل لسانه في فمه، فدعاه في الشعراء ، ثم صرفهم واستبقاه عليه يعاتبه على ما صنع في رفق ولين ثم زوجه واحدة وأصدق زوجه ألفي دينار – وأمر له بألف أخرى يجري عليه مثلها في كل سنة ، فعقل بذلك لسانه ، وانصرف عنه مسروراً الى دمشق ، ولم يحج في تلك السنة إلا من أجل أبي دهبل ! فأي شيء في هذه الاسطورة يتساهل له المنطق فيسفّ ويسفّ حتى يصدقه ؟ أيغادر معاوية وهو ملك العرب العظيم دمشق الى مكة من أجل أبي دهبل ليعاتبه ويزوجه ، ويتوسل اليه بالمال والمقال ألاّ يراسل ابنته ولا يتغزل بها في شعره ؟ أليس أبو دهبل أهون عليه من ذاك ، ومعاوية أقدر على أن يأتي به اليه من مكة الى دمشق ، فيعاتبه أو يؤدبه أو يفعل به ما يشاء كما يوحي اليه دهاؤه ؟ أرأيت ، يا سيدي الاستاذ ، أن الحكاية التي كذّبها ابن الكلبي ، فأردتها دليلا لتأييد الاكذوبة الاولى : أكذوبة الصندوق ، كيف تشف عما تحتها من سخف لا يمكن أن يصدر الا من مثل ابن الكلبي وأبيه والهيثم الشعوبيين (١) .

---

(١) أوجزت القول في إبطال هذه الأكذوبة ، ولعلي أعود اليها والى ما هو منها بسبيل مما ورد في الأغاني وغيره ، في فرصة تسنح ووقت يتسع . (الأثري)

لقد جريت الى هذا المدى في التحليل مسايرة للبحث ، وأريد أن ألفت نظر الأستاذ الى أمر ساق له هذه الحـادثة ، وهي تناقضه ولا تأتلف معه ، فذكر في أول رسالتـه أنه حين قصّ نبأ وضاح لم يدر في خلَده إلا أن يصور « الحياة البدوية » وهذه الحادثة الثانية حادثة أبي دعبل التي ساقها هنا لتأييد تصويره لتلك الحياة البدوية إنما ساقها هنـا مثالاً لمؤثرات « الحيـاة المدنية » ، فكيف يجمع بين الضب والنون ؟ على أنه إذا وقع أمرٌ ما لإنسان ، فهل يقتضي ذلك أن يقع مثله لغيره ؟ فليس من المعقول أن نجزم بوقوع حادثة وضـاح لأن شبيهاً بها وقع لغيره ، وكلا الحـادثين موضوع باطل في مذهب العِـلم وحجة المنطق كما رأيت .

وفي الجملة ان الحق الذي لا مرية فيه أن كثيراً مما نجده في (الأغاني) وأشباه الاغاني من كتب الرواية والنقل إنما هو سمر وقصص مكذوب منتحل بعيد عن مذاهب اليقين ، وليس مما يسوغ في دين العلم والنقد أن ينتزع من الاساطير المرقشة أقاصيص يراد منها تمثيل حالة الامـة الروحية والخلقية ، لأن الكذب الذي يوضع للهدم ، لا يمثل الواقع الذي يقرره العلم ، فـان نفسية العرب في فجر الإسلام هي غير مـا تحكيه عنهم الاساطير الشعوبية ، فالقاص الذي ينتزع هذه الروايات ويزوقهـا بشيء من ألوان الخيال لا يعدو مرتبة القاص إلا إذا انتزع أو زوق ما ما يصدقه الواقع والمعروف من طبائع الاجتماع ، ونفسية الأمـة التي يتحدث عنها ابتغاء التأثير والتمثيل ، وإلا فان إثم ما ينشئه أكبر من نفعه ، وأمره أقل من أن يذكر ويؤبه له ، وأجلْ براعة المنشيء الأديب المفكر أن تصرّف في أمثال هذه الميادين .

★ ★

وبعد ، فهذا ما بدا لي تعليقه على رسالة الأستاذ الصديق ، فإن وقع موقع القبول فذاك هو المأمول ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته [1] .

---

(١) لم يرد الزيات واغلق باب الجدل خشية ان يجره الى نوع من المماحكة . كل يريد ان ينصر حجته ، وقد يؤدي به الى مزالق لا يتقبلها الرأي العام العراقي يومئذ ، وهو اميل الى اضفاء التصون والعفاف على الاسلاف ، ولا يستسيغ اعلان الفاحشة وهتك الاستار – عملا بالقول المأثور (اذكروا محاسن موتاكم) . هذا اذا كان لها حقيقة ، فكيف وهي احاديث مخترعة لابيات ماجنة يشك الرواة في قائلها ، وينكر اهل العلم حقيقتها ، ونحن كقراء قد ظفرنا بنموذج للنقد النزيه والأدب العالي يحتذيان ، وكان لهما وقع حسن في نفوس المتأدبين .

مطارحة أدبية

ونشرت جريدة البلاد بعد ذلك في يوم الاثنين ١٠ شباط ١٩٣٠ مقالاً للأستاذ محمد مهدي البصير (الدكتور) يساجل بمقاله أو مطارحته الأدبية الاستاذ الزيات ، وقد وفى الأستاذ الأثري الموضوع كما أسلفنا ، وإني أورد نص المطارحة إتماماً للفائدة ، قال :

للأستاذ الزيات أيادي بيضاء على اللغة العربية وعلى الأدب العربي الناهض تستدعي اكباره وتستثير الاعجاب بمداركه ومواهبه ، ذلك لانه ترجم وألف آثاراً حسنة وأسفاراً جليلة نافعة ، وما فتيء حضرته جاداً مثابراً بكل ما أوتي من النشاط والذكاء والحذق والمهارة على مزاولة الترجمة والتأليف . وكلنا رجاء أن تتكلل جهوده وأعماله بما تستحقه من النجاح والفوز . وقد قرأنا أخيراً للاستاذ أقصوصة رائعة انتزعها من حياة الشاعر وضاح ، ونفحها من أسلوبه السحري البديع ، فجاءت مثلاً في جزالة التركيب ولطافة الاسلوب وبلاغة التعبير وجودته ، بيد أننا إذا أمعنا النظر في ما وراء ذلك رأينا أنها لم تخل على بداعتها من شطحات غريبة طغى بها القلم السيال أثناء تدفقه ، وسبحان المبرأ من كل عيب . فمن تلك الشطحات – المأمول أن يسعنا عفو الاستاذ قبل كل شيء – تصوير الشاعر وضاح بطل القصة تصويراً لا ينطبق على حياته ،

فقد وصفه الاستاذ بالميل الى العزلة والانصراف الى التفكير الهادىء الوديع تحت ظلال الغابات وفي أفياء الحقول والمروج الانيقة الخضراء شأن الفلاسفة وكبار المفكرين والانبياء ومن جرى هذا المجرى . والحقيقة أن الشاعر وضاحاً لم تكن هذه الحياة الفلسفية المشبعة هدوءاً والسكينة في يوم من الايام ، وان حياته لم تكن سوى حياة انسان تكتنفه الضجة وتحيط به الجلبة . وهو لا يرى في هذا كله بأساً لأنه لم يخلق فيلسوفاً في روحه أو حكيماً في طبعه ، انما خلق شاعراً بسيطاً يأنس بالضوضاء ويتصل ما أمكنه الاتصال بالجمهور فيشاطره حياته ويشاركه في آرائه واخلاقه وعاداته (هذا إن وجد هذا الوضاح) . وهناك في مراحل القصة العديدة شطحات أخرى رأينا أن نضرب عنها صفحاً لصغر قيمتها وقلة الاعتداد بها إلا أن الذي يهمنا كثيراً هو سرد الاكذوبة التي تكوّن بيت القصيد في القصة واثباتها على أنها حقيقة مقررة لا تقبل نزاعاً ولا جدالاً . تلك هي الاكذوبة التي وضعها أحد الشعوبيين المتعصبين وحملها على أم البنين زوج الوليد بن عبد الملك المعروف بنبله وغيرته وبصلاح سريرته وسيرته ، ولم يكن ثمة سبب لوضع هذه الاكذوبة المرذولة ، وحملها على ملكة جليلة القدر عظيمة المنزلة سوى أن خصاماً عنيفاً حصل بين أحد أحفاد هذه الملكة وبين رجل من الشعوبية في صدر دولة بني العباس ، فكانت نتيجته ما أشرنا اليه من اختلاق تلك الاكذوبة وحملها على الملكة البريئة وتسييرها في الآفاق خسة ودناءة .

وأنت تستطيع أن ترجع الى الجزء السادس من الاغاني لترى مؤلف هذا الكتاب يتحدث اليك بما أسلفنا ذكره من الاختلاق والافتعال مؤيداً ذلك بعنعناته وأسانيده على جاري عادته ، على أنه لو لم يتصد أبو الفرج الى بسط قصة الشعوبي المتعصب بأفعاله وخصومته لما جاز للاستاذ الزيات أن يعتقد بامكان اقامة شاب جميل غريب في بلاط ملكه

ارستقراطية متحجبة تغازله وتسامره عند الخلوات وتنادمه في ظل الفرص السانحة . والآن أود أن أقتطف لك نبذة طيبة ممـــا قاله الاستـاذ الفاضل بوصف اقامة الشاعر الجميل وضاح في كنف الملكة الاثيمة على ظنه ، قال حضرته :

« ظل وضاح ابن الطبيعة الطليقـة سجيناً في قصر الوليد لا يبصر سماء ولا أرضاً ولا يرى غديراً ولا روضاً ولا يسمع حركة ولا صوتاً ، ولا يشعر بمجرى الحياة إلا حينما تخرجه أم البنين من مخبئه ساعة يغفل الرقيب وتغفو العين المريبة فتطارحه أحاديث الغزل وتسقيه من سلاف الهوى عللا بعد نهل ثم ترده عند الخوف الى مأمنه » .

قال : « ومضت على تلك الحال حقبة من الدهر ورفت عليهما ظلال الامن فيها الخ ... » .

لنسلم على أن أم البنين قد تنازلت عن جلالها الملكي وواجبها الزوجي فعاشرت وضاحا واتخذته خليلا أو عاشقاً عف الضمير طاهر الذيل على أقل تقدير ، ولنفرض جـدلاً أن الشهوة الحيوانية الخبيثة المتغلبة قـد حدت بهذه المرأة الضعيفـة الطائشة على أن تحتقب عشيقها كما تحتقب طرائف الحلي والحلل ، ولكن كيف تسنى لوضاح أن يعيش في ناحيـة من قصر الوليد عيشة السجين كل هذه الحقبة ؟ من كان يتعهده بما لا بد له منه من طعام وشراب وما أشبه ذلك ؟ من كان يتولى القيـام على شأنه ؟ أكانت أم البنين هي التي تفعل ذلك بذاتها ، أم كانت تعهـد به الى وصيفة ذكية مؤتمنة ؟ وسواء أكانت الملكة هي التي كانت تفعل ذلك بذاتها أم أنها كانت تعهد به الى وصيفة ، ألم ينتبه الى تلك الحركة المتكورة المتجهة دائماً الى ناحية المختبأ الامين أحد من سكان القصر وأفراد الحاشية ، على كثرتهم ووفرة عـددهم ؟ ألم تتهامس بذكرها الشفاه ؟ ألم تتغامز بشأنها العيون والحواجب ، ألم تتحول تلك الهمسات وهـذه

الغمزات إلى ضجات عالية تهتز لهـا مناكب القصر وتمتلىء بهـا مسامع الوليد ، حتى يستيقظ من رقدته ويتنبه من غفلته ؟؟

كل هذه الأسئلة لا تتيسر الإجابة عليها لأحد سوى الاستـاذ . على أننا إذا تدبرنا أمر هذه القصة وتفهمناها جيداً رأينا أن لا مندوحة لنا من أن نعتبرها مختلقة محمولة على أم البنين وعلى وضاح معاً في عصر متأخر لسبب من هذه الأسباب العدائية التي تبرر بنظر البعض اتيان أي عمل كان من الأعمال التي لا يفتخر بها انسان ما دامت الغاية المتوخاة وهي الانتقام من الخصوم تقتضي ذلك ، أو أن تذهب إلى أن وضاحا شاعر ماكر وقد وسوس له شيطانه أن يصطنع الهيام ويتكلف الغرام والغزل في أم البنين ليلحق بها وبزوجها الخليفة « النزارى العدناني » هذه الوصمة الفظيعة والسبة الخالدة ، تنقصاً لشرفها وتهجمـاً على مقامها ، لا لشيء سوى أنهما نزاريان عدنانيان ، وأنه شاعر يماني قحطاني ، وأنت تعلم ما شأن العدنانية والقحطانية في أيام بني أمية ، وقد سبق وضاحا الى مثل هذه الفعلة عبد الرحمن بن حسان الأنصاري ، وهو شاعر يماني قحطاني تشبب برملة بنت معاوية بن أبي سفيان وزعم أنهـا تبادله الحب وتمن عليه بالوصل ، إلا أن معاوية الداهية تمكن من حمـله بحيلة لطيفة عـلى تكذيب نفسه بنفسه بغير ما إكراه ولا إجبار ، نعم انه لا مندوحـة لنا من أن نأخذ بأحد هذين الأمرين ، وبرهاننا على صحة ما ندعيه أو نفترضه في هذا الشأن أن صحيفة حياة الشاعر وضاح قد طويت في أيام الوليد بن عبد الملك ، وأن الرواة يروون له أشعاراً غزلية كثيرة يزعمون أنه نظمها في أم البنين ، فينبغى أن تكون هـذه الأشعـار قد نُظمت ورويت بعد وفاة الوليد ، أو قلْ بعد سقوط الدولة الأموية ، وأضيفت اليها الأخبار والحوادث الغرامية المختلقة المفتعلة ، وحملت جميعاً على الملكة البريئة كذباً وبهتاناً ، وأنها « أعني أشعار وضاح » قد نُظمت ورويت

وجُهزت بما يلائمها من الحوادث المخجلة في أيام الوليد نكاية وتحدياً له وارضاء للخصومة القوية الشديدة المتبادلة وقتئذ بين العصبيتين العدنانية والقحطانية اللتين كانتا إذ ذاك أشد ما تكونان تعادياً وخصومة . وبديهي أن كلتا الوجهتين لا تقتضي سوى تبرئة الملكة النزيهة المتهمة . هذا ما تحب أن يكون ، وإلا فهل من المعقول أن شاعراً ليست له ضغينة سياسية تأكل قلبه وتفقده رشده وتضطره الى التضحية في سبيل غرضه ، يستطيع أو يجرؤ على التشبيب بملكة وذكرها علناً بما يسيء إلى سمعتها ويضر بشرفها وكرامتها سواء كان بينه وبينها غرام وصلات وعلائق غرامية في طيات الخفاء أم لم تكن ، أليس من المحقق الذي لا نزاع فيه ان ذلك مما يعرض حياته الى خطر ما وراءه خطر ؟ وقضية أخرى أود أن ألفت اليها أنظار القراء ، وهي : أن الشاعر وضاحا قد جرب نفسه ما يستدعيه التعرض الى ذكر الخفرات والتحدث عنهن بصراحة في منظوم الكلام من نتائج وخيمة وعواقب سيئة ، فان رهط روضة (وهي أولى عشيقاته كما ذكر الاستاذ) أنفوا من تشبيبه بكريمتهم ، وغضبوا لذيوع اسمها مقروناً باسمه على ألسنة الخاصة والعامة فصمموا على الانتقام لشرفها ولشرفهم منه وكمنوا له على طريقه الى الملتقى بها فحصلت بينه وبينهم معركة دامية تكشف عن سقوطه مثخناً بجروح بليغة الى الارض . فليت شعري أمن المعقول أن تكون نتيجة هذا الدرس البليغ الذي أتاحه القدر لوضاح في غرامه الاول أن يستهتر فيما بعد بنظم القصائد الغزلية الماجنة وحملها على ألسنة الرواة مصحوبة بتفاصيل رواية غرامية يمارس تمثيلها هو وعشيقته الملكة على ما يزعم ؟ ألم يكن هذا نظير ما نزل به من رهط حبيبته روضة عندما تعرّض لها في أشعاره وتحدث عنها في أشعاره . أما انه اذ جاز لنا أن نستخلص من كل ما تقدم نتيجة حاسمة ، فاننا نستنتج بمزيد الاطمئنان والثقة أن الرواية التي قيل ان الشاعر وضاحاً وأم البنين قد اشتركا فيها على مسرح الخلاعة

والاثم لم تكن سوى رواية خيالية مفتعلة في أخبارها ، منتحلة في أشعارها مختلقة في كل شيء من الاول الى الآخر .

محمد المهدي البصير

وعلقت البلاد على كلمة البصير :

البلاد : « لقد أجاب حضرة الأستاذ الزيات على تعليق الأستاذ محمد بهجة الأثري حول **هذا الموضوع نفسه** .

وعلق الأستاذ الأثري على جواب الزيات بمقال مدعوم بالحقائق والوثائق والمستندات ونشره في البــلاد في ١٤ شباط ١٩٣٠ في صحيفـة الشعر والبيان » .

★

الادب وعوامله وحظ العرب من تاريخه :

ألقى الأستاذ أحمد حسن الزيات المحاضرة الأدبيـة الأولى في قاعـة (الثانوية المركزية) في ١٧ كانون الثاني سنة ١٩٣٠م ، وكانت عامة حضرها جمهور كبير من المعنيين بالادب ومن عشاق الزيات ، وإني ألخص المحاضرة الاولى ، ثم أعود فأثبت المحاضرة الثانية لاهميتها ، وفي رأيي أن المحاضرة الاولى كانت كمقدمة للثانية .

قال :

لا نريد يا سادة أن نهدم لنصبح من غير أدب ، ولا أن نظهر النقص النسيء الى مجد العرب ، إنما نريد أن نغير ما بأنفسنا من خمود وتقليد وجهل ليغير الله مـا بنا من تأخر وعبودية وظـلم ، لا نريد أن ترأم جروحنا على فساد ونغل ، ولا أن نقيم صروحنا على خواء وخلل ، وإن أدبنا بحمد الله لا يزال قوياً فتياً ، يشادّ الزمن ويجالد الحوادث ويفيض بالحياة فيضان النيل والفُراتين وبردى ، وواجبنا أن لا ندعه يفيض في

الصحارى والسهول . واجبنا أن ندبره باقامة القناطر والجسور ، وأن نطهر مجراه من الاعشاب الدنيئة والصخور ، وأن نحول تياره الى الارض القريبة الخصبة ، فنجعل منها ربوعاً عامرة وجناناً ناضرة ، فيها متاع الاذن بالتغريد والشدو ، ولذة العين بالرواء والبهجة ، وشهوة النفس بالذكاء والعطر ، وسعادة العالم بالسلام والوئام والمحبة . أما الزهاوي والرصافي والمطران والزركلي وحافظ وشوقي ، فهم الاوتار السليمة الباقية من قيثارنا المفقود ، يشجوننا غالباً بألحان الذكرى فنأسى على الماضي ، ويطربوننا أحياناً بأنغام الامل فنفرح بالمستقبل ، وإنا لنرجو متى وجد هذا القيثار وأكملت الاوتار أن يصنع شعراؤنا ما صنع كتابنا فيؤلفوا من الالحان الشرقية والغربية موسيقى جديدة يتقدمون بها كتائب الجهاد الى محاربة الفساد وغزو الاستعباد وتثبيت الحرية .

بعد هذه المقدمة عرض للفظة الادب ، وفصل تأريخها ومعانيها في الجاهلية وفي اليونانية والسومرية ومعناها الاسلامي . فلما بلغ العرب عهدهم الذهبي الزاهي في بغداد وازدادت حضارتهم وازدان عمرانهم بالعلم تطور لفظ الأدب كما تطور مدلولها ، وأخيراً عرفها الزمخشري بأنها تعني « علوم الأدب التي يحترز بها من الخلل في كلام العرب لفظاً وكتابة . ثم تطور مدلول الكلمة حين أخذنا نتلقى على الغرب العلوم والادب والفن والحضارة ، فصار لمعنى الأدب مدلول عام ، فالمعنى العام لها تشمل جميع ما صنف في أي لغة من الابحاث العلمية والفنون الادبية . أما المعنى الخاص ، فيراد بالادب التعبير عن مكنونات الضمائر ومشبوب العواطف وسوانح الخواطر بأسلوب إنشائي أنيق ، مع الإلمام بالقواعد التي تعين على ذلك .

وذكر أسباب جهل العرب لمعنى الادب العام ، وبراعتهم التي تميزوا بها في التأريخ الادبي الخاص « يريد تراجم الاشخاص » فقد بلغوا فيه

غاية الاتقان وجاوزوا حدود الافتنان وذهبوا فيه كل مذهب ، فقسموا كتبه إلى عامة وخاصة ، فالعامة تترجم للنابهين على تباين أوطانهم وأزمانهم وعلومهم ، وهي إما مرتبة على حسب الاسماء أو على حسب الانساب . فالاول منهج ابن خلكان في كتابه وفيات الاعيان، وابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات، وصلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات .

والثاني منهج عبد الكريم السمعاني في كتاب الانساب . وقد ترتب على أزمنة الوفيات كما فعل أبو الفداء والذهبي وابن كثير مثلا . وأما الكتب الخاصة فأنواع شتى ، منها طائفة وضعت لمن اشتهر في علم أو فن بعينه في جميع العصور كبغية الوعاة للسيوطي ومعجم الادباء لياقوت وتاريخ الحكماء لابن القفطي ونزهة الالباء في طبقات الادباء لابن الانباري ، وهي مرتبة على حسب الاعصر . وأحيانا توضع بغير ترتيب كما فعل صاحب الاغاني ، ومنها طائفة وضعت لمن اشتهر في فن مخصوص في عصر مخصوص كيتيمة الدهر للثعالبي ودمية القصر للباخرزي وخريدة القصر لعماد الدين الاصفهاني الخ ...

سيداتي سادتي :

ذكرت في المحاضرة السابقة أن تاريخ الأدب فرع من التأريخ العام ، لأن الأدب تعبير عن المشاعر والخواطر والأخيلة ، وهي تتأثر بأحوال العيش وأطوار المجتمع وأنظمة الملك وتقلبات السياسة ، ومـــا للتاريخ الصحيح موضوع غير البحث في جميع ذلك .

هذه قضية مرسلة مبهمة ، يقتضي جلاؤها شيئاً من التفصيل والتدليل والأمثلة .

وسبيلنا الى ذلك أن نلم بالعوامل المؤثرة في الأدب ، وهي دستور المؤرخ وشريعة الأديب ونبراس الباحث فيما يصدر عن الإنسان من كدّ

الأذهان وفيض القرائح ، فالعامل الأول : طبيعة الإقليم ومناخ البلد ، وأثرهما في حياة الإنسان وسلائل الأجناس معلوم في بدائه المعقول ، فأحوال الاقليم هي التي تنهج لساكنيه سنن معاشهم ونظام اجتماعهم ، وتكون الكثير الغالب من خلاقهم وطباعهم ، ومناظره هي التي تربي ذوق أبنائه ، وتغذي خيال البدو : فألفاظه خشنة كالجبل ، ومعانيه وحشية كالأوابد ، وأساليبه متشابهة كالصخر ، وأخيلته مجدبة كالقفر ، ولن تجدوا في غير الجزيرة العربية أمثال الشنفرى وتأبط شراً والسليك بن السلكة من هؤلاء الشعراء الصعاليك الذين تغنوا بحياة البادية ومناظرها وأباعرها وغزلانها وكثبانها وأطلالها وجبالها بشعر متين الرصف صادق الوصف جاف اللفظ عنجهي الخيال .

وقد اختلف الشعراء في شبه الجزيرة نفسها باختلاف الأماكن : فهو في نجد غيره في الحجاز ، وهو في أهل الوبر غيره في أهل المدر . ولهذا العامل وحده أعزو انقراض الأراجيز ، وهي أقدم الأطوار لشعر البادية حين ارتحل ناظموها من الصحارى المجدبة الى سواد العراق وريفه ، وفي حواشي العراق وظلاله ، وخمائل نجد وجباله ، اخضرّ عود الشعر واستقام وزن القصيد ، ومن ثم قال القدماء : إن امرأ القيس ومهلهل بن ربيعة وعمرو بن قميئة هم أول من قال الشعر وأطال القصائد . وما كانوا في الواقع إلا زعماء النهضة الأدبية في هذه البلاد .

وظل عامل الطبيعة يفعل فعله في الأدب خلال القرون ، فخالف بين الشعر في عواصم الشرق وبينه في الأندلس ، فقد وجد شعراء العرب في أوربا ما لم يجدوه في آسيا من الأجواء المتغيرة والمناظر المختلفة والأمطار المتصلة والجبال المؤزرة بعميم النبت ، والمروج المطرزة بألوان النّور ، فهذبوا الشعر ، وتأنقوا في ألفاظه ومعانيه ، ونوعوا في أوزانه وقوافيه ، ودبجوه تدبيج الزهر ، وسلسلوه سلسلة النهر ، وسلكوا به مسالك التنوع

والتجديد ، وهذا العامل هو الذي يخالف اليوم بين الأدب في مصر وبينه في الشام والعراق . فالطبيعة المصرية تكاد تكون نائمة ، فالجو معتدل في جميع الفصول لا يكاد يختلف ، وحقول الوادي الحبيب لا تعرى من الزهور والزرع ، والسماء السافرة والصحراوان الوسيعتان لا تكاد مناظرهما تتغير . فإذا لم تكن طبيعة بلادنا فهي على الأقل مسالمة ، لأنها لم ترعجنا بالزلازل العنيفة ، ولا تهزنا بالعواصف الرُّعْن ، ولا تحزنا بالبرد القارس والحر اللافح ، فطبعتْ أهلها على الوداعة والفكاهة والبشاشة والكسل ، والمحافظة على القديم من العادات والأخلاق والآداب ، فلا تتطور هذه الأمور في مصر إلا بمقدار ، ولذلك تجدون شعرنا منضّد اللفظ ، جيد السبك ، بطيء التجدد ، هادىء الأسلوب ، لين العطف لا يأخذ الأمور الا بالملاينة والرفق . بينما تجدون الشعر في الشام شديد الحركة كثير التنوع سريع التجدد خلق الاساليب لتعدد المناظر واختلاف الصور وتقلب الطبيعة ونشاط الحياة . وهو في العراق قوي أبي ، ثائر ساخط ، متوثب منتشر على ألسنة الخاصة والعامة لالتهاب المخيلة وتوقد الشعور وصفاء الحس من إفراط الطبيعة في الحر والبرد وغلبة الحياة البدوية على كثرة السكان ..

على أن هذا العامل قد أخذ يضعف منذ أواسط القرن الماضي لسهولة المواصلات وكثرة المخترعات وانتشار المدنية ، فيستطيع الانسان أن يعيش في آسيا وافريقيا كما يعيش في أوربا ، وسيزداد ضعفاً في المستقبل دون أن يمحي ويبيد .

العامل الثاني — خصائص الجنس ، فشعر العرب يختلف عن شعر اليونان في المذهب والخيال والغرض ، وشعر ابن الرومي يختلف عن شعر ابن المعتز ، وقد نشآ في بلد واحد وعصر واحد ، لأن الجنس الآري أميل الى الاستقصاء والتفصيل والتحليل والتعمق ، والجنس السامي لذكاء قلبه

وحدة خاطره يفهم الشيء في لحظة ثم يلخصه في لفظة ، فهو أميل الى التعميم والاجمال والبساطة .

العامل الثالث – دوام الحرب بين جنسين أو أمتين ، لفتح بلاد أو صد عاد أو تحرير وطن . فان هذه الحروب لتتمخض عادة عن أبطال ينمون في الخيال ويعظمون في الصدور ويكبرون في الزمن حتى تنسب اليهم الخوارق ، وتخلع عليهم المحامد فتسير بذكرهم الرواة ، وتتحدث بأفعالهم القصاص ، وتنتقل شهرتهم من فم الى فم ومن جيل الى جيل ، وهي في خلال ذلك تتسع وتفيض حتى تصبح سيرهم لدى الشعب حديثاً وطنياً يجب أن ينشر ، وتراثاً قومياً يحرص أن يزيد ، فيقيض الله لهذه السير المتجمعة على طول الدهور شاعراً سمح القريحة ، فينظمها بأسلوب شائق ونمط جميل . كذلك دارت الالياذة الاغريقية على حروب اليونان لاهل طروادة ... والمهابهاراته الهندية على الحروب التي نشبت بين نيدهو وبين كرو ، والشهنامة الفارسية على تاريخ الاكاسرة ، ووصفت الحرب التي شملت أهل إيران وأهل طوران . وقد كانت تلك الحروب مفخرة الفرس الاولين ورمزاً للخلاف الدائم بين إلاهي الخير والشر .

وكذلك دارت أغاني رولان الفرنسية على حروب الفرنج لعرب الاندلس . وهذا هو الشعر القصصي أو الملاحم الذي خلا منه الشعر العربي ، لاسباب لا يتصل ذكرها بموضوع اليوم . على أن عامل الحروب قد أثر في النثر والشعر العامي ، وان لم يؤثر في الشعر الفصيح ، فان نشوب الحروب الصليبية قد اقتضى تدوين بعض القصص الحماسية كقصة عنترة وسيرة بني هلال والاميرة ذات الهمة ، إثارةً للنفوس ، وتحميساً للشعب ، وتفريجاً من الهم .

العامل الرابع – طبيعة العمران وتوزع الثروة وما يتصل بذلك من حال الاجتماع ، فإن تقدم الحضارة ورفاهة العيش ونماء الثروة تؤثر في

الذوق ، وتزيد في الصور ، وتساعد على نشر العلوم ، وتنوع في معاني الشعر وأساليب الكتابة . وشاهد ذلك أن مدن الحجاز حينما زخرت بالمال ونعمت بالفراغ منذ خلافة عثمان إلى أواخر القرن الاول للهجرة ، تدفق أهلها في اللهو ، وعكفوا على الغناء ، وألقوا أزمتهم في يد الصبابة ، وانقطع شعراؤها الى الغزل فافتنوا فيه وتصرفوا في معانيه وأغفلوا سائر أنواع الشعر الاخرى كعمر بن أبي ربيعة وجميل بن معمر وكثير عزة . وشاهد آخر على تأثير الاحوال الاجتماعية في الفنون الادبية هو شيوع البذاء والفحش في شعر بعض البغداديين على عهد الرشيد والمأمون ، فقد حدث شيء من ذلك في الجاهلية وفي العصر الاموي حين كان الفرزدق وجرير ومن لف لفهما يتجاوبون بالفحش ويتهاجرون بالبذاء ، الا أن ذلك لم يكن مقصوداً ، وانما كان يقال هجاءاً للعدو وسباباً للخصم . أما الفحش في شعر أبي نواس ومطيع بن اياس وحسين بن الضحاك وابن سكرة وابن الحجاج ، فقد كان صادراً عن خلق ، وناقلاً عن طبع ، ومعبراً عن حالة ، فالشعراء يقولونه ويفعلونه ، وأهل البيوتات وذوو المثالة يسمعونه ولا ينكرونه . فبماذا نعلل ذلك الفساد الذي نال الطباع العربية الحرة ، فجعلها تمتهن الكرامة وتلقي شعار الحشمة ؟ إذا عللناه بمفاسد الترف ودنايا السرف حين تطغى الحضارة ويثور البطر ، كان هذا التعليل وحده غير فاصل ولا مقنع ، فان أكثر أمم التمدن الحديث اليوم قد غرقوا في اللهو وشرقوا بالنعيم وأمعنوا في الخلاعة ، ثم لا تجدون النوابغ من شعرائهم وكتابهم يجرؤون على أن ينعوا على أنفسهم بالفواحش أو يجهروا في كتبهم بالفضائح ، وناهيكم بما حدث لفكتور مركريت حين نشر قصة لاجرسون .

إنما الاشبه بالحق أن هناك سبباً آخر يساعد هذا السبب ، وهو كثرة الرقيق . وتأثير الرقيق إنما حدث من جهتين ، أولاهما قيام العبيد

على تربية الاحداث في كرائم الأسر ، وفي كثرة العبيد دناءة في الطباع ووقاحة في القـــول ، فأفسدوا النشء وعودوهم هُجرَ القول وفحش الحديث . وأخراهما اقحام الجواري والسراري خدور العقائل ، فأعدينهن من أخلاقهنّ بالمجانة والخلع ، فسقطت المرأة من عين الرجل ، فأخذها بالعنف ، وضرب عليها الحجاب ، وأقام عليها الخصية على عادة الفرس ، وأقصاها عن تربية الولد وتدبير البيت ، واتخذها للمتاع واللذة ، فكان في ذلك أن فشت في الخاصة أخلاق العبيد والإماء ، فتنادروا بالفحش ، وأكثروا الشعر في الإحماض والمجون . واليكم شاهداً آخر على تأثـــير الأحوال الاجتماعية والأمور المادية في فنون الأدب . ظهر أدب العامة أو الشعر باللغة العاميه في بغداد والأندلس في عصر واحد ، ففي بغداد ظهر « المواليا » على لسان صنائع البرامكة من العامة ، وظهر نوع آخر ذكره ابن الأثير صاحب المثل السائر قال : « بلغني أن قوماً ببغداد من رعاع العامة يطوفون بالليـل في شهر رمضان على الحارات وينادون بالسحور ، ويخرجون ذلك في كلام موزون على هيئة الشعر وان لم يكن من بحار الشعر المنقولة من العرب ، سمعت شيئاً منه فوجدت فيه معاني حسنة مليحـة وان لم تكن الألفاظ التي صيغت بهـا صحيحة ، ولكن الشعراء والأدباء استخفوا به واحتقروه فلم يقلدوه ولم يدونوه ولم يأبهوا لأربابه . وحاول بعض الأطباء وهو محمد بن دانيال الموصلي أن يبتكر نوعاً جديداً من الأدب اقتبسه من ألعاب خيال الظل ، فألف كتابـاً سماه (طيف الخيال) ، فحبط عمله وخاب أمله » .

وأمـا في الاندلس ، فابتدع عبـادة بن ماء السماء القزاز الموشح ، وابتكر أبو بكر بن قزمان الزجل ، فطرب الناس لهما وأعجبوا بهما ، وأقبل أمراء القريض وزعمـاء الأدب على نظمهما وجمعهما ، فنبغ فيهما النوابغ واشتملت على روائعها الكتب . فمـا السبب إذن في استهجان

البغداديين ، لأدب العامة وعزوفهم عنه ، واستحسان الأندلسيين له ونبوغهم فيه ؟ السبب يعرفه المؤرخ الباحث ، وهو أن بغـــداد كانت شديـدة الارستقراطية ، لأنها موطن الاشراف وذوي الاحساب والمثالية والثروة ، فكانوا يترفعون عن الشعب ، ويستخفون بأدبه وذوقه وذكائه ، ويجدون من الغضاضة أن يتحلوا بحليته ، ويجروا على أسلوبـه . ولكن الاندلس كانت ديمقراطية غنية كأمريكا اليوم ، فلم يعتز فيها بالنسب لتساويهم فيه ، ولا بالثروة لعموم الرخاء فيهم وحسن توزيـع الثروة بينهم ، فكانت منازل الخاصة والعامة متصاقبة وأذواقهم متقاربة ، لذلـك لم يتأب الشعراء والأدباء عن تقليد الأدب العامي وتدوينه .

العامل الخامس - الأديان وما يتمثل بها من الأخلاق والمعتقـدات . وتأثير الأديان في الادب بمعنييه العام والخاص ، أمر ثابت بأدلة الطبع والسمع . فانها تخلق موضوعـات جديدة لمصنفات جديدة ، وتؤثر في الأخلاق والعواطف تأثيراً يتردد صداه في مناحي الادب ، على أن تأثيرها الذي يعنيها الآن هو ايجادها لأنواع خاصة من النظم والنثر .

فان بني الانسان كما تعلمون منذ أفزعتهم تهاويل الطبيعة ، وادهشتهم تعاجيب الفلك ، أحسوا بقوة القوي فألهوها كما فعل اليونان والهنـود . أو نسبوا الاعاجيب الممتعة الخيرة لمبدأ ، والتهاويل المفزعة الشريرة الى مبدأ آخر كما فعل الايرانيون الاقدمون . ثم امتلأت نفوسهم بجلالهـا وعظمتها ففاضت على ألسنتهم بالأناشيد والصلوات ، فكان من ذلك الشعر الديني ، وهو مبدأ كل شعر في كل أمة ، ومن أقدمه أناشيد (رع) عند المصريين ، وأناشيد (فيدا) عند الهند البراهميين ، وأناشيـد (جالا) عند الايرانيين ، وأناشيد (ارقبة) عند اليونانيين ، وسفر أيوب عند العرب ، ورأيي الضعيف أن الشعر العربي لم ينشأ في الصحراء على ظهور الابل ، وإنما نشأ كذلك في المعابد العربية إبان انفصال العرب

عن الاسرة السامية الاولى ، فظهر على ألسنة الكهان باسم السجع ، ومن أقدمه سفر أيوب على أرجح الاراء ، وربما عدت الى بسط هذا الرأي في فرصة أخرى .

وتأثير الاديان في الاداب غير متحد ولا متشابه ، لاختلاف العقول في إدراك هذه القوة الخفية . فاليونان قد عددوا آلهتهم ، وجسدوها على صور البشر ، ونسبوا اليها ما للانسان من كرم ولؤم وغضب وحلم وحرب وسلم وعفة ودعارة وزواج ولذة ، ولم يميزوهم عن الناس إلا بالقوة والخلود ، لذلك كان شعرهم الديني في الالهة أشبه بشعرهم الدنيوي في الملوك : يصنف الخوارق والعظائم والقوة ، ولا ينم عن رحمة الخالق وخشوع المخلوق ، ولا يدل على الرجاء الذي يبعث على الطاعة ولا على الخوف الذي يردع عن المعصية .

أما بنو اسرائيل ، فقد وحدوا الله ، وبرؤوه من النقص ، ونزهوه عن المثل ، وملؤوا صدورهم بهيبته وعزته وجلاله ، فكان شعرهم في ذاته العلية فياضاً بالتقديس والاجلال والابتهال والاتكال والبكاء والرجاء والخوف . كذلك يختلف تأثير الدين الواحد في الادب باختلاف الازمان والبلدان وطبقات الناس ونظام الحكم . فان في كل دين من الاديان السماوية قسما وجدانيا اجتهاديا يختلف أبناؤه في فهمه اختلافهم في الطبائع والمنازع والغاية . فأشعار الخوارج مثلا تنضح بالدماء ، وتطفح بالحماسة ، لتعصبهم وتصلبهم وجعلهم غاية الاسلام جهاد مخالفيهم في الرأي . وأشعار الشيعة تفيض باجلال زوج البتول وصهر الرسول وتمجيد ذكرى بنيه وتمثيل آلامهم ورثاء من قتل من أعلامهم ، وأشعار الصوفيين تصف مقاماتهم وتذكر اشاراتهم وتكثر من الكناية بالخمر والسكر والعشق والعبق من شدة تعلقهم بالله . ولا يقتصر تأثير الاديان على النظم ، وإنما تؤثر كذلك في النثر ، فلولاها لما كانت النبؤات عند الاسرائيليين ،

ولا التعازي عند الفرس ، ولا خطب المنابر ومقامات الوعظ عند المسلمين والمسيحيين .

العامل السادس : العلوم النظرية والتجريبية وتأثيرها في ترقية العقل وتقوية الشعور وتنمية الصور ، لا يحتاج إلى تمثيل ولا تدليل ، ولكن لها تأثيراً خاصاً في خلق أنواع طريفة من الأدب كالشعر التعليمي مثلاً، وهو نوع من الشعر يجمع بين رشاقة اللفظ ودقة البحث وحقائق العلم . وترونه في الآداب الاجنبية القديمة والحديثة أرفع وأمتع منه في الاداب العربية ، فان من الغضاضة على الفن والاساءة الى الذوق ، أن ندخل فيه منظومة ابن عبد ربّه في التأريخ ، وألفية ابن مالك في النحو . وقد استحدث اليونان في النثر المحاورات الفلسفية يرصعونها بدرر الالفاظ وغزير البيان ، كمحاورات أفلاطون . وهي نوع طريف من الأدب الاغريقي قلده شيشرون في محاوراته في الاخلاق والفلسفة والبلاغة، كذلك أحدث انتشار العلوم نوعاً من القصص الخيالية تمتزج فيها حقائق العلم بروعة الخيال وغرابة الحوادث تحقيقاً لرأي من الآراء أو تشويقاً لعلم من العلوم ، كما فعل الفرنسيان فلامريوي الفلكي وجون فيرن القصصي، وكما صنع أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل الاندلسي في رسالة « حي بن يقظان » . فقد أراد بوضع هذه القصة أن يشرح كيف يستطيع الانسان بمجرد عقله أن يتدرج من المحسوسات البسيطة إلى أسمى النظريات العلمية ، ولكنه يعجز عن ادراك أرقى الحقائق بغير وحي من الله وهداية من نبي . ثم كان نَفَاق العلوم التأريخية في صدر القرن التاسع عشر ، وميل الجمهور الى دراسة الماضي أن ظهر في انكلترا القصص التاريخي . ابتدعه الكاتب الانجليزي (ولتر سكوت) ، واقتفاه في فرنسا الفريد دفني في رواية خمسة مارس ، وفي ألمانيا جورج ايسبري في قصته المصرية ورد ، وفي مصر جورجي زيدان في رواياته الاسلامية .

وللعلوم فضل ظاهر على اللغة في المادة والأسلوب ، وأثر قوي في ترقية النثر خاصة لأنها تكسبه القوة والدقة والوضوح ، وما ارتقى النثر في أمة من الامم إلا بعد تقدمها في الحضارة ورقيها في العلم ، لأن النثر لغة العقل ، كما أن الشعر لغة الخيال ، فالنثر اليوناني لم يرق إلا بعد عصر هوميروس بأربعة قرون حين دون تأريخ لوسديد ومحاورات أفلاطون وخطب ديمستين ، والنثر العربي لم يرق إلا أوائل الدولة العباسية على يد ابن المقفع ، والنثر الفرنسي لم يرق إلا بتأثير الفلاسفة الرياضيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر كبيسكال وديكارت .

العامل السابع :

أحوال السياسة الداخلية ، فان لمدها وجزرها ، ولانتقاض حبلها أو اتساق أمرها أثراً بالغاً في فنون الأدب يختلف باختلاف حاله .

ففي خلافة معاوية مثلاً انتشر الهجاء المقذع في العراق ، وفاضت بحور الغزل الرقيق في الحجاز ، وما علة ذلك إلا سياسة هذا الخليفة ، فقد كان يخشى العراق على عرشه الواهي الدعائم ، فساسه بالتفريق ، وإحياء العصبية ، وإذكاء التنافس بين الشعراء والقبائل ليشغل الناس عن الخصومة في خلافته بالخصومة في أمر جرير والفرزدق والأخطل . وكان يستوحش من ناحية الحجاز ، فاعتقل شباب الهاشميين في مدنه ، وسلط عليهم الترف وشغلهم بالمال وخلّى بينهم وبين الفراغ ، فعكفوا على اللهو والصبابة والغزل . وبعد خلافة المتوكل العباسي ازدهر الأدب العربي وازداد ابتكاراً وانتشاراً وكثرة ، وعلة ذلك السياسة أيضاً ، فان الخلافة العباسية قد انتقض حبلها في أواخر عهد المأمون ، وانصدع شملها في عهد المتوكل باستقلال الولاة في فارس والشام ومصر والمغرب ، فكان ضعف السياسة قوة للأدب ، لأن الشعراء والادباء ، والعلماء بعد

أن كانوا مكدسين في بغداد لا يريمون عنها ، تفرقوا في الممالك الجديدة ، فوجدوا من أمرائها وأجوائها ما ساعدهم على وفرة الانتاج ورفع شأن الأدب . وللاحوال السياسية كذلك أثر في خلق فنون جديدة من الأدب أو ترقية ما كان منها » .

وتطرق في محاضرته الثانية هذه الى القضايا التالية ، قال :

« ومن هذه العوامل اختلاط الأجناس المختلفة العقليات والعادات والاعتقادات بالمصاهره والمجاورة في امة واحدة ، وأثر هذا العامل أظهر ما يكون في دولة العباسيين في بغداد ودولة الامويين في الاندلس ، ففي البلدين اتصلت المدنية السامية بالمدنيـــة الآرية فالتقى التصور العميـق بالتصوير القوى ، والعقلية العالية بالوجدان الشعري . ومنها : التقليـد والاحتذاء ، ولقد كان للتقليد في الآداب القديمة شأن نابه وأثر ظاهر » . وضرب لذلك الأمثلة من الشعر اللاتيني وتقليده وأخذه من بحور الشعر اليوناني .

وتكلم على الأدب الفارسي والأدب التركي ، وقال : « انهما صنيعة التقليد ، ونفحـة من نفحات الادب العربي . فان الفرس حينما استولى الإسلام على أفئدتهم ، ولغته على ألسنتهم ، ظلوا زهاء قرنين يقرضون الشعر بالعربية دون الفارسية . فلما هبوا في القرن الثالث يستردون مجد أجدادهم ويطاردون العربية ونفوذها من بلادهم ويوحون الى شعرائهم من أمثال الدقيقي والفردوسي أن يجددوا مفاخر الاسلاف بتأليف المنظومات القصصية والاناشيد القومية ، لم يجدوا ذلك ميسوراً إلا باحتذاء الشعر العربي واقتباس أوزانه وبديعه ، وكذلك فعلوا في النثر .

وأما الاتراك العثمانيون فانهم حين أخذوا يدونون أشعارهم في أوائل

القرن الثامن اقتبسوا من الفرس بعض الاوزان العربيـة مدداً لأوزانهم القديمة ، ولكنهم ابتـــداء من القرن التاسع أغفلوا أوزانهم واصطنعوا العروض الفارسي ، وهــو في الاصل العروض العربي . وفي منتصف القرن الماضي جدد الوزير ضياء باشا المتوفى سنة ١٢٩٥ هـ دعائم الشعر ، وخلصه من التقليد ، وانضوى الى طريقته رهط من الشعراء المجددين مثل كال يكن وأكرم وناجي ، فأنقذوا أدبهم من سخف التقليد ، وقووه بالابتكار والتجديد » .

هذه أهم مقومات الحاضرتين .

نسائم النيل الى وادي الرافدين :

نقلت أنباء القاهرة وفاة العلامة اللغوي أحمد باشا تيمور ، فكان لنبأ وفاته أصداء الأسى والفجيعة في نفوس أهل الفضل والعلم ، فدعا صديقه الاديب الكبير الاستاذ محمد بهجة الاثري الى إقامة حفل تأبيني كبير في مقر جمعية الشبان المسلمين المجاور لقصر نقيب الاشراف السيد عبد الرحمن النقيب على دجلة في محلة المربعة ، وألقى فيه الاستاذ الاثري قصيدة جميلة قدمها بكلمة رائعة نشرت في جريدة البلاد ، كما ألقى مدير الجريدة المذكورة الاستاذ رفائيل ترجمة ضافية للفقيد ، وكان الاستاذ الزيات ممن أسهم في هذه الحفلة بكلمة بليغة نشرتهـا البلاد في يوم الاحد ٨ حزيران ١٩٣٠ بعنوان : (نسائم النيل الى وادي الرافـــدين) ، هذا نصها :

سادتي الأفاضل :

باسم الأمة المصرية ، وباسم الجامعة العربية ، وباسم الشهداء في سبيل العلم والوطنية ، باسم أسرة الفقيد الكريمة أقدم جزيل الشكر وموفور الحمد الى حضرات الداعين والمدعوين الى هذه الحفلة الموقرة . وأذكر

بالأعجاب هذه العواطف النبيلة التي عبر عنها حضرات الخطباء ، فأحسنوا التعبير ، وأجادوا البيان . جميل جداً يا سادة أن تتجاوب أصداء الأسى في جميع الاقطار العربية كلما عبثت بآمالنا الخطوب ، وعدت على رجالنا عوادي السياسة أو الموت ، وأليم جداً يا سادة أن تتخطف المنايا أقطابنا وهداتنا والبحر الذي نسلكه مضطرب والمركب حائر والمرفأ بعيد .

إن المرحوم أحمد باشا تيمور ، برد الله ثراه ، كان علماً من أعلام الإسلام والمشرق ، احتقر الراحة والثروة والجاه في سبيل لغتنا وأدبنا وتاريخنا ، فلم يدع ريبة إلا نفاها ، ولا غامضة إلا جلاها ، ولا منقبة إلا نقّب عنها ورواها . كان رحمه الله مثال الانسان الفاضل ، جعل قلبه لله ، وعقله للعلم ، ووجدانه للفضيلة ، وسعيه للخير ، فاكتسب رضا الله بالتقوى ، وشرف العلم بالعمل ، ومحبة الناس بالاحسان .

لم ينفق ماله في المجد الزائل ، ولا عمره في اللهو الباطل ، وإنما أنفق ثراءه الضخم في صنع البر ، واقتناء عشرين ألف مجلد من أندر الكتب المخطوطة والمطبوعة في العالم ، ثم عكف عليها عكوف الصابرين ، فما ترك كتاباً منها الا قرأه ونقده ، واستفاد منه وكتب عنه وعلق عليه ، ثم وقف هذا الجهد الجاهد والذهن الثاقب على خدمة العلم والعلماء في الشرق والغرب ، يحقق المسائل ويحل المشاكل ويدبج المقالات ، ويؤلف الكتب وكل ذلك في تواضع شديد ، وأدب جم ، وسماحة نادرة ، ثم ختم هذه الحياة الصالحة بحبس هذه المكتبة الثمينة على طلاب العلم بعد أن وقف عليها من أجود أراضيه عشرين فداناً تغل ثلاثة آلاف روبية في العام .

إن حياة الفقيد العظيم كما سمعتموها من الاستاذ بطي مثل من المثل العليا للحياة العاملة في غير ضجيج ، الناصبة في غير ملل ولا ضيق ،

الحافلة المثمرة في غير غرور ولا دعوى ، فهي أشبه شيء بالنبع العذب يسيل حلو الخرير في مطمئن الارض ، فيروي العطاش ، ويمرع السهول في غير هدير ولا صخب ، او هي المزنة الغادية الهتون ظللت اللاغب المحرور ، وبلت الثرى المجهود ، ثم ذهبت تاركة وراءها الربيع المزهر والمرتع الخصب ، شكر الله سعي من سارع في هذه الحفلة بالالقاء أو الاصغاء ، وحيا الله فيكم يا شباب الرافدين هذه النخوة العربية ، وهذا الشعور [1] النبيل الذي تبدونه من حين الى حين لجزء من أجزاء الوطن العربي المشترك وعوض الله العلم والعربية عن الراحل الكريم خير العوض ، إنه سميع مجيب .

(١) الحق أن العراق كان ولا يزال سباقاً في مشاركة الأقطار العربية أفراحها وأتراحها اذكاء للشعور القومي ، وتخليداً لذكرى أهل الفضل ، واشاعة لأقدار أهل العلم والفن ، فما كان يحدث حدث أو ينزل في مصر أو غيرها قضاء في علم من أعلام الامة إلا وتجد في نفوس العلية من أرباب العلم صداه وأساه ، وقد أقيمت حفلات التأبين لزكي باشا ، وسعد زغلول ولصاحب المنار السيد محمد رشيد رضا كما أقيمت حفلات التأبين لأحمد شوقي وحافظ ابراهيم ، وعباس محمود العقاد ، الا أن هذه العواطف الكريمة والمشاعر القومية لم تجد لها رعاية في مصر قبل انتشار الوعي القومي على لسان صاحب الرسالة وأحمد امين والسنهوري وزكي مبارك وأضرابهم .

تاريخ الف ليلة وليلة

ومما نذكر له بالاعجاب تلك المحاضرات الممتعة في الأدب العربي والحضارة العربية وفي تاريخ الف ليلة وليلة، وقد توالت في اماسي الخميس الأول والثاني من شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٢ فكانت تمتزج أرواحنا بروحه، وتنتشي نفوسنا بروعة أسلوبه، ويسحرنا بحسن أدائه، ويطربنا بنبرات جرسه الحلو وكلماته المنغمة الناعمة، فكنا ننسى أنفسنا ونسهو عن الوقت، ويدركنا المساء فيسكت عن السحر المباح ولما يدرك شهرزاد الصباح، وما زال الكلام عليها يمتد وفينا رغبة ملحة أن يتصل الكلام ولو فاتنا مدفع الافطار، وكانت القاعة على رحبها تغص بالمستعمين من المتأدبين عشاق أدبه الغض يجدها القارىء الكريم بنصها بملاحق الكتاب. والزيات في ما ترجم وألف وكتب من المقالات، وما أكثر ما كتب منها في الرسالة والأزهر والرواية، أديب مطبوع، جمع رصانة الأسلوب مع عمق التفكير، وطلاوة التعبير وجودة الصياغة والأسلوب المشرق، جمع الثقافة القديمة والثقافة الحديثة، وجمع اليها رقة الحاشية والشعور المرهف، فهو أديب متأنق، يغلب على أدبه التجديد والفن، والنثر الفني لا ينفع معه الارتجال ولا يخدمه الخاطر العابر. والتأنق صفة أصيلة في الأستاذ الزيات، تلازمه في حديثه، وتلمسها في تفكيره، وتراها في ملبسه، وتلحظها في مشيته وجلسته، لا يرضيه الكاتب

المجلان ، ولا الكاتب الذي يكتب عفو الخاطر ، وانما يعجبه الاعداد والالتزام والتفكير والتدبر .

وصفه صديقه الأديب الناقد محمود محمد شاكر ، فقال : « ورأيت الزيات في كل أسلوب هو الزيات لا يختلف ولا يتنافر ، والكاتب إذا صار الى هذه المرتبة حيث تراه هو مهما اختلفت الاغراض ، وتباينت الأساليب ، فاعلم أنه إنما يشتق لك ما يكتبه من حرّ نفسه ، ولا يقبل الزيف ، وهو يعطيك ولا يسألك ، ويبذل لك ولا يمن عليك ، ويعلمك ولا يدعي أنه أعلم منك ، وذلك بأنه قد بلغ في العقل والفكر والصفاء والبيان حيث يعلم انه ملك قارئه ، لأن القارىء ملك له ، وأنه مرشد لا مسيطر وأنه أخوك يناقلك الحديث ، وأنه كان بمنزلة الأب » .

وقال : « والزيات كما عرفته في كتاباته روح هادئة متكتمة مسترسلة ، يكاد يختفي في نفسه حين يفكر ، ويحاسب نفسه ولكن على التسامح والرضا والاستسلام ، فإذا أراد أن ينفجر خيل اليّ أنه عين حمئة ترسل لواذعها ساكناً ساخناً حامياً كالماء إذا غلي ثم هدأ بعد هدأة لا يضرب بعضه في بعض ، ولذلك نرى نقده إذا نقد شديداً بالغاً ، ولكنه رقيق غير عنيف .. »

يرضيه الأدب الوقور العف ولا يرتضي البذىء المكشوف ، ولا يسميه أدباً . آمن بالعروبة والاسلام ، ونافح عنهما ، وعالج قضايا الامة العربية في مشرقها ومغربها ، وكتب في المناسبات الدينية ، وعمق مفاهيمها في نفوس قرائه ، فكتب في العام الهجري ، والمولد النبوي ورمضان والحج وليلة القدر ويوم بدر ، وكان في كل ما كتب صادق العاطفة قوي الشعور عميق الايمان ، كما كتب في الاستعمار ،

وجسد أخطاره في أرض العروبة ، وأوضح مخاطر الصهيونية وأبان أهدافها التوسعية ، وألهب الحماسة في نفوس المواطنين من أبناء العروبة ضدها ، ودعا الى توحيد القوى لمحاربتها واجتثاث جذورهـا من قلب الاراضي العربية قبل أن تقوى وتزاد فتكون مصدر قلق المنطقة وتشريد أهل فلسطين الشرعيين .

فلما وقع الخطب وقررت الدول الكبرى التقسيم وتخلت بريطانيا عن مسؤلياتها ، بعد أن زودت العصابات الصهيونية بالسلاح وأعدتهم للايقاع بعرب فلسطين وتشريدهم من أرضهم ، كتب رحمه الله : « ها هي ذي تقسم فلسطين احدى القبلتين وثالث الحرمين قسمـة ضيزى بين العرب الأصلاء واليهود الدخلاء ، وتحمل الصهيونيين على ضمائرها وبواخرها من أركان الارض الى فلسطين ، لينصبوا فيها الصليب للحق ، كما نصبوه من قبل لعيسى ، ويبذروا الشقاق للناس كما بذوره في يثرب – لمحمد – ، ليت شعري ما جريرة العرب والمسلمين على الأمم الاوروبيين والامريكيين ؟ هل جريرتهم عليهم أنهم فتحوا العالم وطهروه وأعلنوا دين الله ونشروه ؟ قد يكون الفتح ِترَةَ العنصرية ومع نشر الدين تعصب الكنيسة ..

ولكن ِترَةَ اليهودي المقهور وتعصب الكاهن ، لم يكونا وحدهما السبب في هذا الاستخفاف الدولي بالاسلام والعروبة ، إنما السبب الأقوى فيما أعتقد أن المسلمين عولوا على الحق دون القوة ، وعولوا على القول لا الفعل ، واعتقدوا الفرد ، ونسوا ان دينهم قرآن وسيف وتأريخهم فتح وحضارة ، وشريعتهم دين ودنيا ، وحربهم جهاد وشهادة ، وزعامتهم خلافة وقيادة » ..

ولم يترك الزيات فرصة تمر أو تسنح إلا اهتبلها ، وعاود الكتابة في قضية فلسطين ، وعمق مفاهيم العروبة في نفوس الناشئة يوم

كانت فكرتها في نفوس الساسة والمثقفين باهتة بل غامضة. ونحن ما زلنا نذكر باعجاب مقاله القيم ، باعتزاز وفخر « فرعونيون وعرب » الذي ردّ فيه على من كان ينزع نزعة فرعونية أو يفكر تفكيراً أقليمياً ، قال :

« أفرعونيون نحن أم عرب ؟ أنقيم ثقافتنا على الفرعونية أم نقيمها على العروبة ؟ نعم ، قالوا ذلك القول ، وجادلوا فيه جدال من أعطي أزمّة النفوس وأعنة الاهواء ، يقول لها : كوني فرعونية فتكون ، أو كوني عربية فتكون ، ثم اشتهر بالرأي الفرعوني اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام ، فبسطوه في المقالات ، وأيدوه بالمناظرات ، ورددوه في المحادثات حتى خال بنو الأعمام في العراق والشام أن الأمر جدّ ، وأن ثلاثة من الكتاب أمة ، وأن الفكرة عقيدة ، وأن مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مسلاّت ، والمساجد معابد ، والكنائس هياكل ، والعلماء كهنة ... مهلاً بني قومنا لا تعتدوا بشهوة الجدل على الحق ، ورويداً بني عمنا لا تسيئوا بقسوة الظن الى القرابة ، إن الأصول والانساب عرضة للزمن ، والطبيعة تواشج بينها القرون وتفصل فيها الاجواء ، حتى يصبح تحليلها وتمييزها وراء العلم وفوق الطاقة ».

لقاءات وصلات :

وفي السنوات الثلاث التي قضاها الزيات في العراق قامت له مع أدبائنا وشعرائنا ورجالات المجتمع البغدادي صداقات وذكريات ، وتواشجت له مع الكثيرين منهم وشائج روحية ومودات رأينا صداها على صفحات مجلته الرسالة – وكانت مادة من مواد كتابه (العراق كما رأيته). نبتت له صداقة مع جميل صدقي الزهاوي ، ومعروف والرصافي ، وطه الراوي ، ومحمد بهجة الاثري ، وساطع الحصري ، والشبيبي ، ورفائيل بطي ، ومصطفى علي ، وناجي الأصيل وكمال ابراهيم ، وتوكدت بينه وبين

طلابه مودات وصداقات دامت ذكراهـا في أنفسهم . ومن أبرز طلابه ناجي معروف وجواد علي ومزاحم الشابندر وعبد الغني الجرجفجي رحمه الله وناجي يوسف وغيرهم ، أحبوه وأحبهم ، وعرف العراق معرفـة الدارس الناقد ، فكان لهذه الصلات صداهـا الذي تردد فيما بعد على صفحات الرسالة والرواية ، ومن أثرها كتابه « العراق كما رأيته » الذي أعدّ فصوله وأتم نسخه وتبويبه ، ولكن ظروفاً سياسية أرجأت نشره في وقته ، وبمضيّ السنين عصفت بأوراق الكتاب يد الاهمال وامتدت اليه يد الغفلة من صنّاع المنزل ، فضاع الكتاب ، ولكن مما يعزينا عن فقده كله أن الزيات قد نشر بعض فصوله في الرسالة وفي الاجزاء ٤١ ، ٤٢ و٤٣ من اجزاء مجلة العربي التي تصدر في الكويت لسنة ١٩٦٢ .

ومما قصه علينا في شأن هذا الكتاب ، قوله :

« في مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٢ ولد لي ولدان : طفـل وكتاب ، أذكر هذا كل الذكر ، لأنني في ذلك اليوم المقرور عدت في متوع الضحى من دار المعلمين بالكرخ الى داري بالرصافة ، فلزمتها جالساً أمام المدفأة الموقدة أكتب الفصل الاخير من كتابي « العراق كما رأيته » . ثم جاءني النبأ من مصر بعد ذلك بأن « رجاء » ولد لي في هـذا اليوم نفسه وكان طفلي وكتابي أعز شيء عليّ ، لأن ابن نفسي كان نتيجة ثلاث سنين من خير عملي .

« أجل قضيت ثلاث سنين في تأليف « العراق كما رأيته » جمعت مادته من الآثار والأسفار والأساطير والكتب والمناظر والأحاديث في سنتين ، ثم حررته وأنشأته ببغداد في سنة . فلم اكتب منـه في القاهرة إلا رحلتي الى كردستان والموصل وجبال عباد الشيطـان [1] وعودتي الى

---

(١) اراد سنجار والشيخان وسكانها من اليزيدية لا يعبدون الشيطان وانما يتقون شره .

سوريا عن طريق دير الزور وحلب ، ثم وجهت عزيمتي الى نشره ، فهيأتـــه للطبع ، وتربصت به مواتاة الفرصة ، ولكن الفرصـة اناقالت ، حتى وفد الى مصر صديق من رجالات العراق له بصر وخطر [١] فرغب ان يقرأ ما كتبته عن بعض الناس ، ومـــا علقت على بعض الحوادث ، فحملته اليه في « الكنتننتال » فحبس نفسه عليه نصف نهار لم يبرح فيه الفندق ، ثم رده اليّ في المساء وهو يقول في سمته الرزين ومنطقـــه المتئد : « أشهد أن كتابك أول ما كتب عن العراق في صراحة ولباقة وأخلاص وصدق ، ولقد طويت عني ما قلته فيّ ، ولكنني بعد أن قرأت ما قلته في غيري أكاد أعرفه بالاستنتاج والحدس ، ولعـلّ من الخير لنا ولك أن تؤخر نشر القسم السياسي منه الى حين ، أما قسماه الادبي والاجتماعي فستكثر حولها الاقاويـــل والاحاديث ، ولكنهما في الأدب والنقد وللتأريخ نصر وفتح » ..

نزلت على رأي الصديق العظيم – وليته لم يفعل – وعدت بالمخطوط الغالي الى موضعـــه من المكتب ، ثم أعلنت أني سأنشر بعض صوره الادبية في « الرسالة » ، وقد نشرت بالفعل صورتين أو ثلاثا ، رنّت بها الآذان ، وأصغت اليها الافئدة .

ولكن ، واأسفاه لم يعد للطفل الحبيب نفس ينسم على نفسي ببرد الجنة ، ولم يبق من الكتاب العزيز سطر يشعب فؤادي بذكرى العراق » .

والهفتاه على ولدي الذي أبدعه الله ، وعلى أخيه الذي أبدعتـــه نفسي ، جاءا معاً في الشتاء فلم أجد بفضل وجودهما برداً ولا عبوساً ولا كآبة ، وذهبا معاً في الربيع فلم أحس بسبب فقدهما دفئاً ولا

---

(١) هو الزعيم المغفور له ياسين الهاشمي .

طلاقة ولا بهجة . أودى بهما القدر العابث خداعاً وغيلة ، فسلب العين الكلائ ريبة الحذر ، وجرد الدفاع اليقظة من فرصة الحيلة .

دبّ للطفل الموت الوحيُّ[1] في وعكة خفيفة من البرد ظنها الطبيب زكاماً عارضاً ، فاذا هي الخناق « الدفتريا » ، ومشى للكتاب القـــدر المحتوم في ركام من الورق المتروك فذهب به الى النار .

وهكذا قضى الله أن تذهب الى العدم ، خلاصة العمر وعصارة الفكر في فترة ضائعة من فترات الغفلة ، وهيهات أن يكون لهما في الحياة عوض ، فان الفلذة إذا انقطعت من الجسم لا ترجــع اليه ولا تتجدد فيه ، وسحر المنظر الجديـــد لا يتكرر أثره في نفس زائرة ومخيلته » .

القهوة الضحيانة :

ومن أوراق الكتاب الفقيد .. وصف لمقهى كان يقع على دجلة ملحقاً بفندق كارلتون جاء فيه :

« هذه القهوة الضحيانة التي رقدت على صدر دجلة النابض ، واستغرقت في الدفء والضوء والسكون كانت أحبّ القهوات إلى القلب العميـد ، والخيال الشاعر . كنت كثيراً ما أغشاها بعيد الغداء ، فأجد جماعة أو جماعتين يلعبون الورق هنا ، وفتى أو فتيين يتساقطان الحديث هناك ، وبائع « الأبيض وبيض والعنبا » يسرق خطـاه بين هؤلاء وأولئـك ، فيذكر بندائه البطون التي شغلها عن طلب الطعام سكرة القمار أو نشوة المنادمة ، فأجعل ظهري إلى أحلاس القهوة ، ووجهي إلى دجلة ، وعيني إلى الجسر ، ثم أشاهد « فِلْماً » عجيب الألوان من الناس والأجنـاس

---

(١) الوحي : السريـع .

والصور .. فهذا قطيع من الغنم يعبر الجسر إلى الجزرة في حمى راعيه ، وهو مستسلم لصوته منقاد لعصاه استسلام الأمة للطاغية يقودهـــا إلى الحرب ، وانقياد الخليقة للقدر يسوقها إلى الموت .. وهذا الملك « فيصل » يعود من قصر العرش إلى قصر الزهور ، من غير حرس ولا جلبة ، فيقف في غمرة الناس على فم الجسر ينتظر أن يعبر القطيع راعيه ، وهنـاك تلاقى راعٍ وراعٍ ، وتقابل قطيع وقطيع » !

الحلقــــة :

وكتب صورة ثانية من كتابه المفقود تحت عنوان « الحلقة » وصف بها رفقة من رجالات العراق كان يطلق عليهم ياسين الهاشمي « الحلقة » قال :

« ستة من الاخوان جمعهم تشابه الذوق ، وألف بينهم تجانس الهوى ، فتساهموا الصفاء ، وتقاسموا المودة ، وخلطوا حياتهم بحياة بعض . فما كانوا يفترقون أصائلَ الأيام ولا عشايا الليالي ، كانوا يتخذون سامرهم كل ليلة في دار أحدهم . فيتحلقون على مائدة الشاي السخية ، أو يتقابلون أمام المِدفأة الواهجة ، ثم يديرون بينهم سُقاط الحديث على أروع مـــا تشققه الأذهان الخصيبة من براعة الفكر ، وملاحة النكتة ، وطلاوة الخبر ، وسلامة النقد ، وصحة الحكم ، فلا يدعون شأناً من شؤون الحياة ، ولا وجهاً من وجوه السياسة ولا أمراً من أمور البلد ، إلا تنـاولوه باللسان المرهف والفؤاد اليقظ والنظر المستقل ، فهم معارضون ولا لسان لهم في حزب ، ومصلحون ولا يد لهم في زعامة ..

كانوا يمثلون نواحي النشاط الفكري في العراق أصدق التمثيـــل ، ففيهم رجل الجيش ، ورجل التعليم ، ورجل القانون ، ورجل الطب ، ورجل المال ، ورجل الشعب ، ذلك إلى امتياز كل منهم بسمة من سمات

الطبع ، وصفة من صفات الخلق .

فطه الهاشمي عذب الروح ، سريّ الأخلاق ، وقور النفس ، مصروف الهم إلى القراءة المنتجة والتأليف المحكم فيما يتصل بالتأريخ والحرب ، ولو ترك إلى نفسه لما خرج من مكتبه (١) .

وناجي الأصيل نبيل العاطفة ، حلو الفكاهة ، سمح المقادة ، أفلاطوني النزعة (٢) ، يعيش في السماء ، ويحلم دائماً بالمدينة الفاضلة .

ويوسف عز الدين (٣) متئد اللسان ، حصين الصدر ، سريع الفطنة ، يتبسط في هزل الكلام . ويتحوط في جده ، ولا ينفك لإخوانه موضع السر ومرجع المشورة .

وكامل الجادرجي (٤) متوقد الذكاء ، متمرد الطبع ، متوثب العزيمة ، دائب الحركة ، صليب الرأي ، يدين بالديمقراطية ، ويميل إلى الاشتراكية ، ويرفرف بجناحيه على الفلاح والعامل والمتعطل .

---

(١) دخل الوزارة مرات ورأسها قبيل ثورة العراق ٢ مايس ١٩٤١ وترك بعد وفاتـه مذكرات عالج فيها قضايا العراق بصراحة واقتضاب ، حتى ثورة تموز ، وكان الواجب يقضي عليه أن يبدي رأيه في أحداثها وما لازمها من انحرافات ومضاعفات وما أعقبهـا من اضطرابات ولكنه آثر السلامة .

(٢) رأس المجمع العلمي العراقي ودخل الوزارة قبلها ، توفي في الاسبوع الأول من ثورة ١٤ رمضان ٨ شباط ١٩٦٣ ، رأيي فيه ان شهرته أكثر من حقيقته ، لم تعرف له مواقف جريئة ، يسالم كل حكم ، ويفيد من كل وزارة ، ويتظاهر بالعلم والعفة .

(٣) يوسف عز الدين ابراهيم كان مديراً للمعارف ثم مفتشاً عامـاً المالية ، وعين وزيراً للمعارف أيام انقلاب بكر صدقي ، رجل عملي قليل اللغو بعيد عن الادعاء .

(٤) دخـل الوزارة أيام بكر صدقي ، ورأس الحزب الوطني الديمقراطي وعارض سياسة نوري السعيد كما عارض الأحلاف ، يرجع اليه والى اعضاء حزبه شيوع الفكرة الاشتراكية وعلى قنطرته عبر الحزب الشيوعي العراقي ، ولما واتتهم الفرصة تنكروا له وللحزب الديمقراطي ، توفي سنة ١٩٦٨ .

وموفق الآلوسي [1] طموح القلب ، سريع البادرة ، بارز الشخصية ، يعتد برأيه إلى حد العناد ، ويعتز بنفسه إلى حد المخاطرة .

وشوكة الزهاوي [2] واسع البال ، ضيق الأفق ، رصين العقل ، قد قصر جهده على عمله فلا يكاد يطمع في شيء ، ولا يشارك في رأي ، ولا يحفل بحادث .

وأولئك كانوا لِما اجتمع لهم من ضروب الثقافة وشتى الخلال ، صورة مصغرة للأمة ، يعيشون منعزلين وهم فيها ، ويفكرون مستقلين وهم منها ، كأنهم كانوا لآمالها رموزاً تتميز تميز العنوان وتنفرد انفراد العلم ، كانوا جميعاً في ربقة الحكومة ، الا كاملاً ، فكان للجماعة الكلمة الحرة ، والفكرة الطليقة ، وقف على السياسة الصريحة قواه ، وأيقظ لأطوارها المختلفة رأيه ، فكان يناصر الحزب ما دام معارضاً ، فإذا قبل الحكم تركه إلى غيره ، حتى انفرد هو ذات يوم بالمعارضة ، كان اليد اليمنى لياسين الهاشمي في حزب الاخاء ، وياسين أمل البلاد المرجو ، وزعيمها المنتظر ، فلما رآه يقصد الحكم عن طريق الملاينة والمسايرة ، خالفه ومعه مقاعد البرلمان ، ووظائف الديوان ، وخرج مغاضباً إلى الجهاد بالنفس والمال ، فزاول المحاماة ، وعالج الصحافة ، ولقي في سبيل ذلك ما يلقى المعارضون المتزمتون من الضيق والعنت » . .

كان للزيات في هذه « الحلقة » كرسي وثير ، يلقاه أصحابها بالترحاب

---

(١) درس في الحقوق وانتخب عميداً لها ، وعين مديراً للخارجية ، وترك العراق بعد انقلاب بكر صدقي ، واختير سفيراً للمملكة العربية السعودية ، واخيراً احيل على المعاش ، ويسكن سويسرا في الوقت الحاضر ، لم يترك القرأ عليا ، وقد صلح حاله وابتعد عن عناده وإدمانه .

(٢) طبيب حاذق في فنه ، وبرغم ذلك اقحم في الوزارة وهو ابعد ما يكون عن السياسة ومطاويها ، توفي في الخمسينات .

والتكريم ، وكان يجد لهم في نفسه من الطمأنينة والأنس ما لا يجده عند غيرهم ، فكان يناقلهم شجون الحديث ، فيعلم منهم ما لا يعلمه عن طريق الدراسة ، أو الصحافة ، أو الرسميات ، يقول في ذلك :

« كانوا يحملون في نفوسهم آمال العراق الناشىء ، وفي رؤوسهم ثورة الشباب الجديد .. سياستهم الجماعة قبل الفرد ، والعامة قبل الخاصة ، والعراق قبل العروبة ، ولكن آراءهم في رأيي أشبه بأحلام الفلاسفة ، تحت رواق المعبد ، لأنك إذا استثنيت « كاملاً » لا تجد فيهم من يفكر في انقلاب ، أو يجهر بمعارضة » .

وكان ظن الزيات صائباً ، فقد اشترك كامل الجادرجي في انقلاب ١٩٣٦ بقيادة بكر صدقي ، وساند الانقلابيين بتكوين الجبهة الشعبية ، واندفع في إدخال المقترحات الاشتراكية مما سبب له معارضة اضطرته أن ينسحب من الوزارة ، وقد اشترك من أعضاء الحلقة في الوزارة آخران هما : يوسف عز الدين ابراهيم لوزارة المعارف ، وناجي الأصيل للخارجية ، وأخرج من الحلقة اثنان من العمل الرسمي ، طه الهاشمي : أبعد عن رئاسة أركان الجيش ، وموفق الألوسي من الخارجية .

وكان هذا الانقلاب أول حدث زج الجيش فيه بالسياسة ، ولا شك أن فساد الحكم وتطلع الشعب إلى الإصلاح والحد من تدخل المستشارين البريطانيين هو الذي أدى إلى تدخل الضباط في الاشتراك بالانقلاب ، ولكن ما عتم أن استغل بعضهم مراكزهم فانحرفوا عن الأهداف التي جاهروا الناس بانجازها مما دفع آخرين من عسكريين وساسة أن يدبروا انقلاباً مضاداً نفذت فيه خطتهم ونجحت باغتيال بكر صدقي ومحمد علي جواد ، ومن يومها لم تعرف البلاد طعم الاستقرار .

والصورة الثالثة التي احتواها كتاب الزيات المفقود ، وصف الصيف في بغداد ، الذي يصل حره أيام تموز وآب ، إلى خمسين درجة أو أكثر أحياناً ، وحق للمقريزي أن يقول : « إن من محاسن مصر ، أن أهلها لا يحتاجون في حر الصيف إلى الدخول في جوف الارض كما يعانيه أهل بغداد » .. يريد به السرداب .

ووصف حر العراق كاتب عراقي ، فقال : « حر لا يطيب معه عيش ، ولا ينفع فيه ثلج ولا خيش ، فهو كقلب المهجور ، أو كالتنور المسجور » ..

والزيات لم يقض الصيف كله في بغداد ، وإنما كانت الدراسة تعطل في اليوم الاول من تموز ، فيبارح العراق إن لم يكن قد بارحها قبل ذلك ، ولكنه حر العراق الذي لم يألفه في مصر أو غيرها ! فقال في وصفه : « السنة في العراق فصلان ، شتاء وصيف ، وليس بين الفصلين المتعاقبين إلا استراحة قصيرة لا تزيد على شهر . فالحر يبدأ من أواخر مارس ، ثم يتدرج حتى يبلغ الأوج في أشهر «يونيو ، ويوليو ، وأغسطس» ثم تنكسر حدته بعد ذلك . هذا في العام . أما في اليوم ، فيطلع الحر بطلوع الشمس ، ثم يصعد بصعودها ، حتى إذا أقبل الضحى بلغت الحرارة خمسين درجة مئوية في الظل ، وانقلب البيت فُرْناً من غير وقود ، والهواء لهباً من غير دخان ، وحينئذ تحس كأن روحاً نارية تمتد إلى وجهك فتحرقه ، وإلى نفسك فتزهقه ، وإلى صدرك فتضيّقه . فإذا كنت في الطريق لذت بجدار تحته ظلّ ، أو بقهوة فيها مروحة . وإذا كنت في دارك تجردت من أكثر ثيابك ، وألقيت بنفسك في السرداب فظللت به إلى أن تغرب الشمس . والسرداب في بيوت بغداد حجرة في أسفل الدار تنخفض عن صحنها مترين أو أكثر ، وليس فيها فتحة

غير الباب ، وفي جدارها القائم على الدهليز شباك مربع يبلغ ارتفاعه ثلثي الجدار « البادكير » وقد سد بما يشبه مرتبة السرير قد حشيت بأغصان الصفصاف المورقة ، يرشونها بالماء الحينَ بعد الحين ، فترطب الهواء ، وتحركه المروحة الكهربائية [1] ، فينسم على الجالسين بالطراوة . ودور بغداد مبنية من طابقين ، فالطابق الأسفل للصيف ، والطابق الأعلى للشتاء . وهذا الطابق الشتوي لا ينفك يرسل في النهار والليل حرارة كوهج النار فلا يدخله في الصيف أحد ، إنما يمرون به سراعاً في الليل وهم صاعدون الى سطح الدار ، لينادموا أهنأ النوم تحت السماء .

وإذا كانت أيام الصيف في بغداد لفحات من سعير جهنم ، فان لياليها نفحات من نعيم الفردوس . وخير ما يعوّض الأجساد من ذوبانها المستمر في عرقها الدائم ، تلك العشايا الجميلة التي يقضيها البغداديون على ضفاف دجلة . فهم يخرجون اليه كل مساء عائلات وجماعات وأفراداً ، ومعهم الخدم والفرش والطعام والشراب والفاكهة ، فيركب بعضهم زوارق النزهة ، ويجلس بعضهم في جزائر النهر ، وهؤلاء يغنون ويرقصون ويقصفون ، فيمسي دجلة بمائه وشطآنه وجزره مقصفاً محدوداً بين الرصافة والكرخ ، يضج بالمتاع واللذة [2] ، ويفيض بالانس واللهو ،

---

(١) هجرت السراديب بعد استعمال المكيفات الحديثة ، هذا في بيوت بغداد القديمة .

(٢) رحم الله ايام زمانك يا استاذ ، فقد فقد البغداديون بما فيهم الموسرون واهل الرواتب العالية ، تلك المنازه والمقاصف وسقف السمك واتخاذ شواطىء دجلة مصايف ، يقيم فيها الناس اشهر الصيف . كانت الحياة رخيصة ، ومواد العيش زهيدة ، لا تكلف إلا يسيراً من دخل الموظف او التاجر . اما اليوم فانها عشرة امثالها ، يومها كنت تبتاع السمكة التي تكفي العائلة بربع دينار او اقل ، واليوم لا تقدر ان تبتاعها بأقل من ثلاثة دنانير او اكثر ، وقس عليها غيرها . ولا شك ان وجود المباني الحديثة وما يلحق في الدور من الحدائق الواسعة قد عوضت عن منازه النهر وان كانت المقاهي على شارع ابي نواس ما زالت مكتظة بروادها الى اليوم .

ويتمتع بالأدب والسمر .. وتلك عادة اجتماعية ، توارثها البغداديون عن أسلافهم ، منذ أيام العروس في عهد الرشيد والأمين . ولا يزال لها في تاريخ الأدب أثر قوي ، وفي قصص ألف ليلة وليلة صدى رائع .

وحسبي أن أذكر لك في سبيل الترفيه يوماً من أيام بغداد ، وليلة من ليالي دجلة ، قضيتها مع صديقي المرحوم السيد عبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي المعروف ، وكان يومئذ لاجئاً بعاصمة العراق من اضطهاد فرنسا أم الحريات !

دعاني الزعيم ذات نهار من أنهار تموز الى الغداء ، فتحاملت على نفسي ، وذهبت اليه في الظهيرة . فوجدته في الحجرة السفلى من داره ، متهالكاً على فراشه ، وقد تعرى جسده البدين البطين ، إلا من إزار كإزار الحمام . فقلت مداعباً : أتُحْرِم يا أستاذ في غير وقت الحج ؟ فقال على البديهة ، وهو يضحك ضحكته العريضة العذبة : وكيف لا أحرم وهذه شمس بغداد ترمي الجمرات ؟ فعجبت من جمال توريته ، وحضور ذهنه ، على الرغم مما كان يقاسي من لهاث الحر وتفصد العرق . وتخففتُ من بعض ثيابي ، ثم جلست أناقله الحديث . وتعجّب كيف ازدهرت حضارة العباسيين في هذا القيظ الطويل ، واستبحر عمرانهم في هذا الخمود الملازم .. وكان الرجل قد وضع على مسافة متر منه مروحة كهربائية كبيرة وتركها ترسل على جسده العاري الضخم هبّاتها القوية من الهواء الحار ، فكانت لا تنفّس عن صدره ولا تخفف من كربه ، فيقوم الى الحمام فينقع جسمه في الماء ، ثم يعود ليعود اليه الخناق واللهاث والحر والعرق .. واشتدت الحال ، فعجزت عن الكلام ، وعجز هو عن الاصغاء .

وظللنا نتردد بين غرفة الحمام وحجرة الطعام ، حتى سكنت فورة

الحر ، فاقترحت عليه أن نقضي هذه الأمسية على دجلة ، وكان ثالثنا صديقاً من ادباء بغداد . فهيأ لنا العشاء والزورق ، وجذف بنا الملاح حتى توسط النهر ، فوقع في أسماعنا من جهة الكرخ غناء وعزف .. فقال أحدنا للنوتي : تتبع طريق هذا الزورق اللاهي . فقال الملاح بلهجة الغاضب الأنوف : ولماذا نتبع نحن ولا يتبعون هم ؟ ولم يدهش العراقي .

وحاذى المركب المركب ، فإذا جماعة من شباب اليهود لا يقلون عن العشرة ، قد انتظموا صفين على جانبي الزورق ، وفي الوسط مائدة مستطيلة عليها الطعام والشراب والزهر ، وشاب أنيق يعزف على الكمان . فلما رأونا خشعت الأصوات ، وشخصت الأعين ، ونادى ملاحنا بلهجة عراقية آمرة : تعالي يا بنت ، تعالَ يا ولد ، وانتظرت أن أرى الغضب والاحتجاج أو التردد ، فلم أرَ إلاّ القوم يخلون للجوقة الطريق واجفين ويساعدونها على الانتقال واقفين . ولو كنا جرينا مع النوتي على مذهبه ، لنقل كل ما كان في مركبهم الى مركبه ، ثم سار زورقنا ، وهم يتبعون ، يغني ويعزف وهم يسمعون ... الخ ...

كدت أخرج من موضوع الحديث ، ولكن الأسى يبعث الأسى والذكرى تثير الذكرى ، والحديث شجون ، والأحداث عبر ، وكان في النية أن أتم الحديث بذكر الوسائل الصناعية التي كان يتخذها أهل الترف من خلفاء بغداد ، وسَراة العراق ، فيردّون الجحيم نعيماً ، واللفحة اللاذعة نسمة رطبة ، ولكنها صفحة من تأريخ التمدن أرجو أن أجلو بعض سطورها .

كيف كان العراقيون يتقون الحر ؟

وتحت هذا العنوان كتب صورة أخرى كانت من مواضيع كتابه « العراق كما رأيته » قال : « حدثتك بطرف من ذكرياتي عن صيف

بغداد ، ووعدت أن أتم الحديث بذكر الوسائل التي كان الناس في العراق يتقون بها هذا الحر قبل أن يُكشف الكهرباء ، ويُكيف الهواء ، ويصنع الثلج ...

والناس منذ عايشوا الطبيعة ، قد حاولوا أن يدرؤوا عن أنفسهم غوائل الجو بشتى الحيل . فاتقوا البرد القارس والمطر الواكف ، والريح العاتية ، تقف عند باب السكن فلا تقتحمه على من فيه .

ولكن الحر تعسّرَ عليهم اتقاؤه ، لأنه يهاجمهم في الظل ، وفي الليل ، وفي داخل المسكن .. وغاية ما استطاعوه أن خففوا عنهم شدته بوسائل دلت عليها الطبيعة ، وهدت اليها التجربة كاتخاذ الملابس من الكتان ، واختيار الأبيض من الجلابيب والعمائم ، ورش الأرض بالماء وتحريك الهواء بالترويح ، وتبريد الجسد بالاستحمام . وقد قيل لأعرابي من بدو العراق : كيف تصنعون في البادية إذا اشتد القيظ ، وانتعل كل شيء ظله ؟ فقال الأعرابي ، ووجهه يتهلل بالرضى والغبطة : « وهل العيش إلا ذاك ؟ يمشي أحدنا ميلا فيتصبب عرقاً ، ثم ينصب عصاه ويلقي كساءه في ظله يكتال الريح فكأنه في إيوان كسرى » ..

على أن هذه الوسائل البدائية ، لم تلبث أن ارتقت بارتقاء الحضارة ، وازدادت بازدياد الترف . يحدثنا الطبري وياقوت : أن الاكاسرة كان من عادتهم إذا اشتدت وقدة الحر ، أن يؤتى لهم باطباق من غصون الصفصاف الذي نسميه شعر البنات ، فتجعل ركاماً حول الحجرة ، ثم يؤتى بقطع الثلج الكبار من قمم الجبال فتوضع ما بين أضعافها . وكانت هذه عادة الأمويين بالشام ايضاً . ولكن الناس في عهد الخليفة المنصور اتخذوا الخيش الغليظ للتبريد ، فكانوا يغطون به جدران الحجرات طبقة فوق طبقة ، ولا يزالون يبلونه بالماء فيبرد ما يلامسه من الهواء بفعل التبخر .

وكان المترفون يغشون هذا الخيش بظهارة من النسيج الدّبيقي المصنوع بماء الورد والكافور والصندل . كان يجلب اليهم من مصر ، ثم اتخذوا بعد ذلك بيوت الخيش وهي قباب ينصبونها على شكل خيـام المعسكرات اليوم ، يجري من فوقها الماء من قنوات صغيرة تبلها على الدوام فيبرد هواؤها أشد البرد ، حتى ضربوا ببرودتها المثل فقالوا : طبعه أو شعره أبرد من قبة الخيش . حكى ذلك المقدسي في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ، وكانوا يتخذون مع الخيش المراوح الكبيرة المعلقة . قال الغزولي في كتابه « مطالع البدور » : « وكان يستعمل في البيوت صيفا مروحة تشبه شراع السفينة ، تعلق في سقف البيت ، ويشد بها حبل يديرها ، وهي تبل بالماء وترش بماء الورد ، فاذا أراد الرجل ان ينام وقت القائلة جذبها من حبلها ، فتذهب بطول البيت وتجيء ، فيهب فيها نسيم بارد طيب » ..

ثم تأثرت هندسة العمارة بطبيعة هذه الحرارة في القرن الثالث للهجرة ، فبنيت القصور والدور في سامراء عاصمة العباسيين في عهد المعتصم وبنيه ، على طراز يقول الاستاذ آدم متز في كتاب تاريخ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع إنه منقول من آسيا الوسطى . وذلك أنهم يبنون الحجرات والأبهاء والمجالس في الطابق الأرضي ، سراديب أنيقة الوضع جميلة الزخرف حسنة التهوية بديعة الإضاءة . ثم يديرونها في شكل مربع على فناء سماوي رحب ، تتوسطه بركة أو نافورة أو بستان . ولقد زرت وأنا في العراق أطلال سامراء أو « سرّ من رأى » - وشاهدت آثار قصر الجعفري الذي بناه الخليفة المتوكل على هذا الطراز ، وشق في فنائه بركته المشهورة التي يقول فيها البحتري :

تنصبّ فيها وفودُ الماء معجلة ... كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجري في مجاريها

اذا علتها الصبا أبدت لها حُبكاً — مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها — وريّقُ الغيث أحيانا يباكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها — ليلا ، حسبت سماء رُكبّت فيها

وهذا الوصف الدقيق الرقيق ، يدل على عظم البركة ، وفخامة القصر .

وفي القرن الخامس للهجرة ، يقول الرحالة الفارسي ناصر خسرو : إن من خصائص مدينة أرّجان أن فيها الأبنية تحت الأرض مثل ما فوقها .

ومصداق هذا الخبر ما نراه اليوم في مدينة النجف بالعراق . فان موقعها على طرف الصحراء وموضعها من شرف الأرض جعلاها أقسى البلاد حراً وأيبسها طبيعة . فبنى أهلها السراديب طوابق كطوابق الدار ثم عمقوها حتى نزلوا بها خمسة وثلاثين متراً في جوف الأرض ، ثم اتخذوا من مائها الجوفي مجلساً رحباً تلوذ به الأسرة من حرّ الهواء ، فتجد به في قيظ الصيف برد الشتاء . وقد نزلت في زيارتي للنجف سرداباً من هذه السراديب العجيبة في مدرسة السيد كاظم اليزدي ، فوجدت فيه من بديع الصنع مالا تصدق الاذن إلا إذا رأته العين .

أما مرفهات الصيف عند المترفين من الخلفاء والكبراء والقادة ، فحسبي أن ألخص لكم صفحة من صفحات هذا الترف المسرف سجلها ابن أبي أصيبعة في كتابه « عيون الانباء في طبقات الاطباء » عند كلامه على العالم النصراني بختيشوع بن جبرائيل طبيب المتوكل . وقد كان يذهب في عيشه مذهب الملوك ، وهو أول من احتال لتكييف الهواء في الصيف والشتاء .. فقد حدّث متحدث أنه دخل على هذا الطبيب في يوم شديد الحر وهو في مجلس مغشى بطاقات من الخيش ، بعضها فوق بعض . وفي وسط هذا المجلس قبة مجللة بالكتان الناعم ، مظهرة بالدّبيقي المصبّغ . وكان يلبس رداء من الخز فوقه جبة

من الصوف ، فعجب من زيّه ، فلما دخل في القبة ناله من البرد أمر عظيم ، فضحك الطبيب وأمر له برداء وجبة ، ثم قال لغلامه : إكشف جوانب القبة ، فكشفها فإذا أبواب مفتوحة من جوانب الايوان في مواضع مكبوسة بالثلج وغِلمان يروّحون بالمراوح على ذلك الثلج ،فيخرج منه ذلك البرد الذي لحقه . ثم دعا بطعامه ، فأتي بمائدة عليها من ألوان الطعام كل غريب ، وأغرب ما كان عليها فراريج مشوية قانية الحمرة ، وجاء الطباخ فنفضها كلها فانتفضت . فلما سأله عنها قال : هذه فراريج تعلف اللوز المقشر ، وتسقى ماء الرمان .

ودخل عليه المتحدث في يوم قارس البرد ، وهو جالس في إيوان على بستان أنيق الوشي مسكي العبير ، وعلى الايوان ظهارات من فراء السمّور وأكسية الحرير ، وجلود اليمن ولبود المغرب ، وقد ارتدى غلالة رقيقة وبين يديه موقد من الفضة مذهب مخرق ، وغلام يحرق فيه البخور الهندي . فلما دخل معه الإيوان فإذا مواضع لها شبابيك من خشب بعد شبابيك من حديد ، وكوانين فيها فحم الغضا ، وغلمان ينفخون ذلك الفحم بالأكوار كما يصنع الحدادون . ثم دعا بطعامه ، فأحضروا له ما جرت به العادة من الشهي الطيب ، وعلى المائدة فراريج ناصعة البياض ، فظننتها غير ناضجة . وجاء الطباخ فنفضها فانتفضت . فلما سأله عنها قال : هذه فراريج تعلف الجوز وتسقى اللبن ، وهي تلائم البرد كما تلائم تلك الحر .

وبقية الصفحة رواية أخرى عن مأدبة أدبها بختيشوع هذا للخليفة المتوكل في يوم قائظ ، جمع له فيها ما لم يخطر على بال من فنون الترف والسرف والعلم ، فبرد الحرارة وطرد الذباب من الجو وأدنى متاع الجنة من الضيف .

وهذا النمط من العيش الرافه الراغد ، إنما كان مقصوراً على أولي النّعمة من رجال الدولة ودهاقين المال . أما طبقات المجتمع الأخرى ، فقد راضتها الطبيعة على مكاره الحر ، حتى ألفوا رمضاء الصحراء ، كما ألف الاسكيمو ثلوج القطب . والطبقة التي ميزها الملك الموروث والحكم الفاسد والثراء الفاحش ، هي الآفة التي تقوض بناء الشعب ، والعاهة التي تقتل سلام الأمة . وإن ما قرأناه من بذخ بختيشوع وأمثاله من أهل الترف ليذكرنا بما سمعناه عن بذخ يوسف كمال وأشباهه من أهل البطالة ، والفرق بين ذلك الطبيب العالم ، وهذا الأمير الظالم ، هو الفرق بين الانسان والوحش ، أو بين المَلَكِ والشيطان ، فقد كان أمير نجع حمادي يعيش هو وسائر الاقطاعيين في هجير الصعيد كما يعيش في نعيم سويسرا . وكان يسخّر مئات الالوف من الفلاحين ليعقدوا من دمائهم الذهب ومن دموعهم السرور ، ومن شقائهم السعادة ، ثم يولم الولائم الفاخرة للأقارب من أسرته ، وللاجانب من ندمائه ، ويأمر عماله وفلاحيه أن يصطفوا صفين عن يمين وشمال ، فإذا مر بينهم هو أو ضيوفه ركعوا جميعاً . وكان يحشد لهذه الولائم كل متعة ويجمع فيها كل منكر ، ثم يضن على الفقراء بالفتات والفضلات فيلقيها في نهر النيل للسمك . واستدرج الله هؤلاء الفاسقين وأملى لهم ثم استجاب لدعوة المظلومين المحرومين ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ..

وكان ما كان من مُلك ومن مَلك
ثم انقضى وكأن القوم ما كانوا »

أقول : ليت الذين يتولون مصالح الناس يتعظون بما جرى للذين حكموا قبلهم وأساؤوا وانحرفوا واتجروا بطعام الشعب ، وأثروا على حساب نفوذهم ، وسخروا سلطانهم لاحتجان المغانم والمكاسب لهم وللأقربين والمحسوبين ، فأصبحوا بين عشية وضحاها يعيشون عيش البطر ، ويصرفون مصالح البلد ، ويديرون السفينة وفق رغباتهم وأطماعهم ، وظنوا أن عين الله تنام ، أو أن عين الشعب غافلة — (وما الله بغافل عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار) .

الزيات والزهاوي

ومن الفصول الممتعة التي ضمها كتابه المفقود ، لقاؤه الأول للزهاوي . قال :

« كنت جالساً في بهو كارلتون ، صباح اليوم الثاني لقدومي بغداد ، أروض قلبي على روعة الفراق ، وأذني على لهجة العراق ، وعيني على غرابة الصور ، وإذا بأحد الندُل يلقي الي بطاقة كتب عليها : « جميل صدقي الزهاوي » ولم تكد تلوح في مخيلتي صورة الشاعر التي صورها السماع والقراءة حتى رأيت على باب البهو شيخاً في حدود الثمانين ، قد انخرع متنه ، وثقلت رجله ، ورعشت يده ، فلا يحمل بعضه بعضاً إلا جهداً .

أقبل عليّ يتخلع على ذراع غلامه ، وقد انبسطت أسارير جبينه العريض ، وانفرجت شفتاه الذابلتان عن ابتسامة نضرة عذبة ، ثم سلّم علي تسليم البشاشة ، بيد مرتجفة ، ورحّب بي ترحيب الكرم ، بصوت متهدج ، ثم انطلق يشكو جمود الأمة ، وإغفال الدولة ، وكيد الخصوم ، وإلحاح المرض . وتطرق إلى خصومته عامئذ مع الاستاذ العقاد فذكر والأسف المر يكسبه لهجة المظلوم ، وهيئة الشهيد ، كيف استغلها في العراق من سدّد خطاه في الشعر ، وأرجف بها من تولاه بالرعاية ، وحمد الله على أنني جئت بغداد بدل العقاد ، فقد كان وجوده تأليباً متصلا

على فضله ، وازعاجاً مستمراً لسكينته .

لم يدع لي الزائر الكريم فرصة بين كلامه الدافق ، أدخل عليه منها بالتخفيف ، فان الزهاوي – كما علمت بعدُ – ديدنُه أن يتكلم . كالبلبل ، خاصتُه أن يغرد ، أو كالزهر طبيعته أن يفوح . فهو في مجلس الصداقة شاكٍ أو شاكر ، وفي مجلس الأدب محاضر أو شاعر ، وفي مجلس الأنس مفاكه أو محدث . كان الشيخ يتكلم أو ينشد ، ونبراته المؤثرة ، وقسماته المعبرة ، ولحيته الخفيفة المرسلة ، ووجهه المسنون الأعجف وشاربه النائم على فمه الأهرت ، وعينه البراقة ترأرأ من خلف المنظار ، وشعره الأشمط يتهدل على نتوء الصدغ : كل أولئك كان يخيل اليّ أن طيفاً من أطياف الجدود ، أو نبياً من أنبياء اليهود ، قد انشق عنه حجاب الزمن فجأة في هذا المكان الصامت ، والنور القائم ، والجو الغريب ، ولكن الجدّية التي تفيض من كلماته ، والعزيمة التي تضطرم في نظراته ، كانت تطرد هذا الخيال ، وتجعلني وجهاً لوجه أمام « كتلة » من الأعصاب القوية المشدودة تتكلم وتتألم وتثور وتهدأ ، وتسخط وترضى ، وموضوع مقالها وانفعالها لا يخرج أبداً عن « الأنا » إذا صح التعبير .

كنت ألقاه في خلال الأسبوع مع الناس في منتداه بشارع الرشيد ، أو على ضفة دجلة جالساً على الدكة الخشبية ينشد الأبيات الرائعة ، أو يرسل النكتة البارعة ، أو يروي الخبر الطريف في بشاشة جذابة ، وقهقهة ساذجة ، ويده المرتعشة لا تنفك تعبث بلحيته الصغيرة ، أو تصعد وتهبط بسيكارته العراقية ، أو تمتد « بالآنَة » إلى غلام القهوة كلما طلب الشاي إلى صديق (١) .

---

(١) كان الزهاوي في الضحى يجلس في مقهى ما زال يسمى باسمه ، وفي الأمسيات يجلس على سيف دجلة في مقهى في الباب الشرقي يقع قرب وزارة الشؤون الاجتماعية مقابل سينما ←

دأبت « عربة » الشيخ بعد ذلك على أن تقف أمام منزلي صباح يوم الجمعة من كل أسبوع. فكنت أستقبله استقبال العابد المتحنث للكاهن الملهم. ثم نقضي ضحوة النهار مما يحدثني فأعجب، أو ينشدني فأطرب، وقد تكون أذني إلى فمه، وليس معنا ثالث، ولكنه يجاهر بالإلقاء، ويصوّر المعنى بالصوت والإيماء، حتى يدهش المنزل وينصت الشارع.. وهو بين الفترة والفترة، يعود إلى الشكاة، وشكواه لا تنقطع. وأظل أنا أمام هذا الجيشان الروحي ساهماً حالماً، أفكر في الذهن الذي لا يكل، واللسان الذي لا يفتر، والزهو الذي لا يتطامن، والطموح الذي لا يتقاصر، والقلق الذي لا يسكن، والتمرد الذي لا يهن، والشباب الذي يلبس رداء الشيخوخة، والحياة تتخذ هيئة الموت.

وكنت أزوره في مثواه « بالصابونجية[1] » فأراه في مبادله قاعداً يشكو الوصب، لأنه قضى الليل ساهراً يقرأ، أو ذاهلاً ينظم. فالقصص والمجلات منتثرة على سريره وعلى مقعده، والمسودات مدسوسة تحت مخدته أو في ثيابه، فلا يتمالك حين يراني أن يصيح: أنظر كيف أذيب عمري في شعري، والأمة تقذفني بالبهتان، والحكومة تخرجني من الأعيان،

← روكسي، وكان من عادته إذا جاءه زائر ومعجب بشعره دفع عنه « الآنه » قيمة الشاي وتساوي خمسة فلوس، وكان البعض من الخبثاء ممن لم ينالوا « الويره » باصطلاح البغداديين يحتالون على كرمه بمدح قصيدة من قصائده أو بعض منها أو بشروا له بخبر يشم منه رائحة تعيينه في الأعيان بعد أن فقده بالقرعة، هناك يعلو صوته: أمينا شاي الأفندي. ويشير اليه بيده. ولبعض الظرفاء حوادث يخادعونه بها حتى ينالوا دعوته على الغداء معه في داره. ويغيظه بعضهم فيروي له قصيدة من شعر الرصافي ويفضلها على كل ما قاله الشعراء، أو ينقلون له خبراً يعزونه الى مصطفى علي صديق الرصافي وحافظ شعره، فيهتاج ويسبهم او يقوم عنهم الى ركن آخر او يركب عربته ويرجع الى داره.

(١) الصابونجية محلة كان فيها بيوت آل الزهاوي تقع بالقرب من الميدان وما زالت مأهولة بالسكان.

[illegible] يستكثر علي أن أكون شاعر البلاط .

اني سأذهب وستبقى أشعاري معبرة عن شعوري وناطقة بآلامي ، فهي دموع ذرفتها على الطرس ، وهي خليقة أن تبعث من عيون قارئها دمعة هي كل جزائي من نظمها » .

وكتب له ترجمة في أحد أجزاء الرسالة ، قال :

« ولد الزهاوي في يوم الاربعاء من شهر يونيو « حزيران » سنة ١٨٦٣ ببغداد لأبوين كرديين كريمين ، تميزت أسرتهما بالدين والفقه والأدب . فقد كان أبوه محمد فيضي الزهاوي مفتياً لدار السلام ، وأخوه [١] فقيهاً من فقهائها . فنشأ جميل بين أبيه وأخيه ، يرتاض عقله ليتثقف ، ويرتاش خياله ليطير ، ولكن أخاه كما حدثني الزهاوي كان حثر [٢] اللسان لا يتذوق الأدب ، فكان يذوده عن رواية الشعر ويصده عن دراسة اللغة ، ويأبى عناده هو وتسامح أبيه إلا أن يديم النظر في الادب ، ويروض القريحة على القريض . كان هم أخيه ، وأمل أبيه أن يستقيم على عمود أسرته ، فيكون صاحب قضاء وفقه ، ولكنه استقام على محتوم طريقته ، فكان صاحب دعوة وفلسفة . والاستعداد الموهوب في الطبع هو مشيئة الخالق في الخلق ، جعل من الزهاوي أبا العلاء ، وقد كان أهله يريدونه أبا حنيفة ، وجعل الرصافي أبا نواس ، وقد كان الالوسي يريد في معروف الرصافة معروف الكرخ [٣] .

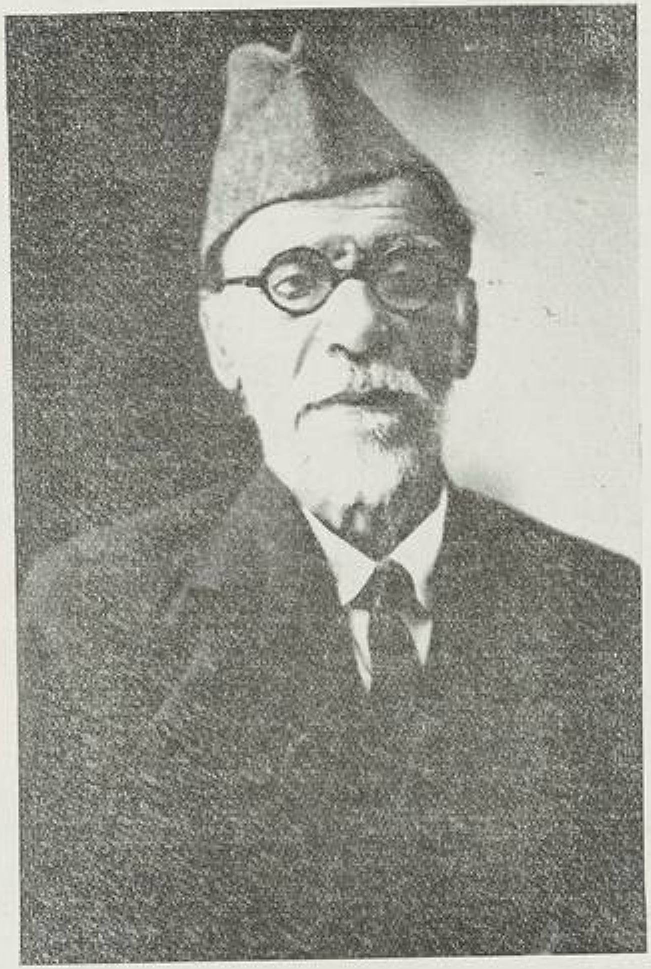
---

(١) هو محمد سعيد الذي كان من أعلم فقهاء بغداد ، وهو والد الشيخ أمجد الزهاوي رئيس المجلس الشرعي ورئيس رابطة العلماء . والصواب مدينة السلام أي بغداد.

(٢) حثر اللسان : فاقد الذوق .

(٣) يريد به الشيخ معروف الكرخي الصوفي المشهور .

والألوسي هو الامام محمود شكري الألوسي البغدادي الذي تخرج به الرصافي ودرس عليه ولازمه مدة طويلة ناهزت اثنتي عشرة سنة ، وهو الذي لقبه بالرصافي .



جميل صدقي الزهاوي

كان العراق أيام نشأ الزهاوى تركي السلطان ، سنتي الحكومة ، فالتعليم المدني فيه كان تابعاً في لغته وطريقته وغايته لسياسة الاجنبي وهواه . فلم يخرج إلا رجال جيش يخضعون للنظام ، ورجال إدارة يذعنون للحكم . أما التعليم الديني ، فقد ظل في صحون الجوامع على ما عهده الناس ، عربي اللسان ، حر النزعة ، طليق الفكرة ، مستقل الغاية . وطبيعة هذا النوع من التعليم الجدلي المطلق أن يخلق الجاهل للشعور البليد فيضل ، ويكشف الآفاق للفكر النافذ فينبغ ، ويساعد الجبلّة في الانسان على حسب الاستعداد فتعلو أو تهبط ، فهو يساعد الهمة القاعدة على السقوط ، والنفسَ القانعة على القنوط ، والذهن المبطن على التخلف ، كما يساعد العقل الحائر على التزندق ، والطبع القلق على التمرد ، والارادة المستقلة على الترعم ..

ورجال الثورة والاصلاح في تأريخنا الحديث ، كانوا جميعاً من أهل هذه الثقافة كالافغاني ، وعرابي ، ونديم ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، والكواكبي ، والزهاوي ، والرصافي ، ومن اليهم . والناهون من أهل هذه الثقافة ، لا ينفكون دائبين على القراءة ، والتتبع والمشاركة ليدفعوا عن أنفسهم معرة الذم ، وهم عسيّون - إذا جددوا - أن يسرفوا في التجديد ، كذي العاهة يدفعه النفور من ذل الضعف إلى الافراط في العسف والتجبر .. فالزهاوي الجريء بطبعه ، الطموح باستعداده ، تثقف بهذه الثقافة ، ثم تنفست على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة ترسلها على بغداد الصحارى الملهمة ، ثم نزعة عرق العم والخال من الكردية ، فجاهد وجالد وغامر . والكرد كالعرب إن لم يكونوا من العرب . ثم ابتلي وهو في الخامسة والعشرين من عمره بداء في النخاع الشوكي لازمه بقية حياته ، ورمي بعد ذلك بالشلل في رجله ، فبرم واكتأب وتشاءم ، ثم مني من أهل عصره بفساد السلطان ، واستطالة الجهل ، وانحلال

الخلق ، فدفعته هـذه العوامـل كلهـا إلى موقف المصلحين من الانذار والتضحية .

رأى وهو في الأستانة عبد الحميد يلقي الأحرار مغلولين في السجون ، أو في قاع البحر ، فأرسل مع أبي الهدى قصيدة منها :

أيأمر ظل الله في أرضه بمـا ... نهى الله عنـه والرسول المبجل
فيفقر ذا مـال ، وينفي مبرءاً ... ويسجن مظلوماً ، ويسبي ، ويقتل
تمهل قليلاً ، لا تغظ أمـة إذا ... تحرك فيها الغيظ لا تتمهـل
وأيديك ان طالت فلا تغترر بها ... فان يـد الايام منهن أطول

فسجنه حيناً ثم نفاه ..

وسمع وهو عضو في مجلس « المبعوثان » من بغداد ، مقرر الميزانية يذكر في ميزانية وزارة الحربية مبلغاً جسيماً من المال ، جعلوه لقراءة « البخاري » في الأسطول ، فقال : أنا أفهم أن يكون هذا المبلغ في ميزانية الأوقاف ، أما في ميزانية الحربية فلا . فالمفهوم أن الأسطول يمشي بالبخار لا بالبخاري . فثار عليه المجلس ، وشغب عليه العامة . والزهاوي كان يردد هـذه الحكاية ، ويتفاخر بجرأته في اعتراضه . يحكيها بلهجته الساخرة يقول : « أفندم ، هذا لن يكون ، الأسطول افندم يسير بالبخـار لا بالبخاري ، أفندم أنقلوا المبلغ إلى ميزانية الاوقاف ، يقوم بها الشيوخ وأهل الطرق . ولهجته وسخريته من عادة قراءة البخاري تبركاً جعل العـامة تشغب عليه بعد أن رد اعتراضه جماعة من النواب ذوي النزعة المدنية .

ورأى مـا تعانيه المرأة من عنت الاستعبـاد والاستبداد والجهل ، فهب لايقاظها ، فكتب في جريدة المؤيد مقاله المشهور « المرأة والدفاع عنها » فزلزل الناس في بغداد وغير بغداد ، فسعوا به إلى ولاة الأمور

ليعزلوه ، وحرشوا عليه دهماء الشعب ليقتلوه ، فاضطر إلى لزوم داره .

الزهاوي عقليـة « افاقة » ، وحيوية ، وطبيعة ساخرة . وهـذا التوثب الحماسي فيه هو الذي جعلـه يؤثر النظم في تقييد خواطره ، وهذه الحماسة قد تنفك أحيـاناً عن الفكرة لكلالهـا ، أو ابتذالها ، فيذهب الشاعر ويبقى الفيلسوف ، ويكون الزهاوي معك كالآلة تدور مليئة متزنة مـا دامت على شيء ، فإذا نفدت مادتها فجأة ، انطلقت تدور على الفارغ سريعة مضطربة . ذلك أن الفكرة الفلسفية هي المادة الاصيلة في شعر الزهاوي . وليس الشعر كله فكرة ، وإنما هو – فضلاً عنها – صورة يرسمها الخيال ، وشعور تبعثه العاطفة . على أن فكرة الفيلسوف واضحة ، وجمالها في هـذا الوضوح ، وفكرة الشاعر خفية وسحرها في هذا الخفاء . إمـا أن تدرس الطبيعة لتعرفها وتشرحهـا فتكون صاحب فلسفة ، وإما أن تدرسها لتقلدها وتصورها فتكون صاحب شعر ، أمـا الخلط بين الفلسفة والشعر ، لأن الشاعر يدرس ظواهر الكون ، فكالخلط بين التصوير والتشريح ، لأن المصور يدرس بواطن الجسم .

كان الزهاوي كشوقي حريصاً على متابعة العصر ، ومسايرة التطور . ومنشأ هذا الحرص فيهـما طبع مرن يطلب التجدد ، وحس مرهف يأنف التخلف .

ويزيد الزهاوي أن الفخر يزهاه ، وأن التيه يذهب به فيحب الثناء ويبغض النقد . فهو لعزفه من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد ، ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأي إلى التطرف ، ولطمعه في نباهة الذكر يجاري ميول الخـاصة ، ويعارض هوى العامة . ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم وزراية على الجمـود بمحاربة أهل الدين ، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة .

ونظم في أعقاب عمره « ثورة في الجحيم » ففزع المؤمنون من شرها إلى الملك فيصل ، فلما كلمه في ذلك قال : « ما أصنع يا مولاي ، عجزت عن إضرام الثورة في الأرض فأضرمتها في السماء » !

ورسم الزيات صورة ثالثة للزهاوي ،

وازن فيها بين عقله وبين أصحاب العلم والفلسفة ، وردّ أصول دراسته وما ترجم إلى الكتب والمقالات والمجلات ولا سيما « المقتطف » لأنه ما كان يحسن سوى العربية والفارسية والتركية والكردية ، وكلها لغاتٌ المترجمُ اليها من العلوم قليل ، لا يبل صدى الظمآن ، ولا يصل فكر الانسان بالتطور الذي نضج في أوربا وأمريكا .

قال :

« ومع ذلك استبطن الزهاوي دخائل هذه العلوم بعقله الناقد حتى ألف كتاب « الكائنات » في الفلسفة ، وكتاب « الجاذبية وتعليلها » ، وقال :

« سواء أنهض دليله « في الجاذبية » أم دحض ، فإنه يدل على النظر الثاقب ، والفكر المستقل . ورجاحة عقله هي التي حملته وهو في ربيع العمر على أن يشرف على ظواهر الكون وحقائق الوجود ، من سماء فكره لا من سماء خياله . والمعهود في عامة الشعراء أن يكونوا على النقيض من ذلك . فلما هيأته الأقدار الجميلة لرسالة الشعر ، كان فكره أقوى من خياله وأسمى من عاطفته . والفكر والخيال والعاطفة هن ملكات النفس الأدبية الثلاث ، يصدر عنهن فيض القريحة ، ويرد اليهن إلهام العبقرية . ولكن الشعر ، لا يهيمن عليه إلا الخيال والعاطفة . أما حاجته إلى الفكر فمحدودة بمقدار ما يضيء الطريق للخيال والعاطفة حتى يأمنا الضلالة . فالفكر للعبقرية بمثابة العين ،

والخيال والعاطفة لها بمثابة الجناحين ، فإذا تغلبا عليها كان الشرود والزيغ ، وان تغلب عليها كان الجفاف والعقم . ومن هنا جردوا أكثر ما قاله أبو العلاء ، وأقل ما نظم أبو الطيب ، من الشاعرية ..

والزهاوي شاعر من شعراء الفكرة ، له البصيرة الناقدة ، والفطنة النافذة وليس له الاذن التي « تموسق » ولا القريحة التي تصنع ، واللفظ قد لا يختار ، والوزن قد لا يتسق ، والاسلوب قد لا ينسجم ، ولكن الفكرة الحية تعج بين الأبواب المتخاذلة عجيج الأمواج المزبدة بين الشواطىء المنهارة .

« والزهاوي بعد هذا وقبل هذا ، كان رسولاً من رسل الفكرة الإنسانية ، وبطلاً من أبطال النهضة العربية . كان يهزج بأغاريد الفخر على ضفاف دجلة فتتردد اصداؤها الموقظة على ربوات بردى ، وخمائل النيل ، وسواحل المغرب .

وأدب الزهاوي وأمثاله هو الذي وصل القلوب العربية في مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة ، حتى استطاعت اليوم أن تتعارف وتتآلف وتتحالف ، ثم تسعى لتقود أمة كما كانت ، وتقوى لتصبح دولة كما يجب أن تكون » ..

وضوح العروبة لدى الزيات

ندب الزيات للتدريس في العراق سنة ١٩٢٩، وبقي في بغداد ثلاث سنين مليئة بالفكر والعمل. خالط فيها رجال القومية والداعين للعروبة في العراق، وكانت الفكرة القومية تتردد على لسان المثقفين، وكان ذكر العروبة تتعطر به شفاه المتعلمين. وبحكم اجتماعات الزيات بقادة الفكر وأرباب السياسة وزعماء النثر والشعر، واختلاطه بالأساتذة وهم حملة الأقلام والأفكار النيرة، تملّى أفكار القومية والدعوة للوحدة، وسبر عمق العروبة وما تعني. عرف أبعادها وأفكارها من كبار دعاتها مثل ساطع الحصري الذي يعد بحق فيلسوف القومية وزعيم دعاتها، ومن الثعالبي والهاشمي والشبيبي والراوي وغيرهم ممن زامله في دار المعلمين العالية، فآمن بالعروبة وأصبح من دعاتها، وساهم في تأسيس الجمعية الثقافية التي تأسست يومذاك في بغداد. ومن أهدافها أن تقوم مثيلات لها في مصر وسوريا ولبنان وفي أقطار العروبة كلها، وترمي هذه الجمعيات الى نشر الوعي القومي عن طريق إحياء التراث العربي والثقافة العربية، وقد تبلورت فكرة قيام هذه الجمعية إثر المحادثات وتبادل الأفكار بين ساطع الحصري والأساتذة العراقيين من جهة وبين أساتذة الجامعة المصرية الذين زاروا العراق في شباط سنة ١٩٣١ من جهة أخرى. فتم الاتفاق بين الزائرين والمضيفين على وجوب التعاون في سبيل انهاض

الثقافة العربية وضمان ازدهارها . يقول ساطع الحصري في مذكراته : ورأينا أن أحسن طريقة لذلك ، في ظروفنا الحالية هي :

« أن نؤسس في كل من بغداد والقاهرة جمعية تسمى « جمعية الثقافة العربية » ، لتتولى هاتان الجمعيتان مهام الاتصال بين مثقفي البلدين وتنسيق وتوحيد الجهود التي يجب أن تبذل في هذا السبيل[1] » .

كانت هذه السفرة الثقافية الاستكشافية برئاسة الأستاذ العلامة أحمد أمين وعضوية عبد الرزاق السنهوري القانوني الضليع ، والأستاذ عبدالوهاب عزام ، وشفيق غربال ، ومصطفى عامر ، يرافقهم عدد من طلاب الجامعة ممن أصبحوا هم وأساتذتهم يتسنمون مراكز حساسة في الحكومة المصرية حلوا ضيوفاً على وزارة المعارف ، أو على دار المعلمين العالية على الأصح. ووضع الحصري منهاج الزيارات والاحتفالات ، واختار الأساتذة المتحمسين لفكرة العروبة ليكونوا برفقة الوفد طلاباً وأساتذة .

أقيمت للوفد حفلات ، خطب فيها درويش المقدادي ومتى عقراوي. وألقى فيها جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي قصائد مناسبة . يقول الأستاذ ساطع الحصري :

« ان الخطب التي ألقيت في هاتين الحفلتين (حفلة دار المعلمين العالية ونادي المعلمين – في فندق كارلتون المطل على نهر دجلة ، في يومي ٨ و ٩ شباط ١٩٣١ . ان هذه الخطب التي ألقاها المحتفون والمحتفى بهم) شغلت مكاناً هاماً من صفحات الجرائد ، وأوجدت حركة فكرية وقومية تلفت الأنظار ، ولا سيما قصيدة معروف الرصافي التي كان مطلعها :

---

(١) مذكرات الحصري ، الجزء الثاني ص ٧٢ .

أرى بعد نوم طال في الشرق يقظة
نهوضية فيهـــا طموح الى المجــد
ففي مصر شيدت للعـلوم معاهـد
عـلى أسس التحليل والبحث والنقد

وأكد أحمد أمين في خطبته على الروابط التاريخية التي تربط مختلف البلاد العربية وان كان قد أكثر من استعمال تعبير « الأمم العربية » تارة « والأمم الشرقية » تارة أخرى ، وهـذه التعبيرات كانت موضـع حوار ونقاش بين ساطع الحصري وأحمد أمين في جلسات خاصة .

ويقول الأستاذ ساطع الحصري : ولكن أهم الآثار الفكرية تولدت من اختلاط طلاب الجامعة المصرية بطلاب دار المعلمين العالية ببغداد .

وقال : « كان المصريون يستغربون أشد الاستغراب من تكلم العراقيين في القومية العربية ، ويسألونهـم : أنتم عراقيون فكيف تشعرون بأنـكم عرب ؟ وأما العراقيون فكانوا يستغربون أسئلة المصريين هذه ويسألونهم: أنتم ألستم عرباً ؟ صحيح انكم مصريون ولكن أليس المصريون كلهم عرباً ، فكيف لا تشعرون بعروبتكم ؟ » يقول أبو خلدون : كنت أشعر بسرور عميق عندما أطلع على هذه المحادثات خلال تجوالي بين موائدهم دون أن أستغربها ، اعتقاداً مني بأن ذلك لا بد أن يفتح أمام الشبان المصريين آفاقاً جديدة ، كما أنها كانت لا بد من أن تقوى عند الطلاب العراقيين روح العروبة .

قلت . لم أستغربها لأني كنت أعرف أن بمصر ، كانت تحصر كلمـة « العرب » بصورة رسمية في البدو ، فان الأحصاءات الرسمية بعد أن تذكر ما يعود إلى كل محافظة واحدة فواحدة تذكر ما يعود إلى العرب . كأن أبناء المحافظات ليسوا عرباً » أقول إن هذا الاستعمال كان معروفاً

في العراق فاذا قال أحدنا إني أريد القدو" إلى العرب ، عَنَى الريف أو البدو ، ولكن الوعي القومي أبطله تدريجياً ..

الزيات عضو في الجمعية الثقافية العربية :

وكان أعضاؤها المؤسسون بترتيب حروف الهجاء :

(١) ابراهيم الشابندر (٢) أليس قندلفت (٣) أحمد حسن الزيات (٤) داود الجلبي (٥) درويش المقدادي (٦) رفائيل بطي (٧) ساطع الحصري (٨) سامي شوكة (٩) طالب مشتاق (١٠) طه الهاشمي (١١) متى عقراوي (١٢) موفق الآلوسي (١٣) ناجي الأصيل (١٤) يوسف زينل .

وبعد الحصول على الأذن القانوني انتخب الدكتور داود الجلبي مدير الصحة العام رئيساً للجمعية ، والدكتور متى عقراوي « سكرتيراً » لها ، وابراهيم الشابندر محاسباً وأميناً للصندوق ، ووزعت الجمعية المنشور التالي على عدد كبير من المثقفين ، أثبت نصه لما فيه من تفكير عميق وحماسة للفكرة القومية .

بعد العنوان :

« لم يبق أحد إلا وقد شعر بأن الشرق العربي يتجه اليوم اتجاهاً جديداً نحو الحياة ، بعد أن شملته يقظة الأمم والشعوب عقيب الحرب العظمى . ولكن الوضع السياسي للناطقين بالضاد وما خلفته أعوام الركود جعل الأقطار العربية مبعثرة من حيث النفوذ السائد عليها والنظم التي تخضع لها ، ففدت تختلف حالاتها الاجتماعية والأدبية بعضها عن بعض اختلافاً بيناً . وهذا ما جعل هذه الأقطار بعيدة عن اجتناء ثمرات النهضة الحديثة التي استروحت نسائمها في العهد الاخير . لذلك كان

التفكير في التقريب بين أقطار الشرق العربي من طلائع الغايات التي يجب على المنورين في كل قطر أن يضعوها نصب أعينهم . ونخالكم تتفقون معنا على أن المشروع الأول الذي يجب أن تتضافر عليه الجهود في هذا الباب توحيد الثقافة ، وهذا لا يتم إلا بإيجاد الصلات الفكرية والروابط الأدبية بين البلاد العربية للحصول على وحدة ثقافة شاملة .

تلك حاجة شعر بها الغيارى على مستقبل الشرق العربي ، وشغلت أذهانهم ، فصاروا يبذلون المساعي لسدها بالسبل القويمة ، وقد حفزت هذه النزعة الشريفة جماعة من المشتغلين بالعلم والأدب في بغداد ، فعنوا بمناقشة الموضوع مع طائفة من الاساتذة المصريين الذين أمّوا مدينة الخلفاء في بعثة الجامعة المصرية في الشتاء الماضي ، فاستقر الرأي على تأليف جمعيات في ديار العروبة تتخذ واسطة الاتصال بين المفكرين فيها ، وأن تسلك هذه الجمعيات الطرق المؤدية الى توحيد الثقافة العربية الخ . »

ومن هذا البحث أريد أن أخلص إلى أن فكرة القومية ومفاهيمها قد نضجت في صدر أستاذنا الزيات في اثناء اشتغاله في العراق ، فلما عاد الى مصر وأنشأ الرسالة كانت بحق مجلة الرسالة القومية الحاملة لواء الدعوة الى العروبة وغرسها في نفوس قرائها من أبناء الشعوب العربية .

لقد اشتد الجدل يومئذ بين نفر ممن عمل بتوجيه من المستعمرين والمستشرقين ينزعون نزعة إقليمية ، هذا يقول بالفرعونية وذاك يقول بالفينيقية ، وذلك يقول بالبربرية . واتهم أساتذة كبار من أمثال طه حسين والعقاد ، بأنهم تنكروا للعروبة ، وكثر اللغط والجدل حول هذا الموضوع ، وتوضحت الأفكار وصححت المفاهيم ، ووضح ما كان مبهماً ، وتخلص الكتاب من كثير مما كانوا يقعون فيه من الأخطاء والخلط في مثل التعبيرات « الأمم العربية » والصواب الشعوب العربية ،

« الشرق العربي » وكأن المغرب العربي لم يكن أهله عرباً .

ومثل « إحياء عظماء الشرق » ويريدون به عظماء الأمة العربية لأن الشرق يشمل الهند والفرس والصين واليابان الخ ... وإلى القارىء الكريم خلاصة من المقالات فيها الدلالة على التحول الكبير الذي أحدثته التوعية القومية وشيوع فكرة العروبة في كتاب مصر بفضل الزيات وكتاب رسالته . من تلك المقالات التي كتبها الزيات في القومية مقاله المشهور (فرعونيون وعرب) : فقد كان له تجاوب في الأقطار العربية ، وصدى على أسلات أقلام الكتاب . قال :

« عفا الله عن كتابنا الصحفيين ، ما أقدرهم على أن يثيروا عاصفة من غير ريح ، ويبعثوا حرباً من غير جند !

حلا لبعضهم ذات يوم أن يكون بيزنطياً يجادل في الدجاجة والبيضة أيتهما أصل الأخرى ؟ فقال على هذا القياس : أفرعونيون نحن أم عرب؟ أنقيم ثقافتنا على الفرعونية أم نقيمها على العربية ؟

نعم ! قالوا ذلك القول ، وجادلوا فيه جدال من أعطي أزمة النفوس وأعنة الاهواء . يقول لها : كوني فرعونية فتكون ، أو كوني عربية فتكون ، ثم اشتهر بالرأي الفرعوني اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام ، فبسطوه في المقالات وأيدوه بالمناظرات ، ورددوه في المحادثات ، حتى خال بنو الاعمام في العراق والشام أن الأمر جد ، وأن الفكرة عقيدة ، وأن ثلاثة من الكتاب أمة ، وأن مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مسلات ، والمساجد معابد ، والكنائس هياكل والعلماء كهنة .

مهلاً بني قومنا لا تعتدوا بشهوة الجدل على الحق ، ورويداً بني عمنا لا تسيئوا بقوة الظن الى القرابة ، فبأي شيء من هذا يتمارى إخواننا

الجدليون ، وهم لو كشفوا في أنفسهم عن مصادر الفكر ومنابع الشعور ومواقع الالهام ، لرأوا الروح العربية تشرق في قلوبهم ديناً ، وتسري في دمائهم أدباً ، وتجري على ألسنتهم لغة ، وتفيض على عواطفهم كرامة .

لا نريد أن نحاجّهم بما قرره العلماء المحدثون من أن المصرية الجاهلية تنزع بعرق الى العربية الجاهلية ، فان هذا الحجاج يقطع فيه النفس ، ولا ينقطع فيه الجدل . وكفى بالواقع المشهود دليلاً وحجة . هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرناً وثلث من التاريخ العربي نسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الضاحية سوابغ الظلال . وذلك ماضي مصر الحي الذي يصبح في الدم ، ويثور في الأعصاب ، ويدفع بالحاضر الى مستقبل ثابت الأسس شامخ الذرى عزيز الدعائم .

أزهقوا إن استطعتم هذه الروح ، وامحوا ولو بالفرض هذا الماضي ، ثم انظروا ما يبقى في يد الزمان من مصر . هل يبقى غير أشلاء من بقايا السوط ، وأنضاء من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة ترتل « كتاب الأمواج » ، وجباه ضارعة تسجد للصخور وتعنو للعجماوات ، وقبور ذهبية الاحشاء ابتلعت الدور حتى زحمت بانتفاخها الارض ، وفنون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة ؟ وهل ذلك إلا الماضي الأبعد الذي تريدون أن يكون قاعدة لمصر الحديثة ، تصور بألوانه ، وتشدو بألحانه ، وتحيا أخيراً بروحه ؟ ولكن أين تحسون بالله هذه الروح ؟ إن أرواح الشعوب لا تنتقل إلى الأعقاب إلا في نتاج العقول والقرائح ، فهل كشفتم بجانب الهياكل الموحشة والقبور الصم مكتبة واحدة تحدثكم عن فلسفة كفلسفة اليونان وتشريع كتشريع الرومان وشعر كشعر العرب ؟ أم الحق أن مصر القديمة دفين فنبت روحه مع الآلهة ، وصحائف موت ذهب سرها مع الكهنة ؟ والخامد لا يبعث حياة ، والجامد لا يلد حركة .

لا تستطيع مصر إلا أن تكون فصلاً من كتاب المجد العربي ، لأنها لا تجد مدداً لحيواتها ، ولا سنداً لقواتها ، ولا أساساً لثقافتها إلا في رسالة العرب . أما أن يكون لأدبها طابعه ولغتها لونه فذلك قانون الطبيعة ، ولا شأن (لمينا) ولا (ليعرب) فيه لأن الآداب والفنون ملاكها الخيال ، والخيال غذاؤه الحس ، والحس موضوعه البيئة ، والبيئة عمل من أعمال الطبيعة يختلف باختلافها في كل قطر ، فإذا لم يوفق الفنان بين عمله وعمل الطبيعة ، ويؤلف بين روحه وروح البيئة ، فاتته الصبغة المحلية وهي شرط جوهري لصدق الاسلوب وسلامة الصورة . وقديماً كان لون الأدب في الحجاز غيره في نجد ، وفي العراق غيره في الشام . وفي مصر غيره في الاندلس ، دون أن يسبق هذا التغاير دعوة ولا أن يلحق به أثر .. انشروا ما ضمت القبور من رفات الفراعين ، واستقروا من الصخور الصلاب أخبار الهالكين ، وغالبوا البلى على ما بقي في يده من أكفان الرميم ، ثم تحدثوا واطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار وعظمة النيل وجمال الوادي وحال الشعب ، ولكن اذكروا دائماً أن الروح التي تنفخونها في مومياء فرعون هي روح عَمْرو ، وأن اللسان الذي تنشرون به مجد مصر هو لسان مضر ، وأن القيثار الذي توقعون عليه ألحان النيل هو قيثار امرىء القيس ، وأن آثار العرب المعنوية التي لا تزال تعمر الصدور وتملأ السطور وتغذي العالم هي أدعى إلى الفخر ، وأبقى على الدهر ، وأجدى على الناس من صفائح الذهب وجنادل الحجارة .

انما تتفاضل الأمم بما قدمت للخليقة من خير ، وتتفاوت الاعمال بما أجدت على الانسان من نفع . أليس « الخزان » خيراً من الكرنك ، والأزهر أفضل من الأهرام ، ودار الكتب أنفس من دار الآثار ؟

وبعد ، فإن ثقافتنا الحديثة إنما تقوم في روحها على الإسلام والمسيحية ،

وفي آدابها على الآداب العربية والغربية ، وفي علمها على القرائح الأوربية الخالصة . أما ثقـافة (البردي) فليس يربطها بمصر العربية رباط ، لا بالمسلمين ولا الاقباط[1] .

الزيات من دعاة الوعي القومي :

من مقـال نشره بعنوان « مصر وأخواتها » في ٤ مارس ١٩٣٥ ، جاء فيه .

« كأنمـا السؤال من الناس كسؤال الناس ، لا يتفق مع الرخاء ولا يكون مع الغنى ، فإن مصر والعراق يكادان من سعة العيش لا يذكران من وراء الحدود ، والوحدة العربية في البلدين على الرأي الاغلب حديث خرافة أو حديث مجـاملة ، فلولا الأدب الذي يجمع الفؤاد بالفؤاد ، ويربط البلاد بالبلاد ، ويصل الأحفاد بالأجداد ، لظلت منابت العروبة ومواطن الاسلام أغفالاً لا تعرف ، وأرحاماً لا تبلّ .

يزور المصري من أقطـار العرب ، فيكون أول مـا يرد على سمعه عتب المحبين على الهجر ، ولوم الأقربين على القطيعه ، وعذل الجيرة على التخاذل ، فيلقى معاذير الملوم المحرج في منطق عيّ ودفاع غير ناهض ، ثم يزداد حرجه وتتخـاذل حججه كلما رأى قلوبهم تزخر بعواطفه ، وصدورهم تجيش بامانيه ، وألسنتهم تضطرب بأخباره ، ونهضتهم تسترشد بنهضته ، ووجهتهم تسير مع وجهته . فصحفه تقرأ ، وكتبه تدرس ، وسياسته تحتذى ، وزعامته تتبع . ثم خصومته هي لهم خصومة ، وقومه لقومهم أهل ، وبلده لبلادهم قبلة ، حينئذ يقول لنفسه ، والخجـل

---

(١) وحي الرسالة ١ – ١٠ – ١٩٣٣ .

والعجب يتعاقبان على وجهه ، إن وطني مترامي الحدود ، فلماذا أحدّه على الضيق ؟ وقومي ضخام العديد ، فلماذا أحصرهم على القلة ؟ وجيراني كرام يصفون المودة ويصدقون العطف ويولون المعونة ، فلماذا أجعل بيني وبينهم سداً من الاهمال والغفلة ؟ إن الأمم القوية الناضجة لترخص الأموال والأنفس في التمكين لأدبها ونفوذها وعروضها في الشرق ، فكيف نعرض نحن عن ذلك ، وهو يأتينا عفواً عن طريق القرابة والنسب والوحدة في اللغة والادب والمشابهة في الحظ والحالة ؟ » وختمها بقوله : « إن من وراء حدودنا – يا قوم – آداباً لا تقل عن آدابنا يحسن أن تعرف ، وشعوباً تتصل بأنسابنا يجب أن تؤلف ، وأسواقاً تفتقر إلى انتاجنا ينبغي أن تكشف ، أما النظر في حدود البحر فادمان يفرق البصر ويجمع الخطر وينجم بقوميتنا وأمانينا على الغرق .. » .

حديقة النادي العسكري

كان الزيات يسكن في السنة الأولى من حياته في العراق ، السنة الدراسية ١٩٢٩ - ١٩٣٠ في بيت قرب دار جريدة الزمان الكائن بمحلة الميدان ، اختارها لقربها من المدرسة التي اتخذت معهداً للمعلمين العالية ، فكان إذا وجد متسعاً من وقته عرج على حديقة النادي العسكري ، يغشاها عند الصباح الباكر ، يجتلي محاسنها ويتنسم عبير أزهارها ، ويتبرد بأفياء أشجارها فكان لمجتلاها الساحر أثر فعال في إبداع ذلك الوصف البارع الذي دبجه قلمه البليغ في وصف تلك (الحديقة) ، قال :

كان ألذ ما أتذوقه من جمال بغداد وقفة في حديقة (النادي العسكري) كل صباح ، فكنت تراني أحرص عليها حرص العابد المتحنث على أداء صلاته ، أو العاشق المتوجّد على لقاء فتاته . كنت أغشى كل يوم هذا المجتلى الساحر في رونق الضحى أو في متوع النهار ، فأجد الشمس قد لألأت ذوائب النخل وغوارب النهر ، وأخذت ترشف بأشعتها الظلال النديّة من خلال الشجر ، وبنات الهديل [1] يبحثن كمادتهن في عساليج [2] التين

(١) بنات الهديل : كناية عن الحمام .

(٢) العساليج : جمع عسلوج ، وهو ما لان واخضر من أغصان الشجر .

وأغصان التوت بأرجلهن ومناقيرهن ، وهن يرجّعن على التعاقب ألحان الخريف . وأرى الحديقة مطلولة النبات منضورة الزهر ، تتنفس بالفاغية [١] تنفس الطفل الحالم ، فأشعر بالسكون مرهوب الجلال ، أنيسَ الوحشة ، يعمق ثم يعمق حتى تكاد تسمع بأرضِ [٢] النبات وهو ينبت ، وأجد النادي خلواً من أهله ، فلا تجد إلا بستانياً يعمل في صمت، وغلاماً يكنس في هدوء ، وطفلين جميلين يجيئان أحياناً فيجلسان في الشرفة أو يمشيان في الحديقة ، فلولا نشوز خادمها الكهل ، ومنظر هندامه الزري الشكل ، لحسبتهما زهرتين من زهورها أو عصفورين من طيورها . فأسير في الروضة متئد الخُطى مرسل النفس مرهف الحس ، تارة بين مماشيها ، وتارة فوق حواشيها ، فأقف عند كل شجرة ، وأحيي كل زهرة ، وأسأل النَّبتة الوليدة بالأمس ما حظها اليوم من سر الحياة ونعمة الوجود؟ ثم أصعد درجة الى الشرفة ، وأنعم ساعة بتلك الوقفة ، أتنسم هواء النهر ملء رئتيّ ، وآخذ جملة المنظر بمجامع عينيّ ، وأي منظر يسحر الطرف ويملك اللب كهذا المنظر الفاتن ؟ الحديقة من ورائي تضوع بالنسيم الأريج ، وتروق بالرواء البهيج ، وتروع بالسكون الملهم ، ودجلة الخالد من أمامي تتجاوب أصداء الأمم خافتة في لججه ، وتتهادى خفاف القوارب راقصة بين أمواجه ، وأنا بين الشجر والماء ، كالطائر بين الأرض والسماء ، يسبح خاطري في أجواء الماضي القريب والبعيد صاعداً إلى فكرة ، أو هابطاً على ذكرة ، أو حائماً حول منظر كهذا المنظر ، تدفق به قلب في قلب ، وامتزجت فيه نفس بنفس ، وتجمعت الاحلام والاماني كلها فوق رقعة صغيرة من أرضه ، وتحت سرحة فينانة من روضه . لا تظننّ هذه الحديقة فيحاء ، قد تأنقت فيها يد الطبيعة وتألق بها فن

---

(١) الفاغية : كل زهر له رائحة .

(٢) بأرض النبت : أوله .

الانسان ، انما هي مربّع من الأرض على قدر ما يتسع له فِناء كبير في منزل فخم ، يشقها ممشيان معروشان قد تعارضا على شكل صليب ، فقسماها الى أربعة أقسام سواء ، وفي هذه الأقسام وما ألحق بها قام دوح السرو ، وبسق سرح الكافور ، وانتظمت على جوانب مماشيها أشجار النارنج ، وانتثرت على معظم أرضها ألوان قليلة من النوّر الجميل والورد العطر ، فسماؤها — كما ترى — للشجر ، وأرضها للزهر ، وجوها للعطر ، وهي كلها لنوع من الجاذبية يجعلها على بساطتها فتنة الفنان وجنة المفكر .

ليت شعري ، ما مصدر هذا السحر الذي يشع في عيني ، ويشيع في نفسي كلما دخلت هذا المكان ؟ أهو ذاك البناء المتآكل الذي يقوم في جنوبيه كأنه المعقل البالي أو الدير المهجور ؟ أم هو ذلك المزيج العجيب من جلال القدم في المكان ، وجمال الطبيعة في البستان ، وعظمة الحياة الماثلة في النهر ؟

ليس للروح العسكري في هذا المكان الشعري مظهر ولا أثر ، فما تعهده من الخشونة في الثكنات ، والعنف في الحركات ، والقسوة في النظرات والكلمات ، يحول هنا إلى ذوق فنان ، ورقة شاعر ، وهدوء فيلسوف .

كادت هذه الخواطر الجريئة الملحة تذهلني عن حديقتي ، واليوم عيد من أعياد الطبيعة ، برزت فيه عارية من الحلل ، غانية عن الحلى . والخريف في العراق هو الربيع احترقت غلائله الوردية في لظى تموز ، فهو على تجرد أرضه من الأنوار والأزهار ، وتحجب سمائه أحياناً بالغيوم وأحياناً بالغبار ، جميل البسمات ، عليل النسمات ، رفاف الأديم . فها نحن أولاء بين أعقاب الخريف وطلائع الشتاء ، والشمس لا تزال في ثغر السماء ابتسامة حلوة ، تضاحك النهر الحبيب ، فتزيده طلاقة ، وتداعب الزهر الكئيب ، فتكسبه

أناقة ، وتطالع الجو المقرور ، فتقبسه حرارة ، وتصارع برد الموت في أوراق النارنج وأطراف التوت ، فتطيل بقاءها فترة أخرى من الزمن . وهذه اليمامات السوامع ما زلن يأوين إلى أعالي الشجر ، ويمرحن في الضوء ، وينعمن بالدفء ، ويهتفن بالأهازيج كأنهن في أمنة من حلول يناير ، وهو منهن على ليال قلائل . وهذا دجلة السعيد يتنفس موجه بالنعيم ، ويطفح غرينه بالذهب ويقذف تياره بالغثاء والزبد ، بعد ما بخّره القيظ فنشّ حتى انكشف ضميره ، وانقطع خريره ، وكاد يزحف الشبّوط والزورق فيه على القاع ، فالبواخر تصعد صافرات في سرعة ، والأطواف[1] تنحدر صامتات في بطء ، والقفف تعبر موقرات في هوادة ، وقوارب الصيادين وزوارق الملاحين تتعارض وتتهادى في عباب النهر كأنها الخواطر الحائرة في الفكر العميق ، والطيور الصائدة تحوم على وجه الماء بأجنحتها الشهب حومان الآمال على ستر الغيب الصفيق ، والبجعة[2] الملكية تطعن في صدور الموج بمنقارها الطويل العريض ، وهي تسبح آمنة في حمى البيت العتيق ، وأنفاس دجلة اللاهث من عبء القرون تتصاعد إليّ حاملة أنين الأمواج وخفق المجاذيف وغماغم الكرخ ، فتختلط بتجاوب اليمام على الشجر ، وتناوح الرياح بين الغصون ، وحشرجة الأوراق الذاوية على الأرض ، فتتألف من هذه الأصوات الخافتة موسيقى روحية شجية ، تبعث رواقد الأحلام ، وتثير كوامن الآلام ، وتقطع بين النفس ووجودها الحاضر .

---

(١) الأطواف : جمع طوف وهو الرمث وجمعه أرماث ، وهو ما يعرف بالكلك . والقفة : نوع من السفن العراقية الأثرية مدورة ومقعرة يرجع تاريخها الى عهد الكلدان مطلية بالقار .

(٢) البجعة كانت تعيش في قصر الملك فيصل الذي يقابل النادي العسكري ويقع على النهر ، ثم اتخذ مجلساً للنواب والأعيان ، ومن قبل كان مدرسة للصنائع في العهد العثماني ، وأصبح اليوم مقراً للأشغال العسكرية .

إيه يا دجلة ُ يا سجلّ الأمم وراوية العصور ، لشدّ ما فنيت في خريرك ضحكات ، وامتزجت بنميرك دموع ، وخفيت في ضميرك أسرار ! لقد رأيتك بالأمس ضارعاً قد لصق خدك بالأرض حتى همّ بخوضك الخائض ، وهمدت حياتك حتى أوشك أن يسكن عرقها النابض ، ثم رأيتك اليوم وقد غاثك الغيث ، فجاشت ينابيعك الثرة بالنماء والثراء والقوة ، ثم أقبلت كدأبك منذ آلاف السنين ُمدوّيَ الدارات ، صخاب اللج ، تعرض هذا النعيم ملحاً على بنيك ، فيعرضون عنه إعراض البطر ، ويؤثرون على فيضك الميمون ودق المطر ، ثم يهينون كبرياءك يا أبا الحضارات ، فيجعلون مبلغ همك حمل الأرماث ونقل القفف ، فهل يعجبون إذا فار غضبك فجرفت السدود وجاوزت الحدود وأصبتهم بالغرق ؟

ومن كتابه المفقود

فيصل الاول :

كان الملك فيصل الأول حركة دائبة ، ووطنية متوثبة ، ونشاطاً متواصلا ، وسعياً مدعوماً بالتفكير والتعقل ، وكان قلبه يجيش بالحياة ، ويعمر بالآمال ، وكانت نفسه تتطلع إلى معالي الأمور برغم عوائق الاستعمار ، وبوائق الانكليز .

جاء إلى العراق برغبة من أهله ، وبطلب من زعمائه ، وسعي من أصدقائه الانكليز الذين أرادوا أن يكفروا عن خيانتهم له ، وتنصلهم مما وقع من حلفائهم الفرنسيين ، وإخراجهم اياه من سوريا ، بعد أن أسس ملكاً كان معقد الرجاء وموضع الآمال العربية .

فاستقبل يوم مقدمه بالابتهاج والأفراح ، واحتفل بشخصه الوطنيون ، وما أحسب يوماً عرفت نفوس البغداديين كيوم وصول فيصل ، لأن العراقيين رأوا فيه معقد الآمال ، في تحقيق الاستقلال .

رأيت بعيني فرحة العراقيين وأنا منهم – وكنا طلاب دار المعلمين – نحف بسيارته ، والجماهير كتل متراصة كالموج خلف سيارته وأمامها وعن يمينها وشمالها فلا تكاد تحبو متراً أو تقطع ذراعاً إلا بصعوبة .

والبشر يعلو الوجوه ، « والهوسات » تدوي في الفضاء ، وزغاريد النساء تستقبله من شرفات المباني وأعالي السطوح .

ورأيت العراقيين يبكون فيصلا ، ومواكب البغداديين تملأ الشوارع والطرقات والساحات . يلطمون صدورهم على فيصل ، لأنهم فقدوه يوم تلاطمت المحن وتألب على العراق الخصوم [١] ولأن بفقده ضاعت آمال ، وتبددت جهود ، وخابت مساعٍ ، وخيف على السفينة أن تتقاذفها الأمواج من كل مكان ، بعد أن فقدت ربانها القدير .

فكتب الزيات مقاله الأسبوعي في ١٠ أيلول سنة ١٩٣٣ بعد ثلاثة أيام من وفاة الملك فيصل ، فقد كانت وفاته في « برن » من الجمهورية السويسرية ليلة السابع من أيلول . قال الزيات من ذلك المقال :

« فلما نعاه البرق الى الآفاق ، فزع الناس إلى الشك ، يدفعون به هول الخطب ، ويرجّم بعضهم بالظنون ، يعللون به بغتة الحادث ، وتعذر على العقل أن يفهم الموت مقروناً الى فيصل « صقر قريش » ، وقد كان الى أمس يقطع بعزمه الجبار أجواء الشرق والغرب حاملاً في يمناه العراق ، وفي يسراه سورية ، وفي قلبه « دولة العرب » ، ثم انجلى الشك وانجابت الظنون ، فاذا العراق ، واذا سورية ، واذا العرب أمام الفاجعة التي روّعت النفوس ، وضرّمت الأنفاس ، وقوضت حصون الرمل ...

لم يجزع العرب حين نعى الناعي اليهم فيصلاً على نفس كسائر النفوس تغوص في لجج العدم ، وانما جزعوا هذا الجزع الهالع على آمال أمة ،

---

(١) كان العراق قد خرج لتوه من قمع ثورة الآشوريين ، وكانت المحافل السياسية الغربية وصحافتها قد تألبت على العراق ، وراحت تندد بنا وبجيشنا ، وترمينا بالهمجية والتوحش ، وتتهمنا بالتعصب . وكان فيصل يشجب هذه المفتريات ، ويفند أقوال الصحافة . في هذا الظرف العصيب ، وقف القلب النابض ..

وجهود نهضة ، ومستقبل فكرة ، لأن ملك العراق كان مناط هذه الآمال ، ومبعث هذه الجهود ، وعدة هذا المستقبل ...

ومن العجب أن يكون مصدر هذا الجزع كثرة الزعماء الأكفاء ، لا قلتهم ، فإن هذه الكثرة كانت دائماً وبالاً على وحدة العرب ، إذا لم يقم على رأسها زعيم يعتمد في قيادتها على سلطان الدين وشرف النسب ، وقد اجتمع الملك فيصل مع هاتين القوتين ، عقل كيس ، وخلق نبيل ، ونفس طموح ، وجاذبية قوية ، فلا جرم كان رجل الساعة لهذه الأمة الناهضة ، يجمع كلمتها حول رأيه ، ويوحد وجهتها وراء خطاه » .

وقال :

« عرفت جلالة ملك العراق ، أثناء مقامي ببغداد ، معرفة وثوق وخبرة ، وكانت حال البلاد في ذلك الحين محنة ابتليت بها كفاية الملك النابغ ، فالانتداب البريطاني كان قبل الملكية يعمل في العلن ، ويحمل التبعية ، فأصبح بعدها يعمل في السر ولا تبعة عليه . والحكومة العراقية كانت يومئذ بادية البلى ممزقة الجوانب ، لا تستطيع بخروقها أن تستر العرش ، فالملك بحكم الوضع كان يستر الانكليز ، ولكن الوزارة بحكم الضعف كانت تكشفه ، فكانت أوزار أولئك وأخطاء هؤلاء تحمل في رأي المعارضة والشعب على الملك ، وكانت الحاشية بعبثها تنفض ظالمة على جدّ البلاط ووقاره شيئاً من العبث ، والشعب العراقي على اختلاف منازعه وعقائده وأجناسه ناقد متمرد طموح ، لا يصبر على نقص ، ولا يغفل عن خطأ .. فقدّر في نفسك كيف كان مصير الملك لو كان غير فيصل (١) .

---

(١) كان العراقيون يتهمون فيصلاً أنه يمالئ الانكليز ، ويضلع في ركابهم ، وينفذ سياستهم. وعميد الانكليز يتهم فيصلاً بأنه يمالئ المعارضة ، ويدفعها للمطالبة ، ويحرك الشعب عليهم ..

اضطلع الملك فيصل وحده بأعباء الملك والحكم والزعامة ، في هذه الحال المضطربة ، فكفكف بحكمته من شرة الانتداب ، وخفف بحنكته من عسف الوزارة ، ولطف بحلمه من غضب الشعب ، وصرّف من شؤون الدولة على قدر ما يسلم الرأي الحصيف من خبث الاستشارة ، وضعف الوزارة ، ثم سهّل حجابه لأمراء العشائر ورؤساء الطوائف وزعماء الأحزاب ، فاستل ما في صدورهم بالقول اللين والعتاب الهين والشخصية الجذابة ، حتى كان الرجل منهم يدخل قصره وهو عليه ، فلا يخرج منه إلا وهو له . ثم نظر إلى خارج العراق فرأى على حدوده دولاً يتنزى في صدورها حقد الماضي ، وطمع الحاضر . فزار تركيا وفرنسا وإيران ، فأحال عداءها صداقة ، وجفاءها مودة . ثم اجتمع بملك الحجاز ، وأوفد إلى امام اليمن ، فأحكم أواخيّ المودة بينهما وبينه . ثم هداه تفكيره العملي المرن أن يعالج الانتداب البريطاني بالمصانعة والموادعة حتى انتهى به إلى نوع من الاستقلال يحفظ الكرامة ويعين على النهوض .

دخل الملك فيصل العراق دخول الإمام الحسين ، لا مال أمامه ولا جند خلفه ، ولكن الحسين جرى على سياسة عليّ فهلك ، وجرى فيصل على سياسة معاوية فملك . ثم اعتمد في تأثيل ملكه وإنهاض شعبه على الإخلاص العامل ، والجد النزيه ، وتحامل في ذلك على دمه وعصبه وروحه ، حتى ذهب فيصل شهيد الواجب ، كما ذهب الحسين شهيد الحق.

كان الملك فيصل ملكاً من طراز خاص ، ولعله كان أقرب إلى خلفاء الصدر الأول منه إلى ملوك اليوم : كان ناصع الظرف ، جم التواضع ، رحب الأناة ، طاهر الموادعة ، زاهداً في أبهة الملك ، عازفاً عن مظاهر السلطان ، فلا يخدج بتحية ، ولا يمشي في حرس ، ولا يتشدد في حجاب».

وفي صباح أحد الأيام غدا على المدرسة المأمونية الابتدائية ، فقضى ردحاً من الزمن فيها ، ثم سجل اسمه في ثبت مدرسيها[1] .

« كان الملك فيصل في العراق ملك دولة ، ورئيس حكومة وزعيم أمـة . وهو في الاقطار العربية مؤسس نهضة وممثل فكرة ، ورسول وحدة ، وداعية سلام ، ومعقد أمل . فإذا هفت النفوس جزعاً لفقده ، واستولى على العرب الوجوم والحيرة من بعده ، فإن في منطق الحوادث وطبيعة الأمور ما يسوغ هذا الجزع ، ويعلل هذه الحيرة .

« وكان من أجمـل مظاهر ديمقراطيته الأصيلة ، أن تراه في شارع الرشيد أو في طريق الصالحية ، يقود سيارته بيـده ، ويشق طريقه بنفسه ، دون ربيئة من خلفه ، ولا طليعة بين يديه ، فيسبقه أي سابق ، ويزاحمه أي سائق ، وقد تبكر ذات صباح الى مدرستك ، أو ديوانك ، فتراه في ذرور الشمس قد طلع عليك بوجهه المسنون ، وقده السمهري الممشوق ، ورشاقته الرياضية البارعة ، فيسلم عليك ، ويتحدث اليك ، ثم يتعهد المكان ، ويعرف العمل ، ويودعك بابتسامته الرقيقة ، وملحوظته الدقيقة .

دعا مرة مؤتمر المعلمين العراقيين ، إلى الشاي في حديقة قصره ، فكان يجلس الى كل منضـدة من المناضد الكثيرة جلسة يفاكـه أهلهـا بحلو الحديث ، ويناقشهم في وجوه الاصلاح ، ثم خطبهـم في شؤون التعلـيم خطبة جامعة ، تمنى في سياقها أن يكون معلماً مع المعلمين يؤدي إلى الأمة

---

(١) كانت تشغل مبنى مدرسة الاتحاد والترقي وقد ازيل بناؤها واصبح ساحـة لموقف السيارات جنب مبنى ادارة اسالة الماء العامة .

هذا الواجب المقدس[1] .

حكى الأستاذ الكبير ساطع الحصري أن وفد الأساتذة المصريين أخذهم العجب وأذهلتهم الدهشة لديمقراطية الملك فيصل يوم دعاهم إلى مائدة الإفطار ، وكان الوفد الجامعي يرأسه أحمد أمين ويصحبه السنهوري والعبادي ، وظلوا أياماً يتحدثون عن ظرفه وتواضعه ورحابة صدره وسعة اطلاعه ، ويقارنون بين ما عندهم في بلاط مصر من الحجاب الكثيف ، والتعالي على الخاصة بَلْهَ العامة ، وكان قد شهد هذا الإفطار الأستاذ ساطع والزيات وبعض أدباء بغداد .

الزيات بصحبة الملك علي

كان الأستاذ الزيات كثير الاصدقاء ، له من وقته الموسع ، وتخففه من واجبات البيت والعائلة ما يفسح له المجال لهذه الزيارات التي يقوم بها في أماسي الأيام وضحوات الجمعة ، فتراه في الصابونجية في زيارة الزهاوي ، وبصحبة الشاعر وبعربته يغدو إلى ندوة الجمعة في بيت الدفتري ، ويغشى جريدة البلاد يقضي بعض الوقت مع مديرها رفائيل بطي الصحفي الأديب ، ويزور نادي المعلمين ويصحب الاستاذ مصطفى علي في زيارة الرصافي ، ويحضر في أصائل الأيام مجلس الملك علي بن الحسين الذي له دوق أدبي مرهف . فإذا عاد إلى غرفته في بيت شَفْتُو ، سجل صوراً من تلك اللقاءات ، ورسم خطوطاً جلية من ملامحهم بقلمه الفنان ، فيعرض قسماتهم بارزة ، ويصور صفاتهم واضحة ، من ذلك ما كتبه في الملك علي .

قال : —

« كان رضوان الله عليه — مثال الفطرة العربية النقية ، يقبل على

---

(١) كان ذلك بعد مؤتمر عام ، وكنت قد حضرت هذه المأدبة السخية ، واستمعت الى خطابه الارتجالي الذي ألهب نفوس المعلمين وطنية ، وأشاع في نفوسهم الرضى عن حرفتهم .

زائره بأنسه ، ويمكن لجليسه من نفسه ، ويزيل الفوارق بين محدثه وبين شخصه ، حتى يصدر عنه الوارد عليه ، وفي ذهنه صورة من جلاله لا تحول ، وفي قلبه عاطفة من حبه لا تزول ، وفي نفسه أثر من ذاته لا يعفو .

لا يلقي في روعك حين تلقاه طموح الزعيم ، ولا جفاء القائد ، ولا دهاء السياسي ، ولا سورة الملك ، وانما تجد في خلائقه فوحة المجد ، وتقرأ في ملامحه عنوان الطيبة ، وتعرف في حديثه لهجة السيادة ، وتذكر في نبرات صوته ولحظات عينه ولفتات ذهنه ، ذلك الروح القوي الذي أنبث في موات الوجود من بني هاشم » .

وقارن بينه وبين أخيه فيصل فأعطى كلّ واحد منهما صورة صادقة . قال :

« حكم فيصل في شروق ملك عائد ، فكان عزمة لا تسعها قدرة ، وفكرة لا يحصرها أفق ، وطموحاً لا تحده غاية . ولأن علياً حكم في غروب ملك بائد ، فكان أمراً لا يمضيه سلاح ، وأملا لا ينهضه جناح وصلاحاً لا تواتيه فرصة . ثم كان مصير الرجلين مصير ُخلقين مختلفين ، خلق اتسع لخدع السياسة ، وُشبه الحكم ، وأهواء النفوس .. وخلق انحصر بين حدود الشرف الموروث ، وسنن الدين المتبع ، وتقاليد العرب المحتومة . وكان قصره القائم بالكرادة على الشاطىء الأيمن من دجلة بلاطاً للجلالة الحائرة بين الحجاز والعراق وسورية ، ُتقضى بين أبهائه الأمور الجسام ، وترف على أفنائه ، الآمال الباسمة ، ولكنّ حياة بغداد الدافقة بالنعيم الغارقة في اللذة ، لم تستطع أن تنسي الملك الحزين عرشه الصخري في الوادي الجديب ، فكان لا يفتأ يحن إلى ملكه المغصوب حنيناً شعرياً صامتاً يذيب الكلى ، ويستوقد الجوانح ، إلا أن أثره كان لا يبين تحت سمة الملك إلا لمن دخل في أمره ووقف على سره .

« كنت كثيراً ما أقضي أصائل الأيام في حضرته ، وكان مفتي[1] بغداد يومئذ لا ينقطع عن مجلسه . وكان الملك – رحمه الله – عطف عليّ منشوء فيما أظن حبه للأدب ، وميله إلى مصر ، وأنسه بالغريب . فهو يحب أن يناقلني الحديث ، ولكن المفتي سامحه الله رجل يرى من حقه أن يقول في كل شيء ، وأن يجيب عن كل شيء ، وهو لا ينطق إلا ببيت من الشعر أو أثر من الحديث أو آية من القرآن . أما ارتباط ما يقول بما يسمع ، فذلك ما كنا نعجز دائماً عن فهمه . كان الملك يبدأ الكلام ، فلا يكاد يمضي فيه حتى يقطعه المفتي بحكاية عرضية ، أو مسألة فقهية . فأرفع طرفي إلى الملك لعلي أرى عزة الملك تشع في عينيه ، أو تثور في وجهه ، فلا أجده إلا باسماً للمتكلم ، صاغياً كالمتعلم ، هادئاً كالشعاع الشاحب في شفق الخريف . على أنه كان يصحح ما يقمش الشيخ من الشعر ، وينتف من الأمثال ، ويتخذ ذلك مادة للحديث ، وموضوعاً للمشاركة فيسفر قوله عن ذوقٍ صاف وبصيرة نافذة » .

رستم حيدر :

وكتب في رستم حيدر ، الذي كان من أساطين الفكر ودهاقين السياسة في العراق ، ومن رجال الجد والعمل . رافق فيصل الأول يوم تولى أمر العراق ، ودبّر ماليته ، ووزر في الوزارات العراقية أغلبها .

---

(١) المفتي المقصود الشيخ يوسف العطا كبير فقهاء بغداد وخير من كان يدرس المجلة في كلية الحقوق ، أصابه في أيامه الأخيرة مرض عقل لسانه ، كان يجلس إلى الشيخ ابراهيم الراوي كل أمسية يقرأ له على ماء فيبل به فمه ، فاذا صادف أن حضرت طلب إلي أن أقرأ له في كتاب أو مجلة أو ديوان شعر . وكان ديوان الراوي يزدحم بالزائرين رحمهما الله ورحم أيامهما ، كانت مطمئنة والناس فيها في بلهنية من العيش الهني .

وكان يتصرف عن فكر ثاقب ، ويعمل بجزم دائب ، ولكن السياسة مع النفوذ الأجنبي غول ، ومع الشعب الناشىء خطر على صاحبها ، ومع الحاشية الطامعة صاحبها يقف على فم البركان . فراح رستم ضحيـــة الجهل والطمع والتعصب . وصفه الزيات بحذر ، وعرض جمـلة خبره باقتضاب ، فقال :

« رحم الله رستم حيدر ، لقد كان وحـده فصلاً في تاريخ العراق الحديث ، وإذا كان في بعض حواشي الملوك رجـــال للهو والزهو ، وآخرون للتجسس والتمويه ، فإن رستم حيدر كان في حاشية الملك فيصل رجل الجد والعمل . ولم أرَ في المهاجرين إلى بغداد مـع صقر قريش أعلم ولا أفهم من رستم حيـــدر وساطع الحصري . وقد أبلى الرجلان في اذكاء النهضة العراقية البلاءَ الحسن ، هذا في ميدان الثقافة ، وذاك في ميدان السياسة . وكان بينهما مشابه من جهات كثيرة ، فكلاهما مستقل الفكر له في كل مسألة رأي ، وعلى كل رأي اعتراض ، وكلاهما متقن للعمل يتقصّى أطرافه ، ويستبطن دخائله ، وكلاهما صلب الرأي ، يعييك أن يتابعك على ما تريد . وإذا كان بين الرجلين اختلاف ، فهو الاختلاف الطبيعي بين رجل السياسة الذي يتأثر بالأحوال والرجـــال والحوادث ، وبين رجل العلم الذي لا يستخدم غير المنطق ، ولا يتوخى غير الحقيقة .

كان المرحوم رستم حيدر ، ظاهر الوقار ، دائم الانقباض ، كثير الصمت ، خافض الصوت ، هـادىء الحركة ، ولكن هدوءه كهدوء الماء العميق ، تضطرب في جوانبه الأفكار والأسرار ، وهـو ساكن السطح بارد الأديم .

وكان منـذ اشتغاله بشؤون العراق مستشار المغفور له الملك فيصل

في سياسته الداخلية والخارجية ، ابصره بعلوم السياسة والمال ، وعلمه بدخائل الأمور ومخارج الحيل . فكانت أعمال العاهل العظيم تجد مصاديقها غالباً في أقوال المستشار اليقظ .

كان من سياسة رستم الاعتماد بعد « التاميز » على الفرات قبل دجلة ، لأن الفرات شيعي المذهب ، على ضفافه الخصيبة تنزل القبائل البدوية القوية ، وفي تقويه بالشيعة حيطة من نجد ومودة لإيران . وكان يشيح بوجهه عن مصر لأن هواها في ثورة الحسين على الترك كان مع الخلافة ، ولأن اشتغال طلبتها بالسياسة كان في رأيه مرضاً مخطراً لا ينبغي أن تسري عدواه إلى العراق . ولعله السياسي العراقي الوحيد الذي يهتم بأحوال مصر ولا يتصل برجال مصر . وكان من رأيه توسيع التعليم الأولي والمهني ، وتضييق التعليم الثانوي ، وحصر التعليم العالي في مدرسة لتخريج الموظفين ورجال الادارة ، خشاة أن يكثر المتعلمون المتعطلون فيكونوا مصدراً للشغب والإضراب والفوضى . وفي ذلك العهد الذي أرجع بذاكرتي اليه أغلقت المدارس العالية جمعاء ، إلا مدرسة الطب . وكان من أشد المعارضين لهذه السياسة التعليمية الأستاذ ساطع الحصري ، لأنه كان يحاول أن ينشىء الثقافة العامة على قواعد العلم الخالص ، دون أن يحفل بأحوال الطوائف وأغراض السياسة ، ولذلك نحّي حينئذ عن سياسة المعارف ..

وكان من خطة المرحوم رستم أن تظل الأراضي الزراعية ملكاً للحكومة ، لتضمن بمنح اللزمة ، ومنعها طاعة القبائل وتأديب العصاة . ومتى تحضرت العشائر ، وتوحد القانون ، وعمت المدنية الاجتماعية ، أمكن أن توزع ملكية الارض على نظام عادل .

لقد كان رستم حيدر عنيداً في رأيه ، صليباً في خطته .

والعناد والصلابة صفتان لا تحسنان فيمن يتولى أمر العراق .

دخلت عليه ذات يوم من عام ١٩٣٢ وهو وزير مالية ، أسأله أن يرد على صديقي حسن السهيل أمير بني تميم مـــا أخذته الحكومة من أراضيه الملتزمة ، وهو يبلغ خمسة عشر ألف فدان ، فأجلسني إلى جانبه من يسار المكتب الذي سُفك عليه دمه من أيام ، ثم أخذ يقنعني بالحجج والشواهد أن الحكومة محقـة وأن الشيخ مبطل ، ثم عزا المصادرة إلى أمور تتعلق كلها بسلامة العشيرة ، واقامة العـدل ، ولم ير نفسه في حاجة إلى ذكر السبب الأول ، وهو أن سيد تميم عضو قوي في حزب المعارضة . فأدهشتني جرأة الوزير ، وأعجبتني لباقته ، وعجبت كيف يصر على مناوأة الشيخ ، وفي سبيل خمسة عشر ألف فـدان تخشى الخصومة ، ولكنه نجا من مناوأة الأمير ، لأن الأمير طالب مجد ، ولم ينج من مناوأة الموظف ، لأن الموظف طالب قوت » .

قلت لنفسي :

بهـذا العنوان كتب الزيات عن رئيس من رؤوس العراق (أحسبه طه الهاشمي) يحدث نفسه عن أمر النـاس في عصرنا ، ويعجب من أثرتهم وأنانيتهم ، وأنهم أصبحوا لا يكاد أحدهم يعطف على آخر إلاّ للطمع في ماله ، أو الخوف من سلطانه ، أو الرغبة في نفوذه . أمـا تعاطف الجنس للجنس ، وتراحم الرحم للقرابة ، وابتهاج النفس لعمل الخير ، واهتزازها بأنس الصديق ، فقد أصبحت من الصفات الأثرية . والحقيقة أن الناس هم الناس من عهد آدم إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها لا تبديـل لخلق الله . المصلحة هي التي تحركهم ، والرهبة والرغبة همـا اللتان تسيطران على تصرفات الانسان ، إلا في ما ندر ، ولا حكم على النادر .

والشكوى من بني آدم قديمة : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟) الناس مع الزمان ، يقبلون متى أقبل على أحدهم ، ويدبرون متى أدبر عنه . جاء في مقالته :

« كان ذلك والزمـان كـَلِبٌ يجري وراء سيده ، ما دام الرغيف في يده ، أما اليوم فالزمان حر مفكر لا يتبع إلاّ المبدأ ولا يطيع إلاّ الضمير .

ولكن الواقع وا أسفاه علّمنا أن الزمان لا يزال كَلِباً ، وأن المال لا يزال ربا ، وأن حكمة الأولين لا تزال صادقة .

لي صديق من رؤوس العراق المرفوعة بالفضل والنبل والكفاية ، كان وهو في سلطان السيف وعزة القلم مرجع الرأي والهوى والحاجة ، فلما نكبته في نفسه وأهله السياسةُ العشواء الجموح ، تجرد كالسيف ، وتفرد كالأسد ، وأصبح فإذا الوجوه أقفاء ، والأنصار أعداء ، والأحياء في دنياه موتى ، فلا رأس ينحني ، ولا لسان يحيّ ، ولا يد تصافح . وظل وحده ، يعالج مرارة الحزن والحرمان والغربة ، حتى صحا الدهر من غفوته ، ونهض الحظ من كبوته ، فعاد إلى الوزارة ، وعاد الناس إلى الزيارة ، وقال الوجه العبوس وقال الوجه الذي عبس وأشاح ، واللسان الذي ذم ونمّ : والله يا مولانا لا يعدل حزننـا لغيبتك إلا فرحنا بأوبتك ، ثم انعكست الصفات في الصحف ، فصارت الخيانـة أمانة ، والبلادة زكانة ، والعقوبة شهادة »

الملك غازي :

وكتب في مقتـل الملك غازي كلمته الافتتاحية الأسبوعية لمجـلة الرسالة وهي تشف عن ألم صادق ، ومواساة محزون ، لِما كان ينطوي

عليه قلبه من الحب للعراق ولكل من يحب العراق . وغازي كان محبوب العراق ، وهو بعد هـذا وذاك في فوران الصبا وزهرة العمر ، ربي تربية وطنية ، ونشّىء تنشئة بغدادية ، وهذب تهذيباً اسلامياً عربياً ، وأشرب قلبـه بغض الاستعمار . لذلك كان مهوى قلوب العراقيين ، ومعقد رجـاء العرب . كان طموحه هو الذي أورده موارد الحتف ، وإذاعته الخاصة التي يبثها بنفسه هي التي أدخلت حبه إلى كل بيت . فحين نعاه الناعي إلى الشعب العراقي كانت الفجيعة وكأنها قد حلت في قلب كل أم وأب ، وكأن الفقيد أحد أفرادها ، وقامت المظاهرات في كل ربوع العراق ، يندبون — غـازي — ويبكون الصديق الذي بيت اغتياله بليل ، وهاجم المتظاهرون دوائر الاستعمار ، واتهموا الانكليز وعملاءه بتدبير مقتـله ، ولم يصدقوا أنه مات قضاء وقدراً باصطدام سيارته بعمود البرق ، وأختفى العبد الذي كان خلفه ، ولم يعثر له على خبر ، واتهموا عبد الآله بالمؤامرة .

قال الزيات :

« عرفت خليفة فيصل وهو ولي عهده ، ولم أنل شرف لقائه وهو ملك ، لأنني تركت العراق وأبوه لا يزال على عرش الرشيـد ، يدبر الامر بذكاء « علي » ودهاء معاوية . وكانت جلساتنا الليلية في حديقة البلاط المزهرة المقمرة ، حيناً في حضرة الملك وحيناً في حضرة خاله ، تكشف لي قليلاً قليلا عن مصاير هذه النفس الرغيبة الطيّعة التي نبتت في هجير مكة ، وأزهرت فى ظلال بغداد ، فكنت لا أنفكُّ منها أمام طبيعتين : طبيعة تتأثر بحاشيته فتسامح وتساير وتمرح ، وطبيعة تتأثر بأبيه فتصعب وتسمو وتطمح ، ولكن المقرر في الاذهان كان أن الشبل سينتهي بالضرورة إلى طبيعـة الأسد مهما يؤثر فيه طبع الناس وينـل منه قفص الحديقة .

قلّ في الشباب من كان كغازي في سماحة نفسه ، وسماحة خلقه ، ونبل شعوره ، وسمو تواضعه ، وظرف شمائله . وتلك هي الصفات الهاشمية التي تنتقل في بني الحسين بالإرث ، وتقوى إذا ساعدتها القدوة ، وساعفتها البيئة . ولكن ما ورثه هو عن أبيه – صقر قريش – من الجناح الرفّاف ، والبصر النفاذ ، واللب الحصيف ، كان يتيقظ رويداً رويداً مع الزمن والخبرة . فلم يكن بعد قد توثقت آرابه للاضطلاع بالعبء الفادح الذي ألقي على ظهره فجأة . والعبء الذي كان يحمله فيصل من أمور العراق ، هو العبء الذي قسمه الدستور على سلطات الدولة الثلاث ، فجمعه هو على عاتقه . من أجل ذلك لم يضع غازي يده من سياسة العراق العليا موضع يد أبيه للتعديل والموازنة ، وانما تركها في أيدي الزعماء تجري سفينتها على مشيئة الريح ، تضطرب حين تثور ، وتستقر حين تسكن .

من أجل ذلك امتحن الله الفراتين بالقوة الغشوم ، فحكم الجيش ، واستبد الطيش[1] ، واضطرب العيش ، وسطت الأيدي المجرمة على عباقرة الأمة . ومن أجل ذلك لا نتوقع لسياسة العراق بعد غازي ما توقعه لها الناس بعد فيصل . والغالب في الظن أنها ستجري في عهد فيصل الثاني

---

(١) يشير الزيات الى انقلاب بكر صدقي ، وما أعقبه من مقتل جعفر العسكري وزير الدفاع الذي كان يسمى أبا الجيش وله مكانة في جميع الأوساط العراقية والأجنبية ، لما يتمتع به من وطنية ، وطيبة وانسانية ، ومحبة لعمل الخير ، ولو أنه بقي في بيته أو في مقر الدفاع لما أصابه مكروه ، وربما استوزر في وزارة حكمة سليمان لما يربط بينه وبين بكر صدقي من وشائج وصلات ، ولما كان بينه وبين حكمة من صداقة ، ولكن قضاء الله غلب ... وأراد بعباقرة الأمة – يسن الهاشمي ورشيد عالي ونوري السعيد وطه الهاشمي وأمثالهم وما أعقب ذلك من الاعتداءات والاغتيالات . وأشدها خطراً هو زج الجيش في السياسة لأول مرة ، فراحت البلاد تتخبط من سيء الى أسوأ ، وتسابق المغامرون والطامعون باسم الشعب ، والشعب على أيديهم يشقى ويلقى الدواهي عقب كل انقلاب ..

كما كانت تجري في عهد فيصل الأول.

إن مصرع غازي على هذه الصورة الأليمة، فاجعة تدمي العيون، وترمض الجوانح. وإن العالم العربي كله يشاطر العراق الحزين أساه على سيد شبابه ومناط أمله، ولكن الدواهي النُكر صدمات تهز الشعور، وتوقظ الفطنة. فتنبه على قدر ما تذهل، وتوجه على أثر ما تضل. والشعب العراقي من الشعوب الكريمة الحرة التي تصقلها الخطوب، وتلهما الأحداث، فتقف بفطرتها السليمة أمام الخطر هوى واحداً، ورأياً جميعاً، وعزيمة صادقة؛ وسيرى الذين يتحيلون ويتقولون أن ارادته الصارمة الحازمة ستثبت لدواعي الشقاق ونواجم البغي، وستثبت أن عصر فيصل الثاني سيكون عصره الذهبي [1]، فيشتد بنيانه، ويمتد سلطانه، ويتسع عمرانه، وتهب من جوف الهلال الخصيب عبقريات غفت في أحضان الخلود، ولكنها لم تمت».

---

(١) لم يشهد العراق دوراً مضطرباً كدور فيصل وهو طفل غير مسؤول، وانما التبعة تلقى على وصيه عبد الاله ورؤساء الوزارات المتعاقبة، والتطاحن الحزبي وسوء الادارة.

ساس البلاد رجل حقود لدود لئيم ناقم، هو الوصي وولي العهد، فصرف أمور البلاد وفق شهواته ونزواته، وجر العراق الى مصائب وانتفاضات وانقسامات، وانقسم الساسة القدامى الذين عملوا مع فيصل الأول وغازي، وراح يكيد بعضهم بعضاً، وتحزب الناس، واشتدت الطائفية، وتقسمت الى عناصر، بل والى مدن، واصطرع الشعب، ونسوا الاستعمار وكيده والصهيونية واستفحال أمرها، وابتعد العراق بسبب هذه السياسة عن شقيقاته، بل راح يجاهر مصر ورئيسها العداء، ويغري الاستعمار به بدلاً من مد يد العون له، وهو الرائد القائد الذي حرر مصر من الامبريالية وأمم القناة. وعاش العراق ساخطاً متبرماً يتطلع الى ثورة عارمة تبدل أوضاعه وتقلب مفاهيم أولئك الساسة ويتخلص العراق من عبد الاله وزمرته، فكان ذلك صبيحة الرابع عشر من تموز، فقوبلت بالأفراح، وابتهج الشعب بالقادة المحررين، وأمل أن تكون حداً فاصلاً للمآسي والأحزان، وفاتحة خير لعموم الشعب، ولكن وا أسفاه فقد رافقها الانحراف من ختام الشهرين الأولين لحياتها، وشهدنا انقسامات ومصائب واعتقالات ومظالم وفتناً سوداً راح الناس يترحمون معها على الماضي، وما زال الحال، ندعو الله أن يولي أخيارنا، فاذا دعاؤنا يرد علينا فيتسلط أشرارنا وصدق من قال: «كيفما تكونوا يول عليكم».

شباب العراق في مصر :

تحت هذا العنوان كتب الزيات حين زار وفد كلية الحقوق مصر في ٣ مارت ١٩٣٦ جاء فيه :

« قل لأولئك الذين زعموا أن مصر نبت على العروبة ، فقطعت الأسباب الموصولة ، وأيبست الأرحام الندية : تعالوا فانظروا كيف بشّت بالعراق بشاشة الألفة ، ورفّت لبنيه رفيف القرابة ، وأسبلت عليهم إسبالِ الأمومة ، قل لهم : تعالوا واسألوا شباب الفراتين : هل كانوا على ضفاف النيل في أرض غير أرضهم ، وبين قوم غير قومهم ، وفي بيئة غير بيئتهم ؟ » .

لقد كان اقبالهم على محطة القاهرة كأقبال الربيع ، واستقبالهم فيها كاستقبالهم العافية . نزلوا من القطار على أكتاف البهاليل من شباب النيل ، وحلوا في قلوب الميامين من رجال الوادي ، وتلاقت العواطف الظامئة على وردي الإخاء والمودة . ودخل الطلاب العراقيون في غمار الألوف المتهللة ، فتجاذبت الدماء ، وتمازجت القلوب ، وتعاطفت الذكريات ، وتجاوبت الأماني ، وترجمت اللغة ، ثم كانوا طوال الأسبوع المنصرم ، غبطة القاهرة ، وبهجة الأندية ، وحديث الصحف » ..

وقال :

« أزيلوا قائم الحدود ، وجددوا دارس الطريق ، تتلاقَ الوجوه ، وتتعارف الأخوة . واعملوا ما يعمل في العراق رسول الوحدة (يسن[1]) ،

---

(١) يسن الهاشمي : كان رئيس الوزارة العراقية يوم زار الوفد الحقوقي مصر ، وكان من ابرز زعماء العراق صدقاً وكفاية .

وفي مصر أمثال الوزير محمد علي[١] والزعيم «طلعت حرب»، أزيلوا الحدود تجدوا الاتحاد العربي جارفاً كدعوة «محمد»، سريعاً كفتوح أمية، خصيباً كحضارة العباس. هذه هي مصر الصحيحة يا شباب الرافدين، لا يزال دينها دينكم، ولغتها لغتكم، وهواها هواكم. إنها لم تركم ولم تروها لأنها في جوف الحوت، وها انكم تسمعون حشرجتها الأليمة في حلقه، وستجيش بين معدته وأضراسه جيشان السم الزعاف حتى يلفظها حية سليمة «كيونس».. حينئذ تتجه «ابنة الشمس» إلى مطلع الشمس، وهناك يكون مجد العرب اليوم كما كان مجدهم بالأمس..

«لقد كانت زيارة الطلاب العراقيين فرصة ميمونة لتوثيق الصلات التاريخية المقدسة.. صافحونا بالأيدي، وخاطبونا بالألسن، وسمعونا بالآذان، وزالت الفوارق العارضة، وانجابت الحجب الكثيفة، واستبان للناس أن الخيال جانٍ على الحقيقة، وأن السماع كاذب على العيان، وأن الوحدة المستحيلة أمر من الواقع».

وقال:

«إن تاريخ الجدود لينبجس فواراً حاراً في صحون المساجد الجامعة. هل تذكرون ثورة بغداد في جامع الحيدر خانة؟ وهل رأيتم غضبة دمشق في الجامع الأموي؟ هل سمعتم صرخة القدس في الجامع الاقصى؟ هل علمتم وثبة القاهرة في الجامع الازهر؟ إن لذلك معنى عجيباً لا يند عن خاطر، ولا يلتوي على ذهن. ذلك أن المنارة التي يذكر عليها اسم الله لا تزال هي المكان الذي يرتفع فيه صوت الحرية، وأن المحراب الذي يقوم فيه الدين لا يزال هو الركن الذي يأوي اليه الحق، وأن

(١) محمد علي: يريد به محمد علي علوبة باشا، الذي يعد من اوائل الوزراء العاملين لتجميع كلمة الأمة العربية.

الاسلام الذي ألّف شتيت البدو في الاول هو النظام الذي يجمع شمل العرب في الآخر ».

نعي الزهاوي :

« نعى البرق شاعر العراق الزهاوي ، والمصريون والعراقيون في حفلة اتحاد الجامعة ، فكان وقع المصاب في نفوس الفريقين واحداً لا يختلف، وقام كبير الادباء « طه حسين » فأبّن كبير الشعراء بكلمة تلقاها الإخوان بعاطفة وشعور مشترك ؛ لان الزهاوي كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة فتتردد اصداؤها الموقظة في ربوات بردى وخمائل النيل وسواحل المغرب . وأدب الزهاوي وأمثاله هو الذي وصل القلوب العربية في مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة ، ولولاها لما تهيأ للعراق هذه الزورة . وبهذه الزورة وأمثالها تتعارف وتتآلف وتتحد . فتعالوا يا أخلاف المجد العتيد ، وأسلاف المجد الوليد ، نتعاون على دفع الاذى عن العزة المهانة ، تعالوا نقر في سمع الزمان أن أمة الرسالة تريد أن تؤدي الامانة ».

هكذا كانت مقالات الزيات تعبر عن إيمانه بالعروبة ، وتعرب عن عقيدته في الوحدة وضرورة التمسك بها ، من أجل تحرير أرض العروبة من يد الغاصب الدخيل . وظل قلم الزيات يواصل الكتابة عن أحداث العراق كلما عراها حادث ، أو حلّ بها مصاب . كتب في حادثة الملك غازي كما رأينا ، وفي الزهاوي والرصافي ، وأبّنهما أجمل تأبين ، لولا جملة انحرف بها قلمه وهو يكتب كلمته في الرصافي ، أسخطت أصدقاء الرصافي على أساس « اذكروا محاسن موتاكم » ولا أحسبه يريد إسخاط أحد أو يريد أن يبخس الرصافي منزلته أو يحط من قدره ، وهو الذي يقول فيه :

« كان الرصافي لسان العراق الصادق ينقل عن شعوره ، ويترجم عن أمانيه ، ويحدو ركبه المجاهد في سبيل استقلاله وعزته بالحداء الحماسي المطرب ، ويصور خلجات نفسه ووساوس أحلامه بالشعر الصريح المعجب. وظل هو والزهاوي ، وشوقي وحافظ ومطران ، حقبة من الدهر يؤلفون الاوتار الخمسة لقيثارة الشعر العربي ، ولكل وتر درجته في الرنين والجهارة والأثر » .

أغاخان والرصافي :

وكتب مقارنة بين الرصافي الشاعر العظيم يموت على فراش البؤس والفاقة وأغا خان الذي يزنه أتباعه المؤمنون كل عام بالماس تارة ، وبالذهب أخرى .. قال :

« في الاسبوع الذي كان الرصافي ، شاعر العربية ، يعالج فيه آلام المرض ، ويكابد غصص الموت على فراش القلق ، في المضجع الموحش، وكل ما يملكه في حياته الطويلة العريضه ، أسماله البدوية ، وأشعاره المخطوطة ، في ذلك الاسبوع نفسه كان أغا خان زعيم الاسماعيلية يقعد في كفة الميزان المأثور المشهور ، وبإزائه في الكفة الاولى مئة كيل من سبائك الذهب المصفى ، هي مثقال الزعيم العظيم في هذا العام . خرج له أتباعه في الهند ، وفي غير الهند ، ونفوسهم راضية ، وقلوبهم مطمئنة. إي والله مئة كيل من الابريز الخالص ، هي ضريبة العقيدة ، يقدمها المؤمنون المخبتون كل سنة الى أميرهم المقدس ، ورقابهم من الجلالة خواضع، وعيونهم من المهابة نواكس ، فيتعطف صاحب السمو بأخذها ، ليطهرهم بها ، ويزكيهم لأجلها ...

وكان الرصافي كذلك أتباع يؤمنون بأدبه ، ويتصلون في الحياة



شاعر العرب الاكبر
المرحوم معروف الرصافي

الروحية بسببه ، فما بالهم تركوه يكتب في وصيته الأخيرة هذه الفقرة التي تستدر الشؤون ، وترمض الجوانح ؟

والفقرة التي أشار اليها الزيات هي : (كل ما كتبته من نظم ونثر لم أجعل هدفي منه منفعتي الشخصية ، وإنما قصدت بـه خدمة المجتمع الذي عشت فيه والقوم الذين أنا بينهم ، لذلـك لم أوفق إلى شيء في حياتي يسمى بالرفاهية والسعادة في الحياة . لا أملك سوى فراشي الذي أنام فيه وثيابي التي ألبسها وكل ما عدا ذلك من الاثاث الذي في مسكني ليس لي بل هو مال أهله الذين يساكنوني) .

وقال : —

« لو شاء الرصافي أن يهـادن السلطان ، ويمالق الحكومة ، وينافق الشعب ، لعاش في أرغد العيش ، وبلغ أرقى المناصب ، ولكنه آثر الحرية على الرق ، واستحب الصراحة على الرياء ، فذهب شهيد كرامته وعفته [1] » .

---

(١) كثر كلام المتأدبين وكررته الصحافة العربية عن البؤس الذي كان يعانيه الرصافي ولا سيا في أيامه الأخيرة ، وراحوا يلومون الحكومة، ويعنفون في النقد والتثريب ، لاهمالها الشاعر الذي افنى حياته في سبيل العروبة والعراق ، وللسياسة يد طويلة في إشاعة هذه الانتقادات واختلاق جو التشويش ..

والحقيقة : أن الموارد التي كانت تتدفق على بيت الرصافي تكفي عائلة كبيرة ، ولكنها تقع في يد خادمه عبد صالح ، فيبددها ويحتجنها لنفسه ، كان له تقاعد بسيط يساوي ١٤ ديناراً ، وخصص له المحسن العربي الكبير مظهر الشاوي ٠ : ديناراً يرسلها اليه كل شهر مدى حياته ، وزودته مديرية انحصار التبغ باجازة تدر على من يحسن تصريفها مع ما يخصص معها من الورق والسكاير نحواً من مئة دينار على اقل تقدير ، وكان محمود السنوي ومراد سليمان واخوه حكمة سليمان يتعهدونه بالحليب واللبن والرز ، والحكومة تخصه من حين لآخر بالمساعدات.

وقال واصفاً حياة الرصافي :

« قلت لصاحبي – الاستـاذ مصطفى علي – ذات ليلة من لياليَّ في بغداد : أريد أن أزور الرصافي ، فقد زارني مراراً ولم أزره ، فقال : أتشجع على أن تدخل حي البغايا ؟ فقلت له : وما صلة هذا بذاك ؟ قال : إنه يسكن بينهن ، وقد تزوره واحدة أو أكثر منهن . فقلت له : هلمّ ، فما يسع زواره من العذر يسعنا . ودخلنا البيت ، فاذا هو بيت الشاعر الأعزب المتـلاف ، لا أثاث ولا نظام ، ولا حرمة . وكلمة الشاعر هنا بدل الأديب تدلك على أن ليس بالمنزل مكتب ولا مكتبة ، فقد كان الرجل لا يقرأ ، وإنما يتكىء على شدة ذكائـه ، وحدة فهمه ، ويكتفي بما حصل في شبابه من أدبه وعلمه .

كان في الردهة قوم يأكلون ويشربون ، وفي حجرة النوم آخرون يسمرون ويلعبون ، وكان الرصافي يتصدر هؤلاء : في يمنـاه كأس وفي يسراه ورق . فلما رآني ، فضّ اللعب ، وأقبل بأنسه عليّ ، ثم أخذ يشرب ، ويتحدث باللغة العارية عن الحقائق العارية ، في غير اكتراث ولا تحفظ . ويظلم الرصافي من يقيد عليه في مثل هذه الحال . ولكن ندامـاه يروون شعوه ، أو يذيعون حديثـه ، فيبلغ صاحب الملك فيغضب ، أو صاحب الحكم فيعجب ، أو صـاحب الدين فيصخب ، أو صاحب الخلق فيثور . كل أولئك يعـادون الرصافي ، ولكنهم يهابونه لشخصيته ، ويحترمونه لعبقريته ، ويتربصون به سوء المصير .

هذه صورة مصغرة لحياة الفقيد الكريم . أما عقيدته ، فالأمر فيها لله ، لا للناس . وأما شاعريته ، فالحكم عليها للناقد ، لا للمؤرخ ...

واستطرد قائلا :

« ستقول إن الزعيم اغا خان كذلك صريح حر .. وان صراحته

السافرة وحريته الطليقة لم تبغيا عليه في قومه ، ولم تجر الى الكلام في صلاته وصومه .. والجواب : أن اتباع الزعيم الديني يصورونه في نفوسهم بصورة العقيدة التي يدينون بها ، ويجعلون هيكله المادي رمزاً لهذه الصورة ، ولهذا الرمز ظاهر يراه الأوزاع ، وباطن يستأثر بعلمه الاتباع . فهم يقوّمون ما يبصرون من زيفه ، ويؤولون ما يسمعون من باطله ، ويسبلون على عمله المريب ، ما يسبله الصوفيون من القداسة على الطبل والدف ، والناي والصنج . هذه الآلات في أيديهم غيرها في أيدي القيان والجنّان : وهي في نظر الناس لا تختلف في شيء عنها . قل إنها الجهالة ، أو السذاجة ، أو البلاهة ، فلن يقدح ما تقول في الحقيقة ، ولن يغير من الواقع .

أما أتباع الزعيم الأدبي ، فانهم يتخذون صورته من فنه وروحه ، فلصورته في كل ذهن شكل مختلف ، وفي كل قلب أثر خاص[1] .

وطبيعة هذه الصورة أو تلك الصور ، مشتقة من طبيعة الفن ، تتضح تارة وتختفي حيناً وتلوح حيناً ، على حسب استعداد النفوس لتقبل الجمال الفني حالاً على حال ووقتاً بعد وقت ، لذلك كانت عقيدة هؤلاء الاتباع في زعمهم كالعرض المنفك تزول ثم تؤول ، فاذا زالت نسوه كما ينسون السرور والحزن واللذة . وإذا آلت سمعوه ، كما يسمعون البلبل على فنن الدوحة ، يطربون لشدوه ، ويعجبون بريشه ، ثم لا يعنيهم بعد ذلك أيجد الحب والعش ، أم يجد الفخ والقفص ؟ وكذلك

(١) سألت الصديق الكريم مصطفى علي عن زيارة الزيات الرصافي ، فقال : وعدني ان يلقاني في نادي المعلمين ، وكان يطل على شارع الرشيد قرب سوق الصفارين ، فصحبته الى دار الرصافي في (كوك نظر) . وكان الرصافي على علم من زيارتنا له ، فرحب بالزيات وانس بزيارته ، واشركنا في امره .

شأن أصحاب السلطان ، وأرباب الحكم مع رجال الأدب الذين يقتبسون من عقولهم النور إذا أظلمت الخطوب ، ويستمدون من نفوسهم اللهب إذا خمدت العزائم ، حتى إذا استوثق لهم الامر ، وتنازعوا الغار ، وتقاسموا الفيء ، وأنكروا ما بذل الادباء وقالوا بلهجة الساخر البطرة وماذا صنع هؤلاء ؟ لقد قالوا وإن الكلام طبع ، وكتبوا وإن المداد رخيص ، ذلك أن أكثر عشاق الادب مفاليك لا يملكون لاربابه إلا الدعاء في الحياة ، وإلا الرثاء في الموت . وإذا كان لدى بعضهم فضل من القوت ، لم يجد في نفسه من سلطان العقيدة ما يحمله على المواساة به . ذلك هو الفرق بين العقيدة الادبية والعقيدة الدينية . فالعقيدة الادبية سلبية لا تتجاوز الاعجاب بالكلام والإنفاق من الكلام ، فاذا وجدت من يبذل في سبيلها المال ، كان ذلك قطعاً للسان الهاجي ، أو شراءً لضمير المادح ، أو تزييفاً لصور الحق . وليس في مثل هذا البذل كسب للأدب أو نفع للأديب .

حظك يا معروف هو حظ الاديب منذ كان في الناس أدباء وفي الارض أدب . يموت أمثالك شَرَقاً بالبؤس ، كما يموت أمثال أغا خان غَرَقاً في النعمة ، فلو أن ربك حقق لك ما كان يرجوه شيخك (الالوسي) من رسوخ قدمك في الدين ، وعلو منزلتك في التصوف . إذن لخلفته في الزعامة الدينية ، وبلغت في « طريقك » ما بلغ أغا خان في الدنيا ، ونلت من صوفيتك ما نال معروف الكرخي في الآخرة » ..

رسالة :

وهذه الرسالة جاءته من آنسة عراقية مفتونة بالادب ، مشوقة لما يكتبه الزيات . وأرسلت مع الرسالة صورتها ، وكتبت اليه معتذرة

لمفاتحتها اياه بالكتابة والإهداء من غير تعارف سابق ، وفي ذلك خروج على العرف لصدوره من فتاة . قال :

« يحلو لي أن أهرب أحياناً من زمني الحاضر لإثقاله ، أو إملاله ، فأرجع إلى ذكرياتي أجتر منها ما ألذّ ، أو إلى مذكراتي أقرأ منها ما أحب .

وفي هذه الساعة التي أكتب فيها للرسالة شعرت بضيق في الصدر والفكر ، فألقيت بالقلم ، وقلت لنفسي : دعي الكتابة اليوم ، وتعالي نتفرج من هذا الهم برجعة إلى دنيا الماضي ، فلعل فى أصدائها الباقية ما يؤنس هذه الوحشة . وتذكرت أن شهر يناير « كانون الثاني » قد عودني الجميل فيما مضى من عمري ، فقد سجلت فيه أكثر ضحكات القلب ، وحسبي منها ميلاد ولدَيّ : « رجاء » والرسالة .

فتحت مذكراتي عن صفحات هذا الشهر ، فوجدتني قد كتبت في يومه العاشر من عام ١٩٥٠ هذه السطور :

« ألقى البريد الجوي إليّ في صباح هذا اليوم غلافاً من العراق ، على ورقه طابع الذوق ، وعلى خطه سمة الظرف ، فلما فضضته وجدت فيها رسالة وصورة . قرأت الرسالة والامضاء ، ثم تأملت الصورة والاهداء ، فاذا هما لآنسة من أوانس[1] بغداد المثقفات قد أولعت

---

(١) هي مليحة اسحيق : فتاة يهودية معجبة بجمالها وشبابها وحور عينيها وقامتها الفارعة وامتلاء جسمها الغض . هويت الادب فراحت تتعرف على الادباء وتبادلهم باهداء صورتها وتدعوهم الى بيتها إن رأت منهم استجابة ، وهي مليحة كاسمها ، خفيفة الروح ، جذابة ، حلوة الحديث .

بالادب ، وأغرمت بأهله . ثم عدت أقرأ ، وعدت أتأمل ، وطال تردد البصر والفؤاد بين الصورة وهي رسالة الجسم الجميل ، وبين الرسالة وهي صورة الروح النبيل ، حتى غـــاب حسي في سكرة من سكرات الاحلام .

تراءت لي في خلالها أطياف من تعاجيب الهوى والشباب ، تتراقص نشوى في أزقة « الوزيرية » و « رأس القرية » من مغاني بغداد العزيزة . ولما عاد الحس أو كاد نظرت إلى الفم الحلو الذي يريد أن يبتسم ، وإلى الطرف الاحور الذي يهم بأن يقول ، وإلى الشعر المغدودن الفاحم الذي يسيل على الاذنين ، وأطراف الخدين ، فيجعل الوجه كله صورة من الفتنة ، فتعود إليّ الغفوة ، وأعـود انا إلى الحلم ، وأخيراً تخلصت قليلاً من سحر الصورة لارى صاحبتها الاديبة تقول أول مـا تقول : « أعتذر اليك من الكتابة والإهداء على غير تعارف » ، ولم يخل اعتذارها الصريح من احتجاج ضمني على العرف الذي يفرق في مثل هذا الصنيع بين الرجل والمرأة ، فلو أنها كانت فتى كما تقول لما وجدت في الكتابة إلى مثلي ما يعتذر منه . ثم تحدثت طويلاً عن صلتها بالرسالة وحرصها على أن تقرأ كل ما أكتب ، وخصت بالذكر رثائي للشاعر المرحوم علي محمـود طه ، وخرجت من ذلك إلى الكلام عن شاعريته وعبقريته . ثم طلبت إليّ آخر الامر أن أخصص لتأبينه عدداً من الرسالة أكتب أكثره . كل أولئـك في اسلوب رقيق يوحي أكثر مما يعـــبر ، ويمتع أكثر ممـــا يقنع . ولم أكـــد أستوعب الرسالة بفكري ، وأناقش موضوعها في سري ، حتى تنـاولت القـلم وفتحت « الالبوم » وأجبت عـن الرسالة برسالة ، ورددت على الصورة بصورة ، ولكن هيهات وا أسفاه ! لن تجيب رسالة عقل عن رسالة قلب ، ولن ترد صورة قبيحة على صورة « مليحة » !

ما أيسر السعادة على ابن آدم لو يدري أو لو يريد ؟ إن كلمة من قلب مفتوح ، أو بسمة من شفة بريئة ، أو نظرة من عين حبيبة ، أو فقرة من رسالة شاعرة ، أو نسمة من صورة فاتنة ، لتستطيع أن تنير ما أظلم قلبه ، وأن تفرج ما اشتد من كربه .

إن السعادة فتات وفترات ، فلا تكون في واحد صحيح ، ولا تدوم في زمن متصل .

★

موقف الزيات من مقتل حسن سيف

في نهاية السنة الدراسية ١٩٣٨ وقعت حادثة مروعة كان لها صداها المؤلم في العراق وفي مصر ، هي مقتل الأستاذ حسن سيف أبي السعود المدرس في كلية الحقوق ، فقد أطلق عليه أحد الطلاب الرصاص صبيحة يوم الاثنين ٢٠ / ٦ / ١٩٣٨ في مبنى كلية الحقوق وأصيب عميد الكلية الدكتور محمود عزمي برصاصة في كتفه . واستغل الحادث أعداء الامة العربية ، وراحوا يروجون دعاياتهم المغرضة . وجل قصدهم تمزيق عُرى الاخوة والتعاون بين القطرين الشقيقين ، وقد تجلى تعاونهم بالعديد من الاساتذة المصريين للمعاهد والكليات العراقية ، وكان الحادث مجرداً عن أي عامل سياسي ، وانها نتيجة تصرف شخصي من طالب خائب فاشل ، حدا به جنونه أن يودي بحياته وحياة أستاذ فاضل مخلص في أداء واجبه ، حريص على أمانة العلم والمعلم .. فساء الاستاذَ الزيات جموحُ بعض الاقلام في تعليقاتها على صفحات الجرائد والمجلات ، فكتب يرد على تلك الاقلام ، ويدفع قالة السوء يوم ٤ تموز سنة ١٩٣٨ :

« بين مصر والعراق »

« تجري أحكام القدر على أسباب خافية من حكمة الله ، لا يؤثر

في منطقها مقتضيات السياسة ولا مناسبات الظروف ولا مجاملات الصداقة، ولو كان لهوى النفوس ومشيئة العقـول أثر في تدبير الأحداث ، وتغيير الأقضية ، لما اختل في ذلك الوقت هذا الطالب العراقي المسكين فأراق على ثرى دار الحقوق البغـدادية نفس الدكتور سيف ودم الدكتور عزمي . وهما يجاهدان غريبين في سبيل العلم ، يؤديان مخلصين للعراق فروض المودة. وأقول : « في ذلك الوقت » لأن وقوع هذا القدر المروع في هذه الساعة التي تنعقد فيها أواخي المصاهرة بين مصر وإيران ، أتاح لبعض النفوس الجاهلة المريضة أن توازن بين ما يفعل إخوان النسب ، وبين ما يفعل إخوان العقيدة .

ومثل هذا الحادث المشؤوم يقع في كل قوم وفي كل يوم ، فلا تضطرم له القلوب ، ولا تضطرب به الألسنة ، ولا تهن منه العلائـق . ولكن وقوعه ظلماً على الغريب النافع من القريب المنتفع أعطاه معنى التضحية، وجعل له تأثير الشهادة . وابن الوطن إذا قُتل في وطنه كان مصابه مصاب أسرته ، وإذا قتل في وطن غيره كان مصابه مصاب أمته .

أضف إلى هذه الملابسات شائعات مكذوبة ، وتعليقات مشوبة، استطار بها السماع فدلست على ألسن الناس وجوه الحكم ، وآذت أصدقاء العرب وعارفيه ، فهبوا يصححون الخطأ في المجالس ، ويعلنون الصواب في الصحف، رعايةً لأسباب الاخاء ، وادامة لتعاون الفكر ، وضناً بأخلاق هذا الشعب النبيل على الأفواه القارضة .

شهد الله أني قضيت بالعراق ثلاثة أعوام ، لم تنلني فيها كلمة تؤذي ، ولا فعلة سوء . إنما كنت أتقلب في بغـداد كما يتقلب الطفل على أحناء الصدر الحنون : لا أحسّ غربـة ، ولا أستشعر وحشة ، ولا أجد في العيون ولا على الشفاه إلا العطف عليّ والإعجاب بمصر .

وربما وجد المصري في غير مصر تناكراً بين وجه ووجه ، وتدابراً بين عاطفة وعاطفة ، إلا في العراق فانه يجد وجهه في الوجوه ، وهواه في الأهواء ويحس ان الأدب الذي درس ، والتاريخ الذي قرأ ، يتمثلان لباصرته وذاكرته ، في كل شخص وفي كل شيء ، ويرى أن هؤلاء الناس خُلقوا كما خلق من النهر ذي الغِرْيَن الخَصِب ، وعاشوا كما عاش على الأرض ذات الطلع والحب ، لا يختلفون عنه في سحنة ولا خلق . والعراقيون من جهتهم يؤيدون حسبانه ووجدانه بالطلعة الآنية والمروءة الجزلة ، والكرم المحض .

كانت مصر اذا ذكرها في المجلس ذاكر ، نزعت اليها قلوب القوم ، كما تنزع الأسرة الى عصبتها النازحين الى بلاد الذهب والأدب والجمال .

وكان للمصريين في بغداد ، على قلتهم ، منزلة ملحوظة بين الجاليات الأخرى ، لا تحوم حولها شبهة الارتزاق ولا سبة التشرد ، لأن العراق ، وان كان ضنيناً بخيره على الأجنبي الواغل ، يعرف عن المصري ما يعرفه كل الناس ، من عزوفه عن النقلة من قرية الى قرية .. فكيف بالرحلة من وطن الى وطن ؟ وهذا الذي رأيته بعيني لا أزال أسمعه بأذني من الاساتذة المصريين الذين لا يزالون يسفرون بين الشعبين الشقيقين بالثقافة والمودة . فالأحاديث التي تندس اليوم الى الأندية اندساس الفتنة لا ترجع الى حق ، ولا تذهب الى منفعة .

وهذا الحادث على فظاعته ، ظاهرة من ظواهر المجتمع ، يحدث في الأمم المتمدنة كما يحدث في الشعوب الهمجية ، ويقع من القريب على القريب كما يقع من المواطن على المواطن ، وحقد النفس على النفس من طبائع الإنسان ، وضلال العقل ووهن الأعصاب من آفات الحي ، وما يستطيع غير الله أن يعلم خوافي الصدور وخوائن الأعين . فماذا كانت

تعمل حكومة العراق لتدرأ ذلك العدوان الفردي المحتوم ، وقد تهيأت أسبابه خفية في نفس مضطربة ، وأعصاب موهونة ويأس مضل ؟ ان الذين قالوا كان وعيداً كتب ، وتهديداً قبل ، لم يثبتوا بأن الصديق الخليل ، عزمي قد عالج بهذا الوعيد أو أخبراً الحكومة بهذا التهديد ، واذن لا يبقى الا نزق الشباب الذي لا طب له ، وقدر الله الذي لا حيلة فيه .

إن العلاقة بين مصر والعراق طبيعية ، لم يفتعلها طمع الاقتصاد ولا طموح السياسة ، إنما هي علاقة الدم واللغة والأدب والتاريخ والمجد والعقيدة ، فاذا طاشت يد هناك أو هفا لسان هنا ، فلا ينبغي أن يقع ذلك من البلدين الأخوين الا موقع العبث الضروري الذي لا تكون الحياة الدنيا حياة الا لوقوعه فيها ، ولا يكون الانسان بشراً الا لوقوعه منه . هذه كلمة كنا نود ألا نقولها ، فان الحاجة الى تقرير الود بين الصديقين مظنة لوقوع الشك فيه ، ولكن قعائد البيوت وأحلاس المقاهي لا يحبون أن يزجوا فراغهم الثقيل الا بزخرفة الاحاديث على حساب الحق ، فلم يكن لنا ولهم من هذه الهمسة بد . وقد انبرى كاتب احب العراق والعراق أحبه ، هو الأديب صاحب النثر الفني الدكتور زكي مبارك ، فقد كتب فصولا مسهبة دافع فيها عن العراق ، وكان من شهوده . انظر كتاب الاستاذ عبد الرزاق الهلالي (زكي مبارك في العراق) .

نضج التفكير القومي :

قدمت نماذج واضحة من نضج الوعي القومي بفضل الكتاب العرب ودعاة القومية ، وأن هذا الوعي وإن بدا تخلفه في بعض الاقطار العربية ، ونموه في بعضها الآخر إلا أن الهزات العنيفة التي تقع في قطر

من اقطارها تثبت ان التماثل والتماسك ، واهتزاز وشائج القربى ، لهو الادراك الحقيقي للامة العربية وانه هو القدر المشترك المجسد للشعور القومي والوعي المتنامي . وان الحكم على شعب لمن يحلو له ان يحكم — بتصريح أديب أو هفوة زعيم من أبناء ذلك الشعب ، بأن الشعب كله يتنكر لامته ولعروبته بما سبق من هفوات بعض الافراد ، ذلك حكم لا يمثل حقيقة ، وانما الحقيقة الناصعة هي أن الامة العربية ما فتئت ، منذ مطلع العشرينات من هذا القرن ، تتقارب وتتفاهم وتتناصر وتتوحد برغم القيود المشددة ، والحدود المفككة ، والاحزاب المتخالفة . تراها في أقطارها تتجاوب وتتناصر وتتعاون وتتنادى لدعاء الحرية والاستقلال . في مصر ثورة على الاحتلال ، وفي العراق ثورة على الاستعمار ، ونرى ثورات في سورية وفلسطين وفي المغرب العربي . كل ذلك يثبت للدراس المنصف أن الوعي القومي ينمو وينضج وينتشر حتى عمّ الاقطار العربية مشرقها ومغربها . وهل أدل على نضج هذا الوعي من تلكم المشاركات الجماعية والانتفاضات الشعبية كلما حدث حدَث لقطر من أقطارها؟ فترى أبناء الاقطار الاخرى تتجاوب ، وتهتز فرحاً إن نال ذلك القطر انتصاراً على الاستعمار ، وتأسى حزناً ان حلت بأهله نكبة ، فتسارع للمساهمة مادياً وروحياً . وهل نسينا صدى حروب الخطابي وانتصاراته في المغرب وأفراحنا لها ، وأسانا يوم نفي (سعد) وصحبه الى جزيرة سيشل ؟ أولا يذكر الناس أفراح الامة العربية يوم جـلا الاستعمار عن سورية ولبنان ، فاهتزت أقطار العروبة من المحيط الى الخليج ابتهاجاً وغبطة . وتعزيزاً لذلك أثبت مقالة الدكتور طه حسين الذي أشاع عنه البعض آراء كانت سبباً لإشاعة تقولات واتهامات تعدّت الافراد الى الشعب كله فراحوا بحسن نية وبسوء نية يرمون الشعب المصري بالفرعونية .

رأى الدكتور طه حسين عن عروبة مصر

أشاع بعض الطلاب في أوائل الثلاثينات رأياً للدكتور طه حسين في عروبة مصر ، وأذاعوا في الصحف ان الدكتور يقول : إن مصر فرعونية ، وانها تتنكر للقومية العربية . أجرى هذا الحديث طلبة عراقيون وشاميون التقوا بالدكتور ، على ظهر الباخرة « شامبليون » وهم في طريقهم الى باريس ، ونشره الكزبري في صحافة الشام ، وتناولت صحافة لبنان والعراق وسوريا الحديث منكرة على الدكتور هذا الزعم ، وراحت تدلل على عروبة مصر . وشاع هذا الرأي وتناقلته الجرائد ، وتداولته الالسن ، وصدقه أناس ، ونفاه آخرون . وقد يصح أن يقال إن مصر يجوز لها ان تتشاغل عن القضايا العربية بقضاياها الخاصة ، ويصح أو يجوز أن يقال إن الوعي القومي العربي كان ضعيفاً في نفوس ساستها يومذاك ، لان كفاحهم متركز على مقاومة الاستعمار او منصب في المنافسات الحزبية ، وقد طغى كفاحهم للاستعمار على كل تفكير ، وجعلهم يشغلون عن قضايا غيرهم ، فظهروا بمظهر الاقليمية . ومن هنا جاء عتب ابناء العروبة .

فاستغلت الدعايات المغرضة التي دبرتها الصهيونية ، وروجها عملاء الاستعمار ، وأخذوا يعمقون القالة القائلة بفرعونية مصر ، وينشرون حولها الاحاديث ، ويقابلون الزعماء المصريين وأعمالهم الوطنية بالشبهات ، ويرمونهم بالتنكر للعروبة .

ولا شك أن فكرة القومية والعمل لها في مصر ظلت خافتة ومبهمة في نفوس الكثرة الكاثرة من الساسة المصريين في مطلع العشرينات من هذا القرن ، فلا عجب أن صدرت بعض الاقوال والآراء المرتجلة من

بعض الادباء والساسة . ولكن هذا الوعي قد تبدل بفضل اللقاءات والزيارات بين الاساتذة المصريين وبين اخوانهم من أبناء العروبة من عراقيين وسوريين ، ورأوا بأعينهم ولمسوا بأنفسهم ما كان يكنه بنو عمومتهم من الحب والاحترام والتقدير لمصر والمصريين ، وانهم ينزلونها منزلة الرأس من الجسد ومنزلة الاخ الاكبر .

فكتب الدكتور طه حسين مقالاً بعنوان :

– بين العروبة والفرعونية – قال فيه :

« الشعب المصري يتكلم اللغة العربية منذ قرون طوال ، ويعيش على الحضارة العربية وعلى التراث العربي منذ قرون طوال أيضاً .. ويشارك في إحياء التراث العربي وتنميته ، شأنه في ذلك شأن الشعوب العربية في اقطار الارض على اختلافها ، من الخليج الى المحيط كما يقال اليوم . وليس من شك في ان حظ الشعب المصري في إحياء الحضارة العربية والتراث العربي ومن ترقية اللغة العربية أكثر وأوفر وأغزر من حظوظ الشعوب العربية الاخرى ، ولا سيما في هذا العصر الحديث . بل في عصور أخرى قديمة كانت الشعوب العربية فيها معرضة لضغط أجنبي يأتيها من الشرق حيناً ويأتيها من الغرب حيناً آخر . وكانت مصر وأهلها أقل البلاد العربية والشعوب العربية تأثراً بهذا الضغط الاجنبي . وليس من السهل أن ينكر مؤرخو الآداب فضل مصر في حماية هذا التراث على اختلاف ألوانه . بهذه الكتب الضخمة التي ألفها علماء مصر أثناء العصر الايوبي وعصر المماليك حتى في العصر العثماني حين أطبق الظلام على أكثر الشعوب العربية ، وفرض عليها الجهل فرضاً ، وقطعت الصلة بين الاقطار العربية نفسها . حتى في هذا العصر الذي هو أسوأ العصور في التاريخ الاسلامي ، كان الأزهر الشريف مصباحاً يضيء للعالم الاسلامي

طريقه ، ويحفظ عليه تراثه العربي والاسلامي .

كذلك كان الشعب المصري منذ ازدهرت الحضارة الإسلامية حفيظاً على هذه الحضارة ، منمياً لها ، مضيفاً اليها ما كان يستطيع أن يضيفه بفضل جهوده الخصبة .

ثم يجادل المجادلون في أن الشعب المصري عربي ، ويزعم الزاعمون أن المصريين يتأثرون بالتاريخ القديم أيام الفراعنة أشد مما يتأثرون بالتاريخ العربي . والغريب أن الناس جميعاً يعلمون أن مصر كانت تجهل التاريخ الفرعوني القديم ، ولا تعرف منه إلا ما كان مسطوراً في كتب التاريخ العربية من هذه الأخبار التي تروي من العصور الانسانية القديمة في غير تحقيق ولا تمحيص ، ولم تعرف مصر تأريخها الفرعوني إلا في هذا العصر حين استكشفت بعض الآثار الفرعونية ، وحين قرئت الكتابة المصرية القديمة . وكل هذا لم يكن إلا في القرن الماضي . فكان حظ مصر إذن من العلم بتاريخ الفراعنة كحظ غيرها من البلاد العربية الى أواسط القرن التاسع عشر . وكانت أثناء العصور الإسلامية للعروبة وللحضارة العربية والتراث العربي واللغة العربية .

أضف إلى ذلك أن القرن الماضي لم يشهد البدء في معرفة التـاريخ الفرعوني وحده ، وإنما شهد البدء في معرفة التـاريخ اليوناني في مصر والتاريخ الروماني في مصر أيضاً . ومصر ، كغيرها من البـلاد الحية المتحضرة ، لا تستطيع أن تترك علماء الغرب يستكشفون ما كان في أرضها من الآثار ، ويستخرجون من هذه الآثار تاريخ الوطن المصري في عصوره المختلفة قبل الاسلام دون أن يشارك في البحث عن هذه الآثار . وفي استخراج التاريخ منها ، بل في استخراج فروع الحضارة التي عاشت

في أرضها قروناً تعد بالعشرات ، بل ان استكشاف هذة الآثار يفرض عليها أن تحميها وتجدّ في فهمها واستنباط العلم منها ، لأن مصر بطبعها مضطرة الى المشاركة في كل ما ينفع الناس من العلم والفن والأدب وسائر ألوان المعرفة على اختلافها .

فهل كان الذين يتهمون المصريين بهذه التهمة السخيفة ، تهمة الفرعونية ، والاغراق فيها ، والاعراض عن العروبة ، لا لشيء الا لأن مصر تجدّ في حماية ما يستكشف في أرضها من الآثار وفي استخراج مـــا تدل عليه هذه الآثار من فنون المعرفة كأنهم يريدون أن تعتمد مصر الجهل بما في أرضها من كنوز ، وتخلى بين علماء الامم المختلفة وبين هـــذه الكنوز يستكشفونها وينقلونها الى بلادهم ، ويستنبطون منها العلم ، ويدرسونه في جامعاتهم ، ويملأون بها متاحفهم ، وتظل هي غافلة لا تسمع ولا ترى ، جاهلة والناس من حولها يملأون صدورهم بالعلم وينشرون من حولهم في بلادهم وفي غير بلادهم ؟ أم هل كانوا يريدون أن تمنع مصر من البحث في هذه الآثار ، وتحظر استنباط العلم منها ، وتفرض على الانسانية وعلى نفسها الجهل بتاريخ أرضها وبالحضارات التي قامت فيها ؟

من أجل هذا لا أعرف أبلـغ من السخف ولا أدنى الى هذيان المحمومين من هذا الكلام الذي تردده ألسنة الفئة الباغية في سورية من أن مصر فرعونية حريصة على فرعونيتها ، معرضة عن العروبة متنكرة لها .

ومن يدري ؟ لعل هؤلاء السفهاء كانوا يريدون من مصر أن تدمر كل ما يستكشف في أرضها من الآثار الفرعونية واليونانية والرومانيـــة ، لتثبت عروبتها وتثبت حرصها على هذه العروبة ومشاركتها في إحياء التراث العربي وترقية اللغة العربية والأدب العربي وسائر ضروب العلم

التي عرفها العرب ، ونشروها في أقطار الأرض ، وأتاحوا لغيرهم من الأمم أن تنهض وتتحضر وتتفوق في الحضارة ، إذ كان هؤلاء الناس يؤثرون الجهل لأنهم خلقوا محبين للعلم مؤثرين للمشاركة في كل ما ينفع الناس ، ولأن وطنهم قد امتاز بحفظ الحضارة الانسانية وحمايتها منذ العصور القديمة .

حفظ حضارة اليونان التي تعيش الانسانية عليها الى الان ، وحفظ الحضارة العربية الأسلامية التي شاركت في إنهاض أوربا واحيائها ، وسيظل هذا الوطن كذلك وإن رغمت انوف ، سيظل هذا الوطن الذي نشأت فيه حضارة الانسانية الأولى ، وانتشرت منه ، وملأت الارض من حوله نوراً ، وسيظل هذا الوطن الذي حفظ الحضارة اليونانية وأتاح للباحثين والعلماء منهم كنوزاً لا تقدر ، وسيظل هذا الوطن الذي حفظ الحضارة العربية والتراث العربي ، وأتاح للعرب ولغير العرب أن ينتفعوا بهذا التراث وتلك الحضارة .

فلتردد ألسنة الفئة الباغية ما شاءت من هذا السخف وأمثاله ، فهي لن تضر مصر ولن تضر المصريين في شيء ، وهي لن تمس عروبة المصريين قليلا أو كثيراً ، ولن تستطيع أن تنازع المصريين فضلهم في إحياء الحضارة العربية والتراث العربي ، باذلة في ذلك من الجهد والوقت والمال ما لم يبذله شعب آخر . ولتطمئن هذه الفئة الباغية فلن يتحول المصريون عن عروبتهم ، ولن يقصروا في حماية العروبة وفي إحياء التراث العربي ونشره ، لينتفع منه القريب والبعيد ، ولينتفع منه العربي وغير العربي .. لأن مصر لا تستطيع أن تغير طبيعتها ، وأن مصر هي ، على رغم الجاحدين والمعاندين ، الأرض التي أثمرت فيها الحضارة العربية والتراث العربي . كما لم يثمرا في غيرها من البلاد العربية ، ولا سيما هذا العصر الحديث . وأن تاريخ مصر قد فرض عليها واجباً تراه مقدساً ،

وتأبى أن تقصر فيه مهما تكن الظروف ، وهو أن تتعلم ما استطاعت الى التعلم سبيلا ، وتنشر العلم من حولها ما وجدت الى ذلك سبيلا ، ولا عليها أن تجحد فضلها في ذلك قلة قليلة من أعداء العروبة ومن أعداء الشعب السوري ، فئة لا هي في العير ولا هي في النفير »[1] .

من الجحود ، إي والله من الجحود ، أن نرمي مصر بالفرعونية لنزوات بعض الكتاب من أمثال سلامة موسى ولويس عوض وأضرابهما . وهي دعوة روجها الاستعمار وبعض من يظلع في ركابه من المأجورين وتكرار هذه النغمة من بعض كتاب العرب في سوريا أو العراق انسياقاً مع دعوة أعداء العروبة الذين يعملون لتمزيق وحدة العرب الفكرية والسياسية . وأرض الكنانة كانت ولا تزال تنزل ابناء العروبة منزلاً رحباً ، كانت أيام الاستبداد العثماني مهبطاً للمجاهدين من أبناء العروبة من أمثال الكواكبي وآل العظم والشدياق وآل الرافعي وزيدان ومحمد كرد علي ومحمد رشيد رضا والكاظمي . وكانت موئلاً للمجاهدين من أحرار العرب من الخليج الى المحيط في حروبهم التحررية من الاستعمار ، يلقون فيها البذل والعون والعطاء بسخاء وتنزلهم منزلة كريمة ، مثل الثعالبي والخطابي والبشير الابراهمي وأبو رقيبة والبزاز والسامرائي والدرة والصفواني ، وغيرهم كثيرون . تغدق عليهم بكرمها وتنزلهم منزلاً كريماً ولا تمن على أحد . ورأينا مبادرتها لنصرة الجزائر وتونس وليبيا ولبنان وسوريا والعراق واليمن ، كما رأينا نصرتها للاقطار العربية شرقاً وغرباً ، وهي تتحمل اليوم العبء الأكبر في كفاحنا مع الصهيونية والاستعمار .

---

(١) انظر كتاب كلمات للدكتور طه حسين من ص ٢٦ – ٣١ منشورات دار الملايين ١٩٦٧ .

وهذه جامعاتها تفتح أبوابها لأبناء العروبة من مختلف شعوبها وأقطارها ، ولا تقف بوجه طالب قصدها حتى ولو تجاوز الوافدون العدد المحدود ، وقد تتجاوز بذلك نصوص القوانين المطبقة على أبنائها المصريين . والنهضة الحديثة في شتى أقطار العروبة مدينة لمصر ولأساتذتها الذين يعملون مخلصين في حقل التعليم الجامعي والثانوي ، فهل بعد كل هذه التضحيات التي تقدمها مصر للعروبة مجال لتقولات المغرضين من أعداء الأمة العربية ؟ وهل يصدق تخرصاتهم عربي في نفسه بقية من أنصاف ؟

الدكتور زكي مبارك يدافع عن العراق

على أثر ما أشاعه المغرضون ، ورددته ألسنة السوء ، وبعيد ما دبجته أقلام الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ، كتب الدكتور زكي مبارك في ١٩٣٨/٦/٢٩ مقالاً بعنوان « فاجعة بغداد » نشرته جريدة الأهرام ، وأثبته في كتابه « من وحي بغداد » ، ومما جاء فيه :

« أما بعد ! فقد تكون لهذه الفاجعة عقابيل ، ولكن واجبي نحو وطني أن أعلن جهرة ، أن هذه الفاجعة لا يجب أن تفسد ما بين مصر والعراق عن الصلات الثقافية ، فالطالب الجاني كان مريضاً ، وقد ضعفت أعصابه تحت تأثير المرض والقيظ ، فجنى ما جنى غير مسؤول ، ثم قتل نفسه بعد ذلك ...

أشهد صادقاً أن مصر لها في قلوب أهل العراق أجمل مكان .

وأشهد صادقاً أني لم أر من أهل العراق غير الجميل ...

وأشهد صادقاً أن حكومة العراق وجمهور أهل بغداد عزونا في هذه الفاجعة أجمل عزاء .

وأشهد صادقاً أن العراقيين إخوان أعزاء ، لا يضمرون لنا غير الحب والعطف والوداد » .

وقال : « ما لقيني إنسان بعد هذه الفاجعة في بغداد إلا قال : مـا عسى أن يقول فينـا المصريون ؟ فكنت أجيب : لن يقول المصريون فيكم شيئاً يا أهل العراق ، فتلك أقدار قضت بمـا قضت ، ولا يثور على الأقدار إلا غافل أو مخبول .

أيها العراقيون : إن همومكم من همومنا ، وأحزانكم من أحزاننـا ، وقد شاء الله أن يجمع بيننا وبينكم رباط من الحزن والدمع وهو رباط وثيق ، وقد تفردت مصر بأن يكون لها في أرضكم شهيد ، فارعوا هذا العهد ، فهو أصدق العهود ..

أيها العراقيون : ثقوا تمام الثقة بأننا نحبكم ، ونعطف عليكم ، ونتمنى لكم الخير والعافية . ثقوا بأن مصر يسرّها ويرضيها أن يقال إنها اتصلت بكم بسبب الدماء .

أيها العراقيون : هل تذكرون قول شاعركم المتنبي :

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً
فأفعاله اللاتي سررن ألوف

إن ذكرتم هذا البيت ، فنحن نذكر أنكم إن كنتم أسأتم إلى أحـد فقد أحسنتم إلى ألوف ، وما أسأتم إلى أحد منا ، وإنما أساء شاب مسكين بكينا عليه حين رأينا أهله يصرخون ويولولون ، إن من الجريمة أن تنسب هذه الجريمة إلى أهل العراق ، هي جريمة فردية يسأل عنها جانيهـا المسكين الذي قتل نفسه بلا ترفق ، هي سحابة صيف ، سيعقبهـا الصحو والصفاء .

أيها العراقيون : لقد ساءني أن تنزعج صحافتكم وأنديتكم على سمعتكم القومية ، فاسمحوا لي بأن أعتذر عنكم وأن أصرح بـأن لله حكمة في

مستور الغيب .

وقانا الله وإياكم شر الفتن ، وهدانا جميعاً إلى سواء السبيل[1] » .

وللدكتور زكي مبارك مواقف متعددة تنضح بالقومية ، وتلهج بأواصر القربى ، وقف بالمرصاد لكل من كانت تسول له نفسه ببذر بذور الفتنة بين مصر والعراق ، فكتب مقالاً بعنوان :

« مكانة مصر في العراق »

« ليت قومي يعلمون كيف يحبهم أهل العراق ؟

ليت قومي يعلمون كيف يفرح أهل العراق لفرحهم ، وكيف يحزنون لحزنهم ؟

ليت قومي يعلمون كيف يسير ابناؤهم في بغداد والحلة والموصل وكركوك والنجف وكربلاء والبصرة وما إلى هؤلاء من حواضر العراق ؟

ليت قومي يعلمون كيف تسود مجلاتهم ومؤلفاتهم وأناشيدهم في مضارب العشائر ، وكيف تكون أغانيهم راح السامرين على شواطىء دجلة والفرات ؟

إن العراقيين يحبوننا أصدق الحب ، فليعرفوا جيداً أننا نحبهم ، ونتمنى لهم كل خير ، وننظر إلى بلادهم نظرة الأخوة الصادقة التي لا تضمر غير العطف والصدق .

وستذكر مصر أن العراق رآها أهلاً لحمل الأمانة العلمية ، فمكنها من غرس أصول الثقافة الحديثة في رحاب دجلة والفرات ..

وسيذكر العراق أن مصر كانت عند ظنه الجميل ، فلم ير من أبنائها غير الصدق والاخلاص ، ويرحم الله من قال[2] :

---

(١) كتاب الهلالي : زكي مبارك في العراق ص ٢٠٧ - ٢١٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٣ - ٢١٤ .

أذكرونا مثل ذكرانا لكم ... رُبَّ ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صباً إذا غنّى بكم ... شرب الدمع وعاف القدحا » .

وكتب الدكتور زكي تقريراً إلى وزير المعارف ، وكان يومئذ المؤرخ الأديب الدكتور محمد حسين هيكل مؤلف « حياة محمد » وكتاب في « منزل الوحي » وشفع تقريره بهذه الرسالة :

« أيها الأستاذ الجليل ،

سترى في هذا التقرير صفحات تشرح الحوادث التي كانت سبباً في وقوع فاجعة بغداد ، فاقرأ تلك الصفحات – غير مأمور – لترى أن ما وقع لم يكن أثراً لمداوة موجهة الى الأمة المصرية ، وإنما هو نتيجة تصرفات أوقعت فيها المقادير بعض الناس لنعرف ما في أنفسنا من الصلاحية للاستبسال في خدمة المقاصد العالية بمعاهد الشرق .

وكان في نيتي أن أطوي تلك الصفحات من هذا التقرير ، ولكن دعاني إلى اثباتها ما عرفت من أن بعض المفسدين يريدون أن يجعلوا تلك الفاجعة نهاية الصلات الودية بين مصر والعراق ..

وأرجو أن تعرفوا أني لم أتلطف في سرد تلك الأسباب ، ولم أضف اليها شيئاً يمليه الفرض في مراعاة مصر أو التحامل على العراق ، وإنما وقفت موقف الرجل الأمين الذي يقدر المسؤولية أمام الله وأمام التأريخ . وعند قراءة الفصول الخاصة بتلك الفاجعة ، سترون أن الله قدر ولطف ، فلم تكن تلك الحوادث الا سحابة صيف ، وقد تقشعت بفضل الله الكبير المتعال .

وإنما أدعوك إلى النظر في الأسباب التي دونتها بنزاهة في هذا التقرير ، لأن تلك الفاجعة عرضتني إلى شبهات أشد ظلاماً من حظوظ

الأحرار من الأدباء ، فقد أشاع المرجفون أن لي غرضاً في دفع مقالة السوء عن العراق في هذه البلاد . وما اذاع هذه الفرية الأثيمة إلا أناس حميت أعراضهم بقلمي ولساني ..

يرجون عثرة جدّنا ولو انهم لا يدفعون بنا المكاره بادوا

وقال فيها :

« لقد قلت ما قلت ، وكتبت ما كتبت في الدفاع عن العراق ، ومن الله وحده أنتظر حسن الجزاء . فمن كان له هوى في أن يصدني عن قول الحق ، فليمض في ضلاله كيف شاء ، فما أنتظر العطف من أحد ، وقد أقمت حياتي الأدبية على قواعد من الحديد » .

تاريخ العراق المعاصر

في حياة الشبيبي

نفثة مصدور لما كان يلقاه الأحرار من الذين صرّفوا امور العراق وفق مصالحهم الخاصة وما كان يرسم لهم .

قرأت في بريد مصر الأخير النبأ التالي : « وافقت مشيخة الازهر الشريف على قرار يقضي بتعيين الاستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة مديراً لمجلة الأزهر براتب قدره ٢٠٠ جنيه » .

هذا ما روته صحف مصر في الايام الأخيرة ، وهو نبأ رأيت أن أقف عنده لحظة للعبرة ، وهذا الخبر لا يعنيني الا من حيث دلالته البالغة على ارتفاع قيم الادب ورواج بضاعته في بلاد ، وكسادها في اخرى ..

نحن نعيش في بلد تطاول غيرها بالكلام الفارغ والدعاوى الباطلة ، لا بالعمل . فما أبعد الشقة بيننا وبين هؤلاء الذين نطاولهم من هذه الناحية .

ان اختيار صاحب مجلة الرسالة لادارة مجلة الازهر اختيار موفق فان صاحب الرسالة كاتب أو صحفي مصري ، عرف ببلاغته وترسله وبمقالاته التي يدبجها في مجلته . ولا شك أن أمثاله غير كثيرين في

أقطار الشرق العربي . ولكن هذه الاقطار انجبت كتاباً وصحفيين وأدباء من طبقة الاستاذ المذكور . ما في ذلك من ريب . الا أن الفرق بين البلدين بعيد ، فهذا بلد يعيش اعلام الأدب والترسل والصحافة فيه معززين مرفهين مقبلين على شأنهم في الانتاج والتأليف ، وهذا بلد آخر تعاني هذه الطبقة فيه أنكد عيش يمنعها عن العمل والانتاج ، فيموتون وتموت معهم بنات أفكارهم بدون أن يحسب لهم حساب في كثير من الأحيان .

لماذا يفتت هؤلاء المبدعون من الأدباء – ناظمين وناثرين – حبات قلوبهم ؟ ولماذا يذيبون أدمغتهم ؟ أليس من أجل سن المناهج اللاحبة وتعبيد الطرق الواضحة ، طرق الهداية والارشاد ، ليسلكها الناس الى الفضائل والمحامد ومكارم الأخلاق .

أجل ، هذه هي رسالة المبدعين من الأدباء ناظمين وناثرين ، وإلى ذلك مرد هذا الاكبار والاجلال لهم ، والحفاوة البالغة بهم لدى الشعوب الناهضة قديماً وحديثاً . وكثيراً ما رأينا في بعض البلدان المتأخرة ان الخمول والزراية والاحتقار نصيب الأديب أو الكاتب المبدع .

لذلك نرى للادب دولة في عصور دون عصور . ولا يعرف الفضل إلا ذووه والناس أعداء ما جهلوا . وما أكثر عدد الأغبياء والجهال المنحطين بين المعنيين بشؤون الحكم والسياسة في هذه الأيام !

* * *

عقد مجمع اللغة العربية في القاهرة حفلاً تأبينياً للفقيد الشيخ محمد رضا الشبيبي ، كان المتكلم فيه زميله وصديقه فقيدنا الزيات ، قال :

« رحم الله أخانا الشبيبي .. كان كرسيه في مؤتمر المجمع متميز الوجود ، مرموق المكانة ، ظاهر الجلالة . وكان جهده العملي في المؤتمر واضح الأثر جاني الثمر خصب الانتاج ، وكان مكانه في العراق مكانة

القائد المتبع ، تحلقت من حوله النوازع الجديدة في النجف ، وتجمعت من ورائه المبادىء الحرة في بغداد ، فقاد حركة الاصلاح الديني في الجامع ، وجاهد في سبيل الاصلاح السياسي في الحزب ، وشارك في معركة التحرر من الانكليز في الشعبية . وكان تاريخه كله مثلاً في الشجاعة والحفاظ والاستعلاء والأنفة ... ومن جرائر هذه الخلال عليه انه لم يتول منصباً ، أو يتقلد وزارة الا استقال بعد قليل . أما الباعث فإما يرجع إلى وطنيته ، وإما إلى سبب يمت إلى كرامته .. استقال من وزارة المعارف مرتين ، مرة في سنة ١٩٢٥ لاختلافه مع رئيس الوزراء على اتفاقية النفط الأولى ، وأخرى سنة ١٩٣٥ ، لاختلافه يومئذ على سياسة التعليم واختيار المعلم ، واستقال من رئاسة المجمع العلمي العراقي وعضويته سنة ١٩٤٨ لعوائق من الأذى وضعها في طريقه خصيمه المبين نوري السعيد ، واستقال من مجلس النواب سنة ١٩٥٠ مع النواب المعارضين الخمسة والثلاثين ، لاستطالة بعض الأعضاء الحكوميين على حرم المعارضة ... ثم دعاه التصوّن والاحتشام إلى ضرب من العزلة الشاعرة ، ابتدأت في حوش من أحواش النجف ، وانتهت إلى قصر من قصور الكرادة ، فقليلاً ما كان يغشى مجلساً ، أو يشهد مجتمعاً ، أو يحضر منتدى . لم يكن كمعاصريه الرصافي والزهاوي حديث مجلس ، أو نديم ملهى ، أو سمير أنس أو شاعر حفل أو صاحب فكاهة ، انما كان طريقة وحده في سمو الخلق وشرف الصحبة ونبل الغرض . ولذلك انحصرت شهرته بين طلاب الأدب الرفيع من الخاصة وأقطاب الرأي المعارض من الساسة .

كان وهو متربع في حجرته المتواضعة في النجف على حشيته الضيقة فوق حصيرته الواسعة ، وأوراقه منشورة أمامه ، وكتبه منشورة حوله يرقب طالع العهد الجديد من بلاط الملك الهاشمي في الرصافة ومن دار المعتمد البريطاني في الكرخ ، فيرى الإرادة العربية مكبلة بالقيود



الشيخ رضا الشبيبي

الانكليزية ، لا تتحرك إلا بقدر ، ولا تتصرف إلا بإذن ، فيجيش صدره بالشعر المثير ، ويتحرك لسانه بالنثر الموقظ ، فتتناقل الأفواه هذه الصيحات على شواطىء الفرات من الكوفة والحلة إلى الناصرية والبصرة ، فتفعل فعلها الساحر في نفوس الشيعة الناقمين على الاحتلال والحكم والملك ، وعلماء النجف ومنهم الفقيد ، كانوا في عهد الغزو الانكليزي كما كان علماء الأزهر في عهد الغزو الفرنسي لمصر ، اليهم يرجع الأمر ، وعنهم يصدر التوجيه ، وعليهم يعتمد العامة .

كنت في مطلع العام الثلاثين من هذا القرن في بغداد أؤدي واجباً أدبياً في دار المعلمين العالية ، وكان الملك في أيدي العرب ، والحكم في أيدي الانكليز ، والمناصب أعلاها في يد هؤلاء ، وأدناها في يد أولئك ، فكانت الحال في ذلك الحين محنة ابتليت بها كفاية الملك ؛ فالانتداب البريطاني كان قبل الملكية يعمل في العلن ويحمل التبعة ، فأصبح بعدها يعمل في السر ولا تبعة عليه .. والحكومة العراقية، كانت بادية البلى ممزقة الجوانب ، لا تستطيع بخروقها أن تستر العرش ، فالملك بحكم الوضع كان يستر الانكليز ، ولكن الوزارة بحكم الضعف كانت تكشفه ، فكانت أوزار أولئك وأخطاء هؤلاء تحمل في رأي المعارضة والشعب على الملك ..

والشعب العراقي على اختلاف نوازعه وعقائده وأجناسه ناقد متمرد ، طموح ، لا يصبر على مقت ولا يغفل عن خطأ . وكانت الشيعة أشدّ الناس ضيقاً بهذه الحال ، لأنهم كانوا على كثرة عددهم ووفرة ثرائهم ، قليلي الحظ من المناصب القيادية . ومرجع ذلك إلى أن الذين مالأوا فيصلا في ثورة العرب على الترك في الحجاز وآزروه على تبوؤ العرش الأموي في الشام وهاجروا معه بعد ميسلون إلى حاضرة الملك العباسي في العراق .. كانوا من الضباط العراقيين السنّيين الذين ربتهم تركيا في

مدارسها ، وأعدتهم للحكم والحرب ، كجعفر العسكري وياسين الهاشمي ونوري السعيد ، فثبتوا أركان الدولة ، وتقلدوا مناصب الحكومة ..

والشيعيون في العراق ، والمارونيون[١] في لبنان ، كانوا في خلافة بني عثمان كالموالي في خلافة بني أمية . أبعدوا عن مناصب الدولة ، فاشتغلوا بالعلم ، وحيل بينهم وبين موارد الثقافة في عاصمة الخلافة ، فاعتمدوا في التعليم على أنفسهم[٢] . وكان اعتماد الشيعة في التعليم على النجف . والنجف كانت كالأزهر لا تخرج الا فقهاء في الدين وعلماء في اللغة . أما سائر الشعب فقد ظل تابعاً لهؤلاء ، يسير على هديهم ، وينزل على حكمهم ، ويجري أمور دينه ودنياه على سُنتهم . فلما كانت الملكية الفيصلية لم تجد في أكثرهم من يصلح للوظائف العامة ، فتولاها إخوتهم من أهل السنة . لذلك كان أول ما أثار عجبي بعد قدومي الى بغداد أني وجدت وزير المعارف أمياً يختم ولا يوقع بقلم . فلما سألت عن السبب ، قيل لي : إن العرف جرى بأن يكون في الوزارة عضو شيعي ، وهذا الرجل ثريّ مسالم ، فوقع اختيارهم عليه .

ولا ضير أن يكون وزير المعارف أمياً ما دام الأمر كله بيد المستشار الانكليزي . وقد جربوا في الوزارة من جربوا من أئمة الشيعة فلم يحمدوا التجربة ، لأن هؤلاء العلماء كانوا يستريبون بحاشية القصر ، ويستوحشون من دار الاعتماد ، فأرادوا أن يغلوا أيديهم ويكفّوا من ألسنتهم ، فمنعوهم وِرْدَ الفرات ، والفرات نهر الشيعة تنزل على ضفافه الخصيبة القبائل البدوية ، ويفرض المجتهدون بقواه المادية والروحية ،

---

(١) لأن الشيعة في نظر العثمانيين هواهم مع ايران ، وان المارونيين ضلعهم مع فرنسا .

(٢) المدارس لم تمنع عنهم ولكنهم هم امتنعوا عنها ، لأن أكثريتهم اشتغلوا في التجارة ، وقليل منهم طلبوا الفقه وعلوم الدين لأنه مصدر للدنيا والآخرة .

وتقسمت الأهواء والآراء سياسة البلاد ، فحزب يؤيد الانتداب لأنه سند العرش وانتظام الحكومة ، ومصدر القوة ، ويتزعمه نوري السعيد . وحزب يناصر الشعب لأنه صاحب الأرض ومادة الجيش ومصدر الانتاج. ويتزعمه ياسين الهاشمي . وهوى الشيعة طبعاً مع هذا الفريق لبعض الأسباب التي ذكرت[1] (كذا)، وفقيدنا الشبيبي كان في بؤرتها من الاحداث، يتجمع فيه شعاع الوطنية ثم ينتشر عن شعره ونثره هدى للقلوب وضياء في الاعين . كان هواه مع المعارضة فاذا وزر ياسين أدناه ، وإذا وزر نوري أقصاه ، فتولى وزارة المعارف خمس مرات لم يلبث في كل مرة إلا بمقدار ما يصمد بحزبه من دسائس البلاد ووساوس الانتداب ، وقليلاً ما يصمد . فما الذي جعل من طالب العلم الديني في النجف الاشرف عالماً ذا كتاب ، وكاتباً ذا قلم ، ومحارباً ذا سيف ، وسياسياً ذا وزارة، ومصلحاً ذا رسالة ، ومجمعياً ذا رأي ؟!

إن نسبه العريق في العلم ، وإن حياته الطويلة في العمل ، ليجيبان عن هذا السؤال أبلغ الجواب :

ولد محمد رضا بن محمد جواد بن شبيب بمدينة النجف سنة ١٨٨٨ في أسرة معروفة بالعلم ، موصوفة بالسيادة ، فقد كان جده شبيب الذي ينتسب اليه ، من اعلام الفقهاء المحدثين في عصره ، وقد ورث بنوه فيما ورثوا ، الميل الى علوم الدين وما يقيم عليها من وسائل ، فتهيأ رضا لتلقي الأمانة بحفظ القرآن وتعلم الخط على مقرئة صالحة ، ثم طلب علوم اللسان والعقل على طائفة من خيرة علماء العرب والفرس ، ذكرهم في ترجمة حياته .. وكان ميله الغالب الى علوم المنطق والفلسفة والأدب، فقرأ فيها أمهات الكتب ، وجمع منها نوادر المخطوطات ، وكان منهج

---

(١) العشائر وهم الكثرة مع الحاكم القائم ، ولا رأي لهم .

التعليم في النجف على النمط القديم ، يلازم الطالب أستاذاً بعينه ، حتى يخرجه فيه ويجيزه به .

الا أن مجالس كانت تعقد في أروقة النجف يغشاها كثير من الطلاب ليستمعوا إلى محاضرات في الأصول والفقه يلقيها أئمة العصر ، كمجلس الأصول للملا كاظم الخراساني ، ومجلس الفقه لفتح الله الملقب بشيخ الشريعة . وكان من بين هؤلاء الطلاب فقيدنا الشيخ الشبيبي .. فلما استحار شبابه واكتملت آلاته وبرزت شخصيته ، تحركت في نفسه نوازع القيادة الأصيلة في بيوت العلم في النجف . وعلماء الشيعة في العراق وإيران ظلوا في جميع العهود قوّامين على الناس ، لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإشارة من مجتهد أو مقالة من عالم . لأن وراثة الأئمة الاثني عشر كانت فيهم ، وجباية الصدقات كانت في أيديهم .. ومن هناك نشأت لهم في المجتمع الشيعي أرستقراطية طبقية وزعامة قومية ، كان لها في أقاليم الفرات الأثر الفعال في كل ثورة ..

والشبيبي كان واحداً من هؤلاء العلماء يرى في نفسه ، بحكم مرباه ، وطبيعة بيئته ، زعيماً بطبعه ، سياسياً بنشأته . فلم يكد فجر اليقظة العربية يلوح في الأقطار العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى ، ومنها العراق ، حتى ألّف من شباب النجف والكوفة وكربلاء والحلة جماعة تدعو إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي ، وجعل يذيع منهج هذا الاصلاح بشعره ونثره في المجلات المغربية والسورية والعراقية . ويقول مؤرخو الأدب العراقي الحديث إنه من أوائل من طرق الموضوعات الاجتماعية وتناولها في شعره من بين شعراء العراق ، وأولهم على الاطلاق بين شعراء النجف . ومنذ يومئذ أخذ ذكره يسير ، وشعره يروى ، وأمره يظهر ، حتى احتل الانكليز العراق ، وأقاموا حكومة من ضباط الجيش تستند إلى حاكم بريطاني عام ، لا إلى زعيم عربي مستقل . فرأى العراق أن

وعد مكماهون مكذوب ، وأن عهد الحلفاء منقوض ، وأن الغدر بالعرب مبيّت ، فهبّ يطلب من المحتلين أن يكشفوا الغطاء عن بصره ليرى ، وأن يرفعوا الكمامة عن فمه لينطق ، وأن يعقدوا مؤتمراً يمثل الشعب العراقي ليقرر نظام الحكم ، ويختار رئيس الدولة . فأبى الانكليز عليه ذلك ونفوا من نفوا واعتقلوا من اعتقلوا . فثار العراقيون عليهم ثورة الأباة الأعزة بعد أن أفتاهم أئمتهم بالجهاد المسلّح ، وغذّاهم أدباؤهم بالشعر المثير ، وذلك قول الشبيبي :

بني يعرب لا تأمنوا للعدى مكرا
خذوا حذركم فالقوم قد أخذوا الحذرا
يريدون فيكم بالوعود مكيدة
ويبغون إن حانت بكم فرصة غدرا
فلا يخدعنكم لينهم ، وتذكروا
أضاليلهم في الهند ، والكذبَ في مصرا
ومن مات دون الحق ، والحق واضح ،
إذا لم ينل فخراً ، فقد ربح العذرا

وكان من رأي الشبيبي في الاجتماع الذي عقده الحاكم الانكليزي في النجف أن تقوم في البلاد دولة عربية سيدة ، وحكومة دستورية مستقلة. فلم يكد الحاكم العام يدرك ما قال حتى قاطعه بضربة من يده على المنضدة. فثارت الحفيظة بالعربي الأبي ، فانتفض انتفاضة الغضب ، وولى ظهره الحاكم وخرج . وخرج معه أكثر القوم . ثم أخذ يؤرث النار على الغزاة بين قبائل الفرات ، مرة بالدين ، ومرة بالشعر . حتى رأى هو ورفاقه أن يصلوا أسبابهم برجال الثورة العربية في الحجاز وسوريا ليوحدوا ألوية الجهاد في مختلف البلاد ، فجمع الحقائق ، وحرر الوثائق ، وسافر مندوباً

عن العراقيين في أواخر سنة ١٩١٩ إلى مكة عن طريق البادية ليقابل الحسين، ثم إلى دمشق ليلقى فيصل، فكانت وثائقه التي حملها، وحقائقه التي رواها، قوة من الحق والواقع تجهّز بها فيصل أمام الحلفاء في مؤتمر الصلح. ثم قرّ قراره في دمشق سنة كاملة شارك في حوادثها وجرى في مجاريها، واجتهد لياسين وصحبه بالمشورة، وتحرى الملك وحاشيته وجوه النصيحة، حتى قررت عصبة الأمم أن الأقطار التي انفصلت عن تركيا لم تبلغ الرشد، فلا بد أن تقوم عليها وصاية من الدول الكبرى، فانتُدبت انكلترا لفلسطين والعراق، واختيرت فرنسا للبنان وسوريا.

فخرج العرب بذلك القرار من ظلم معلوم إلى ظلام مجهول، ومن استبداد الفوضى الى استعداء منظم، ومن سلطان دولة ضعيفة إلى سيطرة دول قوية.. هنالك عصفت النخوة في نفوس الأدباء ورؤوس القادة، فقطرت الأقلام سماً في هجاء الحلفاء، وسالت النفوس دماً في وقعة ميسلون، ولكن قدر الله غالِب، والمعتمد على غير الله مغلوب، فانتقم الصليبيون من العرب، وانتصر القائد غورو على الملك فيصل، وتبددت فكرة الجامعة العربية كما يتبدد الحلم الجميل في حقيقة اليقظة..

رأى الشبيبي ذلك كله بعينه. رأى العرش العربي وهو ينثلُّ في دمشق، والملك الهاشمي وهو يفرّ من فلسطين، فلم يجد بداً من النجاة بنفسه على ظهور الإبل إلى العراق.

وفي النجف رأى ثورة الفرات وقد تركها شراراً يتطاير هنا وهناك وقد أصبحت أواراً يرعى العدوّ رعي الهشيم، فشايع الثوار، وشيّع النار حتى رأى الانكليز أن الثورة جدّ، وأن مقاومتها هزيمة، فأذعنوا كعادتهم لسلطان القوة، واستجابوا على رغمهم لمطالب الأمة، ووطأوا عرش الرشيد للملك فيصل، فاعتلاه في أوغسطس عام ١٩٢١. وذكر رجال العهد الجديد للكريم الفقيد مواقفه الجُلّى من قضية الاحتلال

وثورة الاستقلال ، فكان الملك يستزيره ويستشيره ، ثم أسند اليه منصب الوزارة خمس مرات ، أولاها في وزارة الهاشمي سنة ١٩٢٤ وآخرها في وزارة الصدر سنة ١٩٤٨ . واختير عضواً في مجلس الأعيان فرئيساً له سنة ١٩٣٧ ، ثم انتخب عضواً في مجلس النواب فرئيساً له سنة ١٩٤٣ . وكان كما قلت ، لا يلبث في كل منصب تولاه إلا ريثما يبدأ عمله المستقل ويبدي رأيه المعارض ، والاستقلال والمعارضة يأباهما العرش القائم على كواهل الانكليز [١] .. والانكليز كانوا الفاعل المستتر في جميع أعمال الدولة ، وهم لا ينسون أن الشبيبي حاربهم مع الأتراك في القرنة ، وقاتلهم مع العرب في الثورة ، فمن الطبيعي أن يسلطوا عليه جلادهم نوري السعيد [٢] . فوضع في طريقه العوائق ، وراح يدس من حوله الدسائس حتى يعيده يائساً إلى عزلته في الكرادة ، يبحث ويؤلف ، ويحقق ويحاضر ، ويمد المجامع العلمية في بغداد ودمشق والقاهرة بثمرات فكره ، وحصيلة اطلاعه . وإن مجمع اللغة العربية ليشهد أن فقيده الكريم لم يتخلف عن شهود مؤتمر من مؤتمراته منذ انتخب عضواً فيه سنة ١٩٤٨ إلا مرة واحدة ، ولم يحضر دورة من دوراته إلا مزوداً بطائفة من البحوث القيمة والملاحظات الصائبة والاقتراحات السديدة ، كان يلقيها علينا في تواضع فيه عزة ، وتؤدة فيها ثورة ، وثقة فيها يقين ، جاءه من سعة علمه وصحة تثبته .. ذلك إلى سمو في خلقه ، ونبل في هواه ، وبروز في ذاته ، جعلته طوال عضويته في المجمع عميداً لأعضائه الشرقيين بحكم الواقع .. يتكلم عنهم يوم افتتاح المؤتمر ويوم اختتامه . ولجهاده الطويل المثمر في

---

(١) كان الانكليز يتهمون الملك فيصل بأنه يشجع المعارضة ويوحي اليها بالرأي والمطالبة ليحصل الوطن بعض حقوقه من يد الاستشارة الانكليزية ويستخلص القليل من المعتمد المتصلب .

(٢) كان الشبيبي قد شارك انقلاب بكر صدقي بقبوله منصب رئاسة الأعيان ، ونوري يحقد على كل من أسهم في الانقلاب أو قبل عملاً مهماً في حكومته ، ولا ننسى أن الشبيبي من جهة الهاشمي في المعارضة ومن أصحاب المدفعي ..

سبيل العرب والعربيـة ، كرّمته جامعـة القاهرة حتى منحته درجـة الدكتوراه الفقهية في الأدب والتاريخ ، واحتفت به أندية الأدب ومعاهد العلم في عواصم العروبة ، تقديراً لجهوده للعلم والسياسة . ثم كان من آثاره على الوحدة أن دعا إلى عقد مؤتمر المجمع في بغداد توثيقـاً للرابطة وتوحيداً للوجهة ، فانعقد هناك استجابة لدعوته وتحقيقاً لرغبته ، ولكن صاحب الدعوة وا أسفاه لم يحضر الدعوة ، كان يشهـد الاحتفال بليـلة الإسراء في القدس في جمع من علمـاء المسلمين ، فلم يكد يدرك المؤتمر حتى أدركته الوفاة وخلا مكانه ، وذهب هذا الفضل كله ، وهذا العلم كله في فجأة من فجآت القدر ، وخلجة من خلجات المنون ، فـلم يغن عنه طب الطبيب ، ولا حب الحبيب ، ولا أمسّ الحاجة اليه .

كان الشيخ محمد رضا الشبيبي من العلماء المكثرين والشعراء المقلين ، فله في العلم عشرات المؤلفات والمقالات . وأما الشعر فله ديوان مفرد ، ذلك لأنه كان يبذل العلم للناس ، ولكنه كان يقول الشعر لنفسه .. ونفسه كانت لا تكلفه الشعر إلا لخاطرة تجيش في ذهنه ، أو عاطفة تندس في حياته ، أو واقعة تنطبع في حسه . فلم يقرض الشعر عن طلب ولم يقرضه لمناسبة . وقد سأله بعضهم أن ينظم في معنى معين ، فقال له : لا ينبغي لأحد أن يقول للشاعر : إنظم في كيت وكيت ، إنما الشعر شعور يجيش في النفس فيجري على اللسان ..

وشعره ، على قلته من محكم الشعر وجيده . نحا في معانيه منحى المعري في النقد والحكمة ، ونهج في أسلوبـه نهج الحمـداني في الجزالة والعذوبة ، فمن معرياته قوله :

يا لـلرزية ! كم يفـرّق بيننـا ... وتضلـّنا الأضغـان والأحقاد !
جـادت علينا عصبة روحيـة ... شقيت بها الأرواح والأجساد
ذلوا بجبهم المعـاش وبرهنوا ... أن ليس من بعد المعاش معاد
ذهبوا بدعوى في الصلاح عريضة ... إن الصلاح من الشيوخ فساد
يتثاقلون ويجبنون عن العُلى ... ليقـال إن شيوخنـا زهّـاد
لا يحسدون على المعـالي أمـة ... وهُمُ عـلى علاتهـم حسّادُ
إن الزعامة سلمت لزعانف ... في الشرق قادوا أهله فانقادوا
أنظرإلى الأعجاز كيف تصدرت، ... وعمائم السادات كيف تسادُ
شرُّ العصور،وفي العصور تفاوت، ... عصر بـه تتقـدم الأوغـاد

ومن حمدانياته قوله في مدينة صيدا ، وقد زارها في رحلته السياسية سنة ١٩٢٠ :

رحلت اليهـا بالصبابة انهـا ... مدام فتى مـثلي صباباته كثر
عمدت الى كأس السلو فذقتها ... وكأس الجوى طعمان أحلاهما المر
لقد أطلقت صيداء طائر أيكة ... ببغداد أعيـاه وأرهقه الأسر
غريباً من الأطيار فيها توافرت ... خوافيه واشتدت قوادمه العشر
وأزعجني من بلدتي مزعج القطا ... فهل أنتِ يا صيداء -لا بلدي- وكر
نعم لم يزل يعتاد قلبي اضطرابـه
كما اضطربت ضمن الشباك القطا الكدر
أأنسى زمان الكرخ والكرخ معرس
وتذهب عن ذكري الرصافةُ والجسر ؟
هوى البحث أقصاني ومـالي جـانب
- أبى الله - عن زوراء دجلة مزور

ومما انفرد به عن أبي العلاء وأبي فراس وطنياته التي تُوثِّب النفوس

على المستعمر ، وتشيع الوئام بين الأخوة ، وتدعو العرب إلى الوحدة :

كونوا الوحدة لا تقسمها نزعات الرأي والمعتقد
أنا بايعت على أن لا أرى فرقة ، هاكم على هذا يدي

ثم اجتماعياته التي تصور العيوب ، وتظهر النقص باللسان العف الذي يتميز به ، والبيان الحق الذي ينطبق عليه ، وذلك كقوله :

فتنة الناس ، وقينا الفتنا ! باطلُ الحمد ومكذوب الثنا
ربّ جهم حوله قمرا وقبيح صيّراه حسنا
أيها المصلح من أخلاقنا أيها المصلح ، الداء هنا
كلنا يطلب ما ليس له كلنا يطلب ذا حتى أنا
ربما تعجبنا مخضرة أربع بالأمس كانت دمنا
لم تزل ـ ويحك ـ يا عصر أفق عصر ألقاب كبار وكنى
حكم الناس على الناس بما سمعوا عنهم وغضوا الأعينا
فاستحالت ، وأنا من بعضهم ، أذني عيناً وعيني أذنا
إننا نجني على أنفسنا حين نجني ثم ندعو : من جنى؟
بلغ الناس الاماني حقة وبلغناها ، ولكن بالمنى
أخطأ الحقّ فريق بائس لم يلومونا ولاموا الزمنا
خسرت صفقتكم من معشر شرَوُا العار وباعوا الوطنا
أرخصوه ولو اعتاضوا به هذه الدنيا لقلت ثمنا
يا عبيد المال ، خيرٌ منكم جهلاءُ يعبدون الوثنا
إنني ذاك العراقيّ الذي ذكر الشام وناجى اليمنا
إنني أعتد (نجداً) روضتي وأرى جنة عدن (عدنا)

أما أحاديث نفسه ومطامح هواه ، فقد عبر عنها باللفظ المونق ، والاسلوب البكر ، والخيال القصد بين العقل والقلب . ومن يسمع عنه

شيئاً لا يجد في أذنيه صدى يتجاوب لشاعر سابق ، ولا نغمة تتردد من لحن قديم ، ولو كان المقام مقام تفصيل وتحليل لذكرت الادلة ، وسردت الأمثلة ، ولكنْ حسبي في مقام الأسى أن أذكر أبياتاً تدل بمبناها ومعناها على أن الشاعر الفقيد كان إذا تخلص من كساد التقليد ، وأخفتَ في مسمعه أصوات الماضي ، عاد إلى طبعه الأصيل وفكره الحر ، فيأتي بالمعنى الطريف في الأسلوب البديع . كقوله في واقعة، حال تردد في عزمه بين العقل والهوى :

قلبي يريد بـلا غبٍّ زيارتكم ... والقلب ينهاه إلا بعد إغباب
قضية بقياس الروح موجبـة ... والنفس جنبتا سلب وايجـاب
ما أنت ممن يريد الحب فلسفة ... - يا قلب - ذاتَ براهين واسباب
تنبـه القلب للسلوى يحركني ... فنبهت حركاتُ الشوق أعصابي
ما زال في الصلوات الخمس ذكركم ... نجوى مصلاي أو تسبيح محرابي
لم أدر ما أتهجّى ، غير أنكم ... في اللحن لحني، وفي الإعراب إعرابي
قد يحجز الدهر ما بيني وبينكم ... مذ ساعة فأراها منذ أحقـاب
وطالما حرت في وجه ولم أرني ... الا وقد عَلِقت عيناي بالباب[1]

وكان للشبيبي رضوان الله عليه ، تجديد في عمود الشعر ، ولكنه تجديد المحافظ لا تجديد المضيع . جدّد في المعاني والأغراض ، وحافظ في الأوزان والقوافي ، فهو يقول على نحو ما قال أبو نواس ، بالامس من قبل :

الى الآن لا يستملح الشعر إن علا ... ولا يستجاد القول إن لم يلفّق
قريض طلول دارسات وأربـع ... وشعر جِمـال سائرات وأينق

---

(١) الابيات اشبه بشعر الزهاوي ، وفلسفته الباردة ، بل هي من غزل الفقهاء .

مقيـدة أبوابـه وفنونـه وأدهى دواهي الشعر تقييد مطلق
إذا لم يحنك الشعر عفواً تحامَهُ وان لم يسعك الخلق لا تتخلقِ[1]

وهو بعد ذلك كله يؤلف مع الرصافي والزهاوي والكاظمي والنجفي الأوتار الخمسة لقيثـارة الشعر العراقي في الثلث الأول من هذا القرن . على تفاوت بينهم في الجهورة والهمس والغلظة والرقة والضحولة والعمق . وكان هو من بينهـا الوتر الحساس الذي ولا يمله سمع لا يمجه ذوق ولا ينكره فن .

أما نثره فهو نثر العالم ، لا نثر الاديب ، لأن النبوغ في الصناعتين قلما يتفق لأحد .

وميزة الأسلوب العلمي أن يكون لفظه قدراً لمعناه ، وطريقه قصداً لغايته ، كقوله مثـلاً : « نحن الآن في عصر الشك كما يقول فريق من أهل الغرب . ومن ذلك أن شكنا الآن يتناول حتى أسس الثقافة التي يريدها معظم الغربيين للشرقيين ، ومن بين هذه الأسس غمز الشرقيين ، والتنديد تصريحاً أو تلميحاً بقيمة أثرهم في الحياة حتى ضعفت ثقة شباب الشرق بأنفسهم وببطولة أسلافهم ، وتلاشت في بعض الجهات وحل محلها الثقة المطلقة بتفوق الغربيين إلى أن نشبت الحرب العالمية الأخيرة وأسفرت بعد أن ظهرت أسبابها ونتائجها للعيان عن حركة فكرية عامة تجتـاح الآن أفكار البشر بدون تمييز . ويتوقع أن يكون من هذه الحركة الفكرية رجوع القوم عن الشطط في أحكامهم على الشرق والشرقيين ، ونبـذ دعوة التفوق الغربي الموهوم والتسليم بتكافؤ المواهب والكفايات في أصل فكرة الجنس البشري . فليس في الدنيـا من هذه الناحية شرق ولا غرب ، بل بشر يتداولون التفوق والغلبة وفق أحكام سنة الكائنات

(١) حذف فاء جواب الشرط من تحامه ولم يجزم ، ومن « ولا تتخلق » ، وهي ضرورة لا تجوز .

العامــة .. ولا شيء أفضل في تجديد شباب الشرق ، واستئناف قواه للعمل في سبيل حضارته من رسوخ هذه العقيدة فيه » .

وما كتبه في أواخر أيامه قوله لمقدمة كتابه « أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية » : « من أهــل زماننا قوم شغفوا بالجديد ، لأنه جديد ، وذهبوا إلى استبعاد القديم من تراثنا في الأدب والفنون لأنه قديم ، والحق يقال إن العبرة في الشعر ليست في حداثة عهده على ما يراه قوم ، ولا في قديم عصره كما يذهب اليه آخرون بل العبرة في هذا الباب بلطف المعنى ، وسلامة المبنى ، وبلاغة العبارة ، وصدق العاطفة ، وجمال الشعور والتصوير . وان من الشعر لما يهز النفس ويرضي الوجدان ، وان من الشعر لما يلهم الصواب ويهدي إلى الحكمة .. فإذا توافرت في الشعر القديم هذه الخصائص ، فهو شعر جديد . وإذا خلا منها الشعر الحديث ، فهو شعر رث عتيق ، هذا ولا أبالغ إذا قلت إني عاهدت نفسي واخواني الدارسين ألا يجدوا في هذا البحث إلا كل شيء جديد ، جديد في الجوهر والروح ، قديم في الشكل والصورة . وهــذا هو أسلم المقاييس في حكمنا على القديم والجديد » . فأنتم ترون – أيها السادة – من هذين النموذجين أن أسلوبه سلس وواضح مقرب لا تغريه تصاوير البيان ، ولا تحليه تحاسين البديع ، لأن التلاؤم والموسيقية والأناقة وغيرها من صفات النثر الفني ، لا تقتضيها أحوال العلوم . والموضوعات التي كان يعالجها فقيدنا الباحث كانت أدخل في باب العلم ، فسبيلها الاقنــاع ، لا الاصناع [1] ، ودليلها المنطق لا الخطابة . فمن مؤلفاته : تأريخ الفلسفة من أقدم عصورها إلى اليوم ، وأدب النظر في المناظرة ، وتذكرة فيما عثر عليه من الكتب والآثار

---

(١) لعلها : الاصطناع .

النادرة ، وفلاسفة اليهود في الإسلام . لخص فيه فلسفة ابن كمونة وابن ملكا ، والمأنوس من لغة القاموس ، ومؤرخ العراق ابن الفوطي ، والمسألة العراقية ، وتاريخ النجف ، وأدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية ، ثم « تراثنا الفلسفي » وهو آخر كتاب طبع للفقيد . ومن بحوثه التي ألقاها في مؤتمر المجمع : النهضة الأدبية في العراق ، والألفاظ الايوبية في كتاب تقويم النديم ، وبين الفصحى ولهجاتها ، وفي فقه الاساليب ، ومصادر الشك في كتاب العين ، وسنة التطور في اللغة ، وفي تأريخ اللهجة المصرية ، وبلبلة اللهجات وأصول اللهجة العراقية ، وابن خلكان وفن الترجمة ، ولهجات الجنوب ، وتراثنا القديم في المصطلحات ، وثقافتنا اللغوية في عصر المغول ، وبين مصر والعراق في ميدان العلاقات الثقافية . وقد سردتُ هذه العناوين سرداً لأقول إن طبيعتها هي التي فرضت هذا الأسلوب العلمي ، فأبنت بين صيغ الفن في شعره ونثره ..

أما بعد أيها السادة ، فهذا موجز لحياة رجل عظيم ، أقل مفاخرها موضوع كتاب ، وجملة مآثرها تأريخ خطبة ، والرجولة والعظمة صفتان يجمعهما ما أوتي من مناقب ، مصدرها خلقه ، ومواهب مصدرها علمه . كان رجلا بالمعنى الرفيع الذي يفهمه المهذب من لفظ الرجل ، وكان عظيما بالمعنى البديع الذي يدركه المثقف من كلمة العظيم ... ولو ذهبت لأحلل حياته إلى عواملها الأولية لوجدتها من الخلال : الصدق ، والصراحة والاباء ، والشجاعة . وهذه هي الرجولة ، وفي الاعمال : العمق ، والشعور ، والاتقان ، والتفرد . وهذه هي العظمة . وفَقْدُ رجل كهذا الرجل ، حياته تأريخ ، وعمله رسالة ، وخلقه قدوة ، وكفايته ثروة ، خسارة انسانية لا خسارة قومية ، ومصاب أمة لا مصاب أسرة ، وفجيعة منفعة لا فجيعة عاطفة ..

وكان ، لا ينافق ، ولا يمالق ، ولا يداهي [1] ولا يداجي ، ولا يقول إلا ما يصح في رأيه ، وهذه الصفات قد تجعل المصلح عظيماً ، ولكنها لا تجعله زعيماً .. ولا أقصد الزعامة السياسية ، فان السياسي في أمم الشرق كان إذا تجهز لها بالضمير والمنطق والصراحة والصدق ، هاجمه خصمه بالأباطيل الغاشية فيَظْهَر عليه . ووقف منه جمهوره على الحقيقة العارية فينفر منه . لذلك عجز الشبيبي آخر الأمر عن التوفيق بين هواه والعامة ، وبين خلقه والسياسة ، وبين ضميره والحكم ، فارتد إلى العلم والأدب يؤدي عن طريقهما واجبه ، ويشغل بمطالبهما وجوده ، وفي هذين الميدانين جاهد فأبلى ، وقاد فانتصر ، وأصلح فزعم . رحم الله ذلك العربي الحر ، والوطني الصادق ، والمجاهد المخلص ، والوزير النزيه ، والعالم الحجة ، والمجمعي الباحث ، والشاعر المجيد ، والناقد البصير ، والاديب المطلع . وألهمنا على فقده جميل الصبر ، وعوضنا من بعده خير العوض ..

---

(١) لعلها : يداهن .

بين الزيات والراوي

كان استاذنا الجليل طه الراوي كثير الاهتمام بالأساتذة العرب الذين يفدون إلى بغداد ، زائرين ، أو تستقدمهم وزارة المعارف . ويهش لرفقتهم ويفتح صدره وبيته لهم ، يكرمهم ويولم لهم ، ويتعهد مصالحهم ، ويصفي لهم المودة . ولا سيما الأدباء منهم ، والذين يقومون بتدريس العربية . وقد جرى استقدام أكثرهم بدلالته واستشارته ، فله رحمه الله صداقــات ومودات مع أحمد أمين والعبادي وابراهيم مصطفى وعبد الوهاب عزام وعبد الرحمن عزام وزير مصر في العراق وزكي مبارك ومبروك نافع وهاشم عطية وبدوي طبانة ، ومنهم الزيات . وهذه رسالة من الزيات تفصح عن هذه الرابطة :

من الزيات الى صديقه الراوي

القاهرة في ٧ – ٣ – ١٩٣٨

صديقي الاستاذ الجليل السيد طه الراوي .

لا أحب أن أتحدث في هذه الرسالة عما أحمل لك في قلبي من جميل الأثر ، وأكن لك في نفسي من عظيم التجلة ، فان معرض ذلك في خطاب يشبه أن يكون رسمياً فيــه معنى لا أرتضيه لنفسي ..

فلأترك ذلك اذن الآن ، ولأتحدث اليك حديث رجل يخدم الثقافة لرجل يهيمن عليها في قطر من أقطار العروبة . الرسالة يا سيدي الأستاذ هي المجلة الوحيدة الروحية والثقافية . وتكاد اليوم تكون لساناً للأدب العربي في جميع أقطاره . وهي كذلك تساعد المدرسة على أخذ الناشئة بالأخلاق العربية والأساليب الأدبية ، وفي سبيل ذلك تضحي بالوسائل الصحفية التي تجلب المادة وتكسب النفوذ . فهي لا تتملق شهوات الجمهور ، ولا تستجيب لرغبات الحكومات ، ولا تعتمد على الاعلان ، ولا تستغل فضائح الناس . عرفت ذلك الحكومة المصرية ، فساعدتها بالاشتراك فيها لجميع مدارسها ومكاتبها بألف نسخة ، وكنت أرجو أن تعطف عليها وزارة المعارف العراقية بعض العطف فتزيد في اشتراكها بعض الزيادة . وقوّى في نفسي هذا الرجاء منذ أسندت ادارة المعارف إلى كفايتكم وخبرتكم ، فانكم أعلم الناس بالخدمة التي تؤدى بها الرسالة إلى الطلبة ، لذلك أكتب اليكم هذه الكلمة أسألكم بها النظر في أمر الاشتراك في الرسالة والرواية لعلكم تجدون الفرصة مواتية لإرضاء ضميركم من هذه الناحية ، وإني أقدم إلى الأخ الفاضل خالص تحياتي وموفور شكري .

المخلص

احمد حسن الزيات

رسالة الاستاذ الراوي الجوابية

أخي الاستاذ الفاضل السيد أحمد حسن الزيات المحترم

تحية مشفوعة بالاحترام : أما بعد ، فاني تناولت كتابكم الكريم بيد الاجلال والابتهاج ، واني لأشكر لكم ما تدفق به شعوركم النبيل



الاديب طه الراوي

تجاه أخ يحمل لكم في أعماق نفسه من الود المقرون بالاكبار والاعزاز ما لا قبل للقلم بتصويره . واني لمعجب جد الاعجاب بما تسديه رسالتك للعلم وأهله من خدمات ، وما تجديه عليهم من يانع الثمار مع البعد عن ضوضاء التهويل والتهارش ، ومع المشايعة للحق والمنافحة عن الصدق في أي المواقف كانا ، هذا وقد أشرنا على الدائرة ذات الاختصاص في وزارة المعارف أن تضاعف عدد ما اشتركت به منها ابتداء من أول نيسان [1] ١٩٣٨ ، وقبل الختام أرجو قبول خالص الاحترام .

المخلص

طه الراوي

الدكتوره عاتكة الخزرجي تثمن أدب الزيات :

ليس أندى على قلب المرء ، وأطرب لنفس الأديب والشاعر ، من كلمة طيبة منصفة يقولها ناقد ، أو يكتبها كاتب يقدر بها أدبه ويثمن بها اسلوبه ، وقد أدبنا الله باريء النسم وخالق الطبائع بقوله الكريم : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة : أصلها ثابت وفرعها في السماء »

---

(١) اشتركت وزارة المعارف بمجلة الرسالة للمدارس الثانوية والمتوسطة ودور المعلمين والكليات والمعاهد وبأعداد لاقسامها الادارية وللمكتبة العامة . وكانت الرسالة المجلة المتميزة من دون بقية المجلات ، مصرية أو لبنانية أو غيرها . تحظى باقبال المتعلمين والاساتذة والموظفين ، فكان يصرف منها بضعة آلاف اسبوعياً ، وكانت عاملاً مهماً في اشاعة مفاهيم الادب العربي وانتشار الوعي القومي والعلمي معاً ، وكانت سبباً من أسباب ارتقاء النثر الفني وشيوع الاسلوب الفصيح على أقلام الكتاب ، ولا شك ان في اختفاء الرسالة خسارة كبرى للقاريء العربي وللبلاغة العربية ، تلام عليه وزارة الثقافة والارشاد في مصر الشقيقة .

والشجرة الطيبة تؤتي أكلها بأذن ربها ، فتنفع الناس والحيوان ، يأكلون من ثمارها ويتفيؤون ظلالها ويتنسمون أرواحها ، وكذلك الكلمة الطيبة يقولها المرء لأخيه ، فتدخل إلى نفسه البسمة والرضى ، وتشيع في نفسه البشر والبهجة ، وتمده بالعون ، فيمضي على الطريقة المثلى ، وتشد من عزيمته وتشجعه على صالح الأعمال ، وتنير له الطريق .

والكلمة الخبيثة « كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار » يبس جذعها ، وتساقطت أوراقها ، وجفت أغصانها ، فلا تصلح إلا للوقود . والكلمة الخبيثة الحاسدة تثبط العزيمة ، وتدخل إلى النفس الظلام ، وتشيع السخط ، وتوهي وشائج الصداقة ، وتوهن الهمة ، وتنشر في القلب الهمّ والغمّ .

وبعد فأدب الزيات جدير بالتقدير ، واسلوبه الرصين قمين بالتثمين . وحق الاكفاء أمثال الزيات أن يقدّر أدبَهم الأكفاء من أمثال الدكتورة الخزرجي . فما زال أدبه يبشر بالفكرة الرصينة ، ويتضوع بالأدب الأصيل ، لا يرضيه الا الحق والجمال والخير ، ويبشر بالمثل العليا ، ويهدف إلى احياء وعي عربي سليم . والزيات في رسالته لم يقصد إلى النجاح واجتذاب الجمهور بتلك الرسائل الرخيصة التي يتوسل بها بعض الكتاب في إثارة الجنس واستهواء القراء بالقصص الغرامية ، لاقتناص الربح بأرخص المغريات ، والإسفاف بالأسلوب إلى مستوى العامة . وإنما كان من دأبه أن يرفع الجمهور إلى المستوى الذي يتذوقون به الأدب القويم والاسلوب الفصيح ، ظلت رسالته محلقة تمثل في الأدب المذهب السديد الذي يزاوج بين القديم والجديد ، وتحرص على الرفعة والجدة ، وتؤدي ثقافة سليمة بأسلوب عربي مبين . وقد ثمنت الدكتورة

الفاضلة أدب الزيات بأسلوبها الرصين قبل أن تعرفه شخصياً ، وقبل أن يكتب مقدمة ديوانها ، فكانت بحق كلمة رائعة جاءت تقدير الكفء للكفء ، وتثمين الناقد المنصف للاديب الأريب . والدكتورة عاتكة لها ملكتها الفنية وتربيتها الأدبية وحسها المرهف الشاعر ، وقد أوتيت الأداة الصالحة والتمييز الصادق لهذا التقويم القويم .

واني لمغتبط أن أضم هذه الباقة العبقة من حديث صاحبة (أنفاس السحر) و (لألأ القمر) إلى كتابي .

★

اسلوب الزيات

للدكتوره عاتكة الخزرجي

استاذة الأدب بجامعة بغداد

الأستاذ أحمد حسن الزيات أديب كبير من أدباء العرب المعاصرين ، وإمام ثَـبت ثقة من أئمة البيان ، في لغة القرآن . وإن الفكر ليحار ، وإن اللسان ليعجز إن أراد أن يحصي بعض ما للرجل من أياد غُرّ على العربية وأهلها في ميادين الأدب والعلم والسياسة . ومآثره في هذه الميادين جميعاً كُثر ، ليس إلى حصرها من سبيل .

فالرجل في الأدب إمام من أئمة النثر الفني ، وهو ذو أسلوب أيسر ما يوصف به أنه السهل الممتنع والقريب المحال والمطمع المعجز . وناهيك بأسلوبٍ هذه سماته وتلك مميزاته .

وإني لأرجو ألا أكون مجانبة للحق إن قلت لك إن الزيات أوضح من الرافعي ، وأسمح من العقاد ، وأوجز من طه حسين . على أن أسلوب الرجل يضم محاسن هؤلاء الثلاثة جميعاً ، أعني متانة الرافعي وعمق العقاد ودماثة طه حسين ، مضافاً اليها سَمتُه هو . وسمت الزيات في أسلوبه شيء فوق الاحاطة ، لأنه فوق الوصف وفوق البيان .

وإننا لنرجو هنا – وحديثنـا عن الأديب مرهون بدقائق [1] – ألا نخفق في محاولتنا وصف أسلوبـه ، هذا الأسلوب الذي حسبه من فخر أن يقال فيه إنه أسلوب الزيات ، وكفى .

من حقك أن تسألني بعد ذلك : ما يكون هذا الأسلوب الذي وصفته لك أول ما وصفت بالسهل الممتنع والقريب المحال والمطمع المعجز ، والذي رفعته فوق الرافعي والعقاد وطه ، أساطين النثر في أدبنا المعاصر ؟.

الحق أن أسلوب الزيات الأدبي أسلوب فرد ، يتميز بطابعه الخاص الذي يرتفع به عن سواه من أساليب الأدباء قدامى ومحدثين ، وهو عندنا أسلوب جامع لأخص خصائص الشعر والنثر معاً ، فله من الشعر خياله المجنح وعواطفه الحادة ووشيه المنمنم ، وجرسه العذب ، فهو في جوهره ووشيه شعر لولا أنه غير موزون ، وهو في سمتـه وهيكله نثر منتظم بارع في نظامه واتساقه ، باهر في فنه وانسجامه ، وهو نثر فني بليغ ، فيه أدق سمات الفن وأجلّ خصائص البلاغة ، وأول ما يسترعي النظر فيه إنما هو إعجازه الواضح ووضوحه المعجز من عمق مركز وتركيز عميق ، وهو يحقق أعلى مثل وأرفع صورة للسهل الممتنع القريب المتعذر.. إن هذا الأسلوب إنما جاء ليحقق لنا في البلاغة قول ابن المقفع المأثور :

« البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن انه يحسن مثلها فاذا حاول عجز » .

وأسلوب الزيات بالغ الأثر مبنىً ومعنى . فكما كان لجرسه في مسمعيك صدى كذلك كان لمعانيه في نفسك أصداء .. ولا عجب « فاذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، منزهاً عن الاختلال ،

---

(١) احسب ان الحديث اذيع اولاً ثم نشر ضمن احاديث الدكتورة التي كانت تلقيها من اذاعة بغداد ..

مصوناً عن التكلف ، صنع في القلب صنع الغيث في التربة الكريمة » على نحو ما يقول لنا الجاحظ .

والزيات ممن هيئت له الاجادة بأسبابها ، واتفق له الاحسان بدواعيه، فواتاه طبعه وحسه ، وأسعفه علمه وفكره ، وطاوعه بيانه وفنه ، فأخرج لنا هذا الأدب الملهَم الملهِم ، وهذا النغم المسكر المطرب ، وهذا الفن المؤنق المعجب ، حتى إنه ليحق لنا أن نقول فيه ما قال ابن الأثير بالبحتري ، من أنه : أراد أن يشعر فغنى .

إنك لا تدري وأنت تقرأ الزيات من أين تؤخذ ، أهي براعة الكاتب في انتقاء ألفاظه ومواءمتها وموسيقيتها حتى لكأنه يعالج منها فناً عالياً في الجرس وحسن الإيقاع ؟ أم هي عبقريته في تصيد حسان المعاني وشوارد الأخيلة ودقائق الأفكار وعرضها في هذا الثوب الرائع في الحلي المنمنم والوشي الجميل ؟ أم هو فنه المغلق الخفي الذي تبهرك آيه وتخفى عليك كوامنه وأسراره ؟ أم هو مزيج بين هذا وتلك وذاك ؟ أسكر الحس وأطرب النفس ، وأعجب الأذن ؟ ونحن إذا آمنا بقول الزيات نفسه من أن « الاسلوب انما هو خَلْق مستمر : خلق الالفاظ بواسطة المعاني وخلق المعنى بواسطة الالفاظ ، وأن الاسلوب إنما هو مركب فني من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه » تكشف لنا بعد ذلك سر تجويد أديبنا الكبير في أسلوبه وانفراده به بين أئمة النثر الفني في أدبنا العربي على توالي العصور . إذ أن قدرة الزيات على المواءمة بين الالفاظ والمعاني ، والتفنن فيها جميعاً قدرة لا يختلف فيها اثنان . هذا إلى توقد في ذهنه ، ورهافة في نفسه ، ورفعة في ذوقه ، قلما تواتي أحداً أو تتفق لأديب .

واني أضيف إلى هذا كله أن السر الاكبر الذي يكمن وراء إعجاز

الزيات في أسلوبه انما هو أصالتـه . فالزيات يستقي من نبع ثر وورد صفو ، وماء عذب ، فيه ري للشاربين . لانه يصدر عن ذاتٍ أعلى ما يميزها الصدق ، وأغلى ما تزدان به الإيمان ، فليس الزيات الا أصيلاً في أدبه ، مؤمناً برسالته ، صادقاً في تأديتها على الصورة المثلى التي يجب أن تؤدى بها الرسالات العليا . ولا تسل بعد ذلك عن أدب معينه الطبع لا التطبع ، وقوامه الصدق لا التصنع . وأنا أقول في أسلوب الزيات ما قال ابراهيم بن العباس الصولي الكاتب في شعر العباس بن الاحنف :

« ما رأيت كلاماً محدثاً أجزل في رقة ، ولا أصعب في سهولة ، ولا أبلغ في إيجاز ، من شعر العباس ... »

وان سألتني بعد ذلك عمن أشبه الزيات في أسلوبه بين الادباء ، فأقول لك انه أعجزني أن أجد له الشبه بين الناثرين جميعاً قدامى ومحدثين ، وما أراني أخطأته بين الشعراء ..

ولا تعجبنّ لهذا القول بعد أن ذكرت لك أول الحديث أن أسلوب الزيات في جوهره ووشيه شعر لولا أنه غير موزون ، ولك أن تسألني من بعد عن هذا الشاعر : من يكون ؟ وأراني أسرع لأقول لك إنه صاحب « سلاسل الذهب الوليد في حلب .. انه الشاعر الذي أراد أن يشعر فغنى » ، صفي المتوكل على الله ، ونجي علوة الحلبية : أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري ، فكلا الرجلين ساحر الأسلوب : يعنى بالجرس ويحفل بالموسيقى . وكلاهما يشف عن طبع صاف وفن أصيل ، وكلاهما احتفى باللفظ وما أهمل المعنى ، ورقرق الخيال وما أبعد عن الحقيقة ، وصدر عن الطبع وما جافى الفن ، وأشدّ ما يلتقي عنده الأديبان .. احتفاء كل منهما حفاوة بالغة بلون واحد من ألوان البيان .. أريد به الطباق المرسل والمقابلة المستملحة ، واحسانها في ذلك احساناً ما بعده لمستزيد زيادة .. احساناً يدفعك إلى الدهش والحيرة ، فما تدري أهي



الاستاذ محمد بهجة الاثري والاستاذ احمد حسن الزيات وعزيز اباضه وعضوان من
اعضاء مجمع اللغة العربية شباط ١٩٧٠

الصنعة التي ما بعدها صنعة ، أم هو الطبع المواتي الذي ما بعده طبع .

وليس أحب إلى نفسي من أن أختار لك من أدب الرجلين الشاعر والناثر ما يوقفك على هذا التشابه الذي ذهبت اليه ، والتوافق الذي أريد لك أن تقرّني عليه . هاك البحتري واستمع اليه مستمتعاً بنمنمة وشيه ورقة جرسه وطرب موسيقاه واعجاز مقابلاته المعجبة المونقة .. اسمعه ينسب ثم يعتب :

يهون عليها أن أبيت متيماً   أعالج أمراً في الضمير مكتما

وقد جاوزت أرض العراق وأصبحت   حمى وصلها مذ جاوزت أبرق الحمى

بكت حرقة عند الفراق وأردفت   سلوا نهى الاحشاء أن تتضرما

فلم يبق من معروفها غير طائف   يلم بنا وَهْناً إذا الركب هوّما

يكاد وميض البرق عند اعتراضه   يضيء خيالاً جاء منها مسلما

ولم انسها عند الوداع ونثرها   سوابق دمع اعجلت أن تنظما

خليليّ كفا اللوم في فيض عبرة   أبى الوجد الا أن تفيض وتسجما

ولا تعجبا من فجعة البين إنني   وجدت الهوى طعمين شهدا وعلقما

وأصيد إن نازعته اللحظ رده   كليلا ، وإن راجعته القول جمجما

ثناه العدا مني فأصبح معرضا   وأوهمه الواشون حتى توهما

وقد كان سهلا واضحاً فتوعرت   رباه ، وطلقا ضاحكا ، فتجهما

أمتخذ عندي الاساءة محسن   ومنتقم مني امرؤ كان منعما

ومكتسب فيّ الملامة ماجد   يرى الحمد غنماً والملامة مغرما

أعيذك أن أخشاك في غير حادث   تبيّن أو جرم اليك تقدما

ألست الموالي فيك نظم قصائد   هي الأنجم اقتادت مع الليل أنجما

ولو أنني وقّرت شعري وقاره   وأجللت مدحي فيك أن يتهضما

لأكبرت أن أومي اليك باصبع   تضرع أو أدنى لمعذرة فما

ولكنني أعلي محلك أن أرى   مدلا وأستحييك أن أتعظما

وليكن مسك حديثي اليك عن الزيات حديث الزيات نفسه اليك .. هاكه في قصته عن « نورا » يسمعك البطلة تروي مأساة قلبها .. أستمع اليها واليه ، وقابل بعد ذلك بين مـا قدمنا لك من أبيات أبي عبـادة وبين ما سنتلوه عليك من نثر الزيات .. استمع اليه يقول على لسان البطلة :

« وبعد .. فقد سمعت الصدى ولم تسمع الصوت ، وأحسست الوهج ولم تمس النار ، وعرفت الجملة ولم تعرف التفصيل ، والحال كما ترى تشتد ولا تخف ، وتستحكم ولا تنفرج ، فهل عندك لقصتي مساغ ولأزمتي فرج»؟

والزيات يقول في موضع آخر من القصة نفسها :

« وانقسمت الاسرة بحكم الطباع والغرائز إلى فريقين بيني وبين القنصل ، فريق الخير وفريق الشر ، أو فريق النور وفريق النار ، أو فريق المعنى وفريق الحس ، فالبنات وأمهن فريق ، والبنون وأبوهم فريق ، ففي غرفتي تجتمع نورا وأختاهـا ومعهن الكتاب والبراءة ، وفي غرفة السيد بكير يجتمع الياس وأخواه ومعهم الشراب والريبة » .

ويقول الاديب الكبير في صدر فصل من كتابه « الدفاع عن البلاغة» ما نصه :

« آفة الفن الكتابي أن يتعاطاه من لم يتهيأ له بطبعه ، ولم يستعن عليه بأداته . وأكثر المزاولين اليوم لصناعة القلم متطفلون عليها ، أغراهم بها رخص المداد ، وسهولة النشر وإغضاء النقد ، فأقبلوا يتملقون بها الشهرة ، أو يزجون بها الفراغ ، أو يطلبون من ورائهـا العيش ، وكل جهازهم لها ثقافة ضحلة ، وقريحة محلة ، ومحاكاة رقيعة . ومن هنا شاع المبتذل ، وندر الحر ، ونفق الرخيص ، وكسد الغالي ، وكثر الكتاب ، وقلت الكتابة » .

ألا بورك بالاديب الكبير وبورك لنا بالمديد في عمره ، ونفعنا الله بالمزيد من غرره .

الدكتوره عاتكة الخزرجي
كلية التربية ، جامعة بغداد

لألاء القمر :

الدكتورة عاتكة الخزرجي الاستاذة في كلية الآداب ، أديبة ناثرة وناقدة بارعة وباحثة ناجحة ، وهي إلى ذلك شاعرة رقيقة العواطف مشبوبة الاحاسيس أنيقة الاسلوب ، وفي قصائدها أقباس من الوجد ، وأنفاس محترقة من الحب الإلهي في لفظ منمق ، ونغم مونق ووشي هو السحر الحلال . نشأتها دراسة متصلة تدرجت بها وقطعت مراحلها بتفوق حتى تسنمت قمتها ، وتسلمت شهادتها العليا من السوربون . وخرجتها ممارسة في النظم والنثر ومعاناة في الدرس والاطلاع على محصول الإنسانية للأدب الحديث والقديم . طبع أسلوبها الرشيق على الطريقة المثلى في فن القول . أخرجت ديوانها (أنفاس السحر) فقدم له الشاعر الكبير عزيز أباظة ، وطبعت ديوانها الثاني (لألاء القمر) فقدم له الاستاذ الزيات . والدكتورة عاتكة كثيرة الاعجاب بأدب الزيات ، كتبت عنه وهو حي ، وأبنته بعد وفاته ، وثمنت أدبه ، وقدرت أثره وخدمته للغة العربية وآدابها . والمقدمة صفحة رائعة من انشاء الزيات الممتع الرشيق ، رأيت أن أثبت نصها لصلتها بموضوع الكتاب ، فهي جانب من جوانب أدبه في العراق :

« هذا الديوان الثاني من شعر الدكتورة « عاتكة الخزرجي » أستاذة الأدب بكلية الآداب من جامعة بغداد ، صدر منذ أسابيع في القاهرة

وقد قدم له الاستاذ رئيس التحرير بهذه المقدمة[1] :

« في الكرخ نشأت ، وفي الكرخ تعيش . والكرخ منذ تعطر جوه الصافي بأنفاس الملائكة يسبحون بالجمال ويهتفون بالحب على ألسنة المصطفين الأخيار من المتصوفين والزهاد ، الذين اجتباهم الله ليكونوا حقيقة لشريعته ، وشريعة لحبه ، لا يزال مبعثاً للحب الإلهي المجرد ، وصرحاً للجمال الروحي المطلق ، ومثاراً لذكريات « الجنيد » و « الحلاج » و « معروف » وأضرابهم ممن يتمثلون جمال الله في خلقه ، ويعبرون عن حبهم إياه ، وفنائهم بالرمز الموحي ، والغزل المثير ، فينتشي بباطنه الزاهد ، ويلتهي بظاهره الماجن ، والقصور إنما هو في اللغة المحدودة التي لا تستطيع أن تعبر عن معاني الروح إلا بألفاظ الحس ، ولا أن تتصور مداخل النفس إلا بمخارج الحروف .

فبينما كانت الشياطين في الرصافة تتنزل بالغزل الجسدي الشهوان ، على القيان والمجان ، فيجدون الألفاظ الطيعة والتراكيب السمحة ، كانت الملائكة في الكرخ تتنزل بالمواجد الروحية والاحاسيس العلوية على العباد والزهاد ، فلا يجدون الكلمة المواتية ، ولا الجملة الدالة ، فيصطنعون لغة بشار وعباس وأبي نواس ، فينعتون المرأة ، ويصفون الخمر ، ويذكرون السكر والعشق والشوق والغناء ، يرمزون بذلك كله للمعبود الأزلي الابدي الذي لا يحيط به علم ، ولا يتعلق به وهم ، ولا تعبر عنه لغة ..

فاذا جمعت الى ذلك أن « عاتكة » صريحة النسب في العروبة ، فأبوها خزرجي وأمها عبيدية ، وانها عريقة النزعة في الصوفية ، فجدها

---

(١) مجلة الأزهر اكتوبر ١٩٦٥ .

كان يقرض الشعر الصوفي ، وأبوها كان يكثر من المحفوظ منه ، وأنها قوية الفطرة بحكم الطبع والوراثة والبيئة على استقبال مواحي الحب واستكناه أسرار الجمال ، أدركتَ سر هذا التفتح الذهني الباكر في التلميذة عاتكة . وهي على صبوات الذكر في مغاني الكرخ ، وشدوات الطير في أعالي النخل ، وصفقات الماء على غوارب دجلة . كان شعرها في هذا الطور إرهاف شاعر ، ودندنة قيثار ، وسقسقة بلبل ؛ ثم لم يلبث أن صار بقوة السليقة وسخاء القريحة وفيض الخاطر وعمق التأمل واكتمال الاداة ، أغاريد صبابة ، وأناشيد حماسة ، وتراتيل أرغن ، وتسابيح صلاة . إن الينابيع الصافية الثرة التي ارتوى على فيضها واغتذى على جناها شعر الدكتورة عاتكة ، هي : الله والطبيعة والنفس والينبوع القدسي ، هو أندى على كبدها وأروى لشعورهـــا من الينبوع النفسي والينبوع الطبيعي ، لانها حين تصف النفس أو تصور الطبيعة يتمثل فيها بديع السموات والارض الذي أحسن كل شيء خلقه ، ومنح كل جميل جماله :

بالذي رقرق الصبابة في القلب وَوَشّى بالحب اثنـــاء نفسي
والذي أبرأ الحنـــايا وأصفـــا ها صفاء الأنداء في ضوء شمس
أنت عندي معنىً به أجد الله حيالي في الصبح أو حين أمسي (١)

وإذا تقسم هواها خواطر النفس ، وظواهر الحس ، فقالت في النخل والنهر ، ونوهت بالوطن والانسان ، وغنت بالحب والحبيب ، فذلك لأن الحب من طبيعة قلبهـــا ، يصدر عنها كما يصدر العبير عن الزهر أو النور عن السراج ، لا يقصد بـــه سمعاً بعينه ، ولا بصراً بذاته ، إنمـــا هو الحب للحب ، والعبق للعبق ، والفناء في الوجود واللذة في الألم . وكثيراً ما يضيق جسدها المشفوف بقلبها المشغوف كما يضيق الغلاف البلوري الشف بوهج المصباح المحرق ، فتقول :

---

(١) ديوان انفاس السحر .

أنا أهواك يا دنياي أم ذلك قلبي شأنه العيش، ولا عيش له من دون حب
انه يحيا ... وان كان بحياه عذابي سادراً نشوان يحسو الخمر من كرم شباب
إنه ريان، لا يعنيه من يشكو الأواما آه لو حطمته، حتى ولو كنت الحطاما[1]

إن الشبّابة من قصب، ولكن اللحن من نار، فكلما نفخت فيها من روحها ذاب قلبها في حبها، فتئن أو تحن أو تشكو أو ترجو أو تثور بألفـاظ متسقة كالنغم، مونقة كالزهر، منمقة كالوشي. تسري فيها المعاني الشاعرة سريان النشوة في الرحيق، أو الفوحة في الطيب. فأسلوبها نسق مطرد من الفكر والخيال والعاطفة، يصقله طبع وذوق، ويقومه درس واطلاع، فلا تجد فيه ما تجد في أكثر الشعر النسوي من قلق في لفظ، أو نبوّ في قافية، أو غموض في معنى، أو تجوّز في قياس، أو شذوذ في غرض. ولقد وقاها كلّ ذلك تنشئة عربية قوية، ودراسة أدبية عميقة، ومرانة فنية طويلة، وحصيلة متخيرة من روائع الشعر الخالد، طبعتها على الأسلوب الصحيح، وهدتها إلى الطريق الواضح، وعصمتهـــا من الزيغ الذي أصاب نفراً من الشعراء والشواعر، فسموا العجز فناً والنثر شعراً والفوضى طريقة. فهي تتصرف في المضمون الشعري تصرف الفنان المتطور الحر الذي يواكب ركب الحضارة، ويتعمق أسرار الطبيعة، ويتقصّى أطراف المجتمع، ويدفع المتخلف بفكره إلى امام، ويرفع المتدلي بشعره الى فوق. ولكنها تقف في الشكل الأدبي عند الخصائص التي تميز أدباً من أدب، وتفصل جنساً من جنس. فهي تعدد في الأوزان، وتنوع في القوافي في حدود الأوتار الستة عشر التي تتألف منها قيثارة الشعر العربي.

وما كان لابنة بغداد، وفتاة العروبة، ومريدة الحلاج، وصاحبة ابن الأحنف، وربيبة المعلمين، وخريجـة السربون، وأستاذة الأدب، أن

(١) ديوان انفاس السحر.

تتنكر لأدبنا ، وتتمرد على شعرنا طمعاً في اقتحام الأدب من الباب الخلفي ، واكتساب الشهرة بالرأي المخالف ، فأن موهبتها الأدبية ومنزلتها الاجتماعية وثقافتها الجامعية ونتاجها المتصل لتربأ بها عن التحلي بالعَطَل ، والتفرد بالشذوذ .

تهيأت لي الفرصة مرتين أو ثلاثاً للقاء صاحبة « أنفاس السحر » و « لألاء القمر » بالقاهرة .

وكانت اللقيا الاولى وهي على وشك الرجوع إلى بغداد فلم يكن بين السلام والوداع إلا بعض ساعة ، تبادلنا فيها التحايا ، وتهادينا الكتب وتذاكرنا الادب بالقدر الذي يشير ولا يعرّف . ثم عادت الى الكرخ وفي نفسها أن تزيدني معرفة بها ، وعلماً بأدبها ، فكانت ترسل الي ما تجيد من شعر ، وما تصدر من بحث ، فأنشره في الرسالة ، ومن طريق هذا الاتصال الادبي المتجدد استطعت أن أعرف أي كاتبة كانت ، وأي شاعرة تكون .

فأما الشاعرة فلعلك تستخرج رأيي في شعرها من جملة هذه الكلمة ، وأما الكاتبة فالامر بينها وبين الشاعرة جد مختلف . الكاتبة تستمد موضوعها من الحقيقة التي يثبتها العلم ، ويؤيدها المنطق ، ويصقلها الطبع ، فالتعبير عنها واضح لا مبهم ، مفصل لا مجمل ، مقيد لا مطلق ، مجسد لا مجرد ، كما تراها في كتابها القيم عن العباس بن الاحنف . والشاعرة تستنبط شعرها في الغالب من وعيها الباطن لا من حسها الظاهر . فهي تعبر عن حب لا صورة له ، وعن معنى لا ذات فيه ، وأحياناً يدق الخيال ويرهف الحس ويصدق الحدس ، فيجتمع في غزلها وضوح الصورة ودقة العبارة وقوة التأثير . فيقول الناقد الذي لا يؤمن بصوفيتها : إنها تدخل في الغزل باعتباره باباً من أبواب الشعر لا مجرى من مجاري الشعور ، فهي تعبر بالفن لا بالوحي ، وتؤثر بالصنعة لا بالطبيعة ، ومهما

يكن الاختلاف في عاتكة بين الكاتبة والشاعرة ، فأنـــه لا يتطرق إلى بلاغتها في الحالتين وبراعتها في الصناعتين ، وقديماً قالوا إن إجادة النثر والشعر قلما تتفق لاحد ، وصاحبة الانفاس من هذه القلة .

أما اللقيا الثانية فكانت منذ أيام في فندق البرج على النيل ، وكان قد مضى على اللقيا الاولى قرابة عام ، توثقت فيما بيننا صلة الادب بما تحدثت عني في الرسالة والإذاعة ، وبما قرأت لها من المقطعات والمقالات . فلما التقينا ، التقينا على ألفة ، وجرى بيننا الحديث كأنه صلة حديث انقطع لا بداية لحديث نشأ .

ثم أخرجت من حقيبتها مخطوطة ديوانها الجديد « لألاء القمر » ، وأخذت تنشدني بعض مقطعاته ، وأقول (تنشدني) لان إلقاءها المطرب المعجب ، بصوتها الرخيم وجرسها الواضح ، ونبرها المجهور ولهجتها المعبرة ، كان أشبه باللحن الموسيقي في حسن تنويعه ، فاذا أضفت إلى ما تسمع بعض ما ترى من أناقة في الشكل ولباقة في الدل وسحر في الجاذبية ، تذكرت أو تصورت « مَيّ » ، وهي تحدثك حديثها الشهي الذي يمتزج بالقلب والروح ويتصل بالعقل والعلم ، وتيقنت أن الله جلّ شأنه لن يخلي دنيا العروبة من (مَيّ) ما دام في الارض حياة ، وفي الناس حي .

من ذكريات بغداد

نشر الاستاذ الزيات ثلاث مقالات بمجلة العربي الكويتية في الاجزاء ٤١ و٤٢ و٤٣ من سنة ١٩٦٢ ، اشتملت على ناحية خاصة من حياته التي قضاها في بيت أسرة مسيحية معروفة ، دله عليها صديقاه رفائيل بطي صاحب جريدة البلاد ويونس بحري صاحب جريدة العقاب ، وحبذا له العيش في هذا المنزل القريب من وسط العاصمة ، لا يبعد كثيراً عن مدرسته إلا مسافة يقطعها ماشياً بدقائق ، والسكنى مع هذه العائلة توفر عليه كثيراً من النفقات التي يتطلبها الفندق ، وتوفر له الهدوء وراحة البال وتبعده عن ضجة الفنادق واقلاق الزوار ، والكاتب والمدرس المغترب يحتاج إلى كل ذلك ولا سيا وهو يعيش مفرداً لم يصطحب زوجته . والأسرة التي أقام عندها الزيات أسرة مرحة مفتوحة خدومة . ولا حاجة بي لشرح أحوالها وقد أغناني عن سرد خافيها وباديها قلم الزيات ، فلأترك له الكلام :

* * *

« في سنة ١٩٣٢ ، وهي السنة الأخيرة من سنيّ الثلاث في بغداد كنت أعيش في أسرة مسيحية تؤثث في دارها الوسيعة غرفتين أو ثلاثاً لينزل فيها من تصطفيهم من نزلاء العاصمة .

كانت هذه الدار كسائر دور بغداد تتألف من طابقين يدوران على

فناء سماوي رحب ، يشتمل الأسفل على ردهة يسميها العراقيون « طارمة » وسرداب أصمّ تلوذ به الأسرة في الصيف من وقد الحر ، ومرافق الدار من حمام وسقاية ومطبخ . ويشتمل الأعلى على بهو فسيح الأركان فخم الأثاث ، تغطي أرضه مجموعة متخيرة من سجاجيد ايران ، وتزين جدرانه ونوافذه طنافس الحرير وستائر المخمل ، ويتصدره « بيان » عريض نضدوا عليه تحفاً من تماثيل المرمر وبراويز الأبنوس ، ونثروا على الكراسي القريبة منه آلات الموسيقى من عود وكمنجة ودف وناي . ويتوسطه منضدة دقيقة الصنع أنيقة المنظر ، قد وضعوا عليها ما يحتاجه لاعبو « البردج » و « البوكر » ، ثم يشتمل بعد ذلك على ثماني غرف لنوم الأسرة والنزلاء ، تتلاصق وتتناسق في صف واحد على ممشى دائري يطل على الفناء ، وقد صفوا على حواشيه مقاعد طويلة أو قصيرة لمن يريد أن يتصل بالسماء ، أو يتمتع بالهواء ، على نحو ما تجد على ظهر الباخرة [1] .

أما الاسرة فكانت تتألف من زوجين كهلين ومن ثلاث بنات وثلاثة بنين . وكان سر الوراثة الذي يجعل من الزوجين الاسودين من الكلاب الطليقة ستة جراء فيها الاسود والابيض والأبقع والاصهب والاغبر والاشهب والاشقر ، قد جعل من هؤلاء الأولاد الستة تشكيلة عجيبة من الصور والألوان والطباع ، لا يشترك في شيء منها أخ وأخ ، ولا أخت وأخت ، ولكنهم يشغفون جميعاً في الأولاع بالموسيقى والنبوغ في العزف على آلاتها المختلفة .

---

(١) هذه البيوت المقورة المكشوفة الفناء كانت هي الشائعة في بغداد القديمة . أما اليوم فقد شاع الطراز الغربي ، واختفى السرداب والحوش المكشوف واستعيض عنها بوسائل التبريد الحديثة .

فيوسف الاخ الاكبر ، يهدف للرابعة والعشرين من عمره ، أزهر اللون، أشقر الشعر ، ممشوق القامة ، فسيح الوجه ، ينظر فيكسر من عينيه ، ويبتسم فيضم من شفتيه ، ويتكلم فيغيض من صوته . فلولا أن الشعر قد أخذ ينبت على عارضيه وشاربه لقلت إنه فتاة في رونق الشباب وميعة الانوثة . يعلم الموسيقى في المدارس والبيوت ، ويعزف الالحان في السوامر والاندية .

وكان « ألفريد » طريده في العمر ، قمحي اللون تشوبه صفرة الخمر ، مليح القسمات ، تشيع فيها جاذبية قوية ، أسود الشعر ، تجتمع منه خصلة على جبينه المصقول قد فرّقها عند فوده الايسر ، في قده طول ، وفي صوته غنة ، وفي حركاته مرح ، وفي هندامه أناقة . وهو لا يزال طالباً في إحدى المدارس الثانوية الفرنسية . بينما « ألبير » أصغر الاخوة ، وضيء الطلعة شاحب اللون دقيق البدن ، يسيل شعره الاصفر المغدودن من وراء أذنيه على قذاله ، هادىء الطبع خفيف الظل شاعري العواطف ، يقعد ، على الرغم من صغر سنه ، مع أخيه الاوسط في فصل دراسي واحد .

أما البنات فكنّ عند نزولي على الاسرة اثنتين ، « مرجريت » وهي فتاة في ربيعها السابع عشر ، مسنونة الوجه ، مرسلة الشعر ، طويلة العنق ، مسحاء الثدي ، تميل إلى الطول ، وتقف وسطاً بين النحيفة والبدينة ، ولعل محيّاها المطموس لا يوحي اليك شيئاً من ذكاء ، أو أثراً من عذوبة ، ولكنك إذا جالستها أو لابستها لا تعدم أن تسمع منها حديثاً يمتع ، وأن ترى فيها خلة تعجب .

وثانيتهما « جورجيت » صغرى الاخوات ، صبية لا تزال في عمر البدر ، مطهمة الوجه ، بضة البشرة ، ممتلئة البدن ، في جفنيها انتفاخ ،

وفي شفتيها غلظ . ولكنها على قلة حظها من الجمال ، لطيفة الروح ، فكهة الحديث ، مرحة الطبع ، تتكلم ولا تستحي ، وتمزح ولا تعف . وهي مع أختها الوسطى بمدرسة امريكية للبنات في حي « باب الشيخ » .

تلك هي الصفات البارزة المميزة في أولاد هذه الاسرة ، رسمتها خطوطاً مجردة من غير تظليل ولا تلوين ، لتبين على التقريب الفروق الخلقية بين بعضهم وبعض . وإذا كان شكل الجسم من الحسن والقبح ، ومن اللطف والغلظ ، ينم عن طبيعة الروح من الخير والشر ومن الطيبة والخبث ، فان هؤلاء الاولاد من بنين وبنات ، يختلفون اختلافاً بيناً في الخلق والطبع والسلوك والنزعة . فمنهم المخادع الحصيف الذي يسعى المال من كل طريق ، والماجن الظريف يطلب اللذة من أي نوع ، والفنان الرقيق الذي يعشق الجمال في أي صورة ، ومنهم الساذجة السهلة التي تصدق كل خبر ، وتفشي كل سر ، وتلبي كل طلب ، ولا يهمها أن تخرج مع سيد أو خادم ، والطائشة الوقحة التي جعلت همها اللعب والحلوى ، ودأبها العبث والضحك . ولا يختلف عندها أن تنال ما تريد بالحق أو بالباطل .

لا يمكن أن تنشأ في هؤلاء الأولاد هذه الفروق الظاهرة والباطنة من فعل الوراثة القريبة المباشرة ، فإن الوالدين يعقوب وماري لم يجمعا في أخلاقهما الشيء ونقيضه ولا المعنى وضده ..

فالزوج من رجال الاعمال المجدين ، يتصرف لعياله في التجارة ، يتقلب من صنف إلى صنف ، ويضطرب من أرض إلى أرض ، لا يدخر جهداً ولا يضيع فرصة ، يصدر الجلود والتمور ، ويستورد الآلات والسلع . لا يتقيد بصنف واحد ولا ببلد معين . وإنما يتقيد بحاسته التجارية التي تهديه إلى سلعة اليوم وحاجة المستهلك . له مخزن للحفظ

وليس له متجر للعرض . وسبيله في البيع أن يستعين بالوصولية والميكافلية على إقناع ذوي النفوذ في الوزارات والشركات أن يشتروا بضاعتـه جملة .. وهـو من مخلفات العهد التركي في العراق ، يتكلم التركية ، ويلبس الطربوش ، ويحسن إحناء الظهر عند السلام ، ويتقن إذابة الملق في الكلام ، ويعرف كيف يدخـل إلى هواك ورضاك من الباب الذي يؤدي . والزوجة من ربات البيوت الصالحات ، يظهر عليها كلال السنين الخمسين ، وعناء الحياة العاملة . وهبت نفسها لخدمة زوجها وبنيها ، لا تكاد تخرج من البيت ولا من المطبخ . على أن كثرة عملها وطول همها لم يحميا جسمها من الشحم ، فتراكب لحمها واسترخى ، ثم اعتراها على الكبر صمم خفيف ، فزهدت في الاجتماع بالناس ، واكتفت من نعيم دنياها برؤية أولادها وزوارها ، يمثلون على عينها الجانب البهيج المرح من الحياة . كانت لا تشارك في الحديث لانها لا تسمع أكثر ما يقال ، ولا تدخل في اللهو لانها لا تعرف أكثر ما يلعب ، إنما كان دورها في حفلات الدار أن تعد الحلوى ، وتهيء المزة ، وتقدم الشراب ، وتعنى براحة السامرين والسامرات ، فلا يشوب صفوهم كدر ، ولا يدرك لهوهم نقص .

كانت « ماري » طيبة القلب ، ولا تكره حتى العـدو ، وكانت سمحة القياد فلا تعارض حتى في الضرر ، وكانت ضيقة الثقافة فلا تنظر حتى في الصحيفة . كان مصدرها الوحيد الذي تستقي منه العلم والخبر والرأي هو زوجها يعقوب حين يخلو أحدهما إلى الآخر في غرفة الطعام بعد انصراف الاولاد كلٌ إلى شأنه .

كانت هذه الدار بعد ضجة الصباح وخروج الوالد وأولاده إلى العمل أو إلى العلم ، تسكن سكون الدير ، وتوحش وحشة الطلل فلا تـكاد تسمع صوتاً ولا حركة .

كانت السيدة والطاهي يعملان في صمت ، وكانت الخادمة والخادم ينظفان في سكون ، وكنت أنا في الغرفة أو في الشمس أقرأ أو أكتب أو أنام . ثم تعود الحياة فتنتعش وقت الغداء ، ولا تلبث أن تهمد . فإذا أقبل الليل أمست الدار ، ردهتها أو سردابها أو بهوها على حسب الفصول ، مقصفاً لا يشبع من القصف ، ومرقصاً لا يفتر من العزف ، ونادياً لا يكف عن اللعب . يوسف يدق بأنامله العشر على معزف البيان ، وألفريد يغمز بريشته المرهفة على مضرب العود ، وألبير يمر بقوسه المشدود على أوتار الكمنجة ، ومرجريت وصواحبها من حسان الجيران والأقارب يراقصن الزائرين والمدعوين . فلا تخرج إحداهن من ذراع شاب إلا لتدخل في ذراع كهل . وفي الأركان المختلفة من الصالون يجلس هنا بعض أصحاب النفوذ في الوزارات أو الشركات ، يقارعهم يعقوب الكأس ، ويفاوضهم في صفقة ذات وجهين من صفقاته العظيمة : وجه لهم ووجه له ، ويجتمع هناك بعض أرباب اللهو من الشباب : يعابثون الفتيات ، ويتسابقون إلى قلوبهم بالنظرات المعبرة والكلمات المغرية ، وبين هنا وهناك تجلس مع الأم امرأتان أو ثلاث ممن ودّعهن الصبا والغزل ، يثرثرن في أخبار النساء وأسرار البيوت ، ويقبل عليّ رجلان أو ثلاثة ممن قصد بهم الحياء على هامش الحفلة يخوضون في حديث الأدب والسياسة .

فإذا انقضى الهزيع الثاني من الليل ، وقضت النفوس حاجتها من اللهو العازف والراقص ، انصرفت طائفة ، وتحلقت طائفة أخرى حول موائد الحظ يلعبون « البوكر » ، ويتبادلون السعد والنحس ، ويتقارضون الرضا والسخط . والمتفرجون من الرجال والنساء ينظرون « الفيشات » تتجمع وتتفرق أمام اللاعبين كأنها كثبان الرمل في يوم عاصف تنقلها رياح الصحراء من هنا فتكومها هناك ، فيبتهج قوم ويكتئب آخرون ،

الا الزوجين يعقوب وماري ، فقد كان ابتهاجهما لا ينقطع ، لا في الربح ولا في الخسارة ، لان حصة المائدة من القمار (الوار) كانت تضاف إلى حصيلتهما في كل دور على أي حال ..

وهكذا كان صاحب الدار ، بفضل بنيه وبناته ، يستفيد من طائفة الزائرين جملة من الوعود يروج بها سوقه ، ومن طائفة المقـــامرين حفنة من النقود يصلح بها أمره » .

ثم عرج الزيات على وصف قنصل لدولة من الدول الإسلامية كان يسكن في الجهة الجنوبية من الطابق الاعلى . من غرفة نائية كانت تحمر في أكثر الليالي ، لم يجد الزيات من نفسه دافعاً إلى أن يصل ما بينه وبين ذلك القنصل بسبب المودة ، وربما كان منشأ ذلك النفور سلوك ذلك القنصل المبتلى بالشذوذ والقذارة ، وليس له علاقة بالقصة أو بالاسرة ، لذلك لا أجد داعياً لفضح أمره وان كان الاستاذ الزيات لم يتحرج من كشف حاله ، ثم قال الزيات :

★

حسبك ما ذكرت من التعريف بالدار والاسرة ، ولعلك قد تهيأت الآن إلى أن تسمع القصة :

في فترة القيلولة وهي فترة يخشع فيها الصوت والحركة عادة في جميع البيوت ، ولكني لم أكد أجتاز الدهليز الطويل المظلم حتى رأيت الردهة المهجورة قد أخذت زخرفها من الوجوه الحسان من الجنسين ، والضحكات الرقاق والغلاظ يتجاوبن فيطردن الوحشة عن صحن الدار ، والام وأولادها يخطرون في زينتهم بين المقاعد ، يؤهلون ويرحبون بالزوار . فألقيت على الحضور نظرة عابرة ، ثم أومأت بالتحية الخاطفة إلى من

وقع بصري عليهم ممن أعرف ، وأخذت طريقي إلى غرفتي الخاصة . وبعد قليل أقبلت الخادمة على عادتها تحمل اليّ دورقاً من الماء المثلوج ، فسألتها عن سبب هذا الحفل في هذه الساعة ، فقالت : إن الآنسة « نورا » قد عادت من دمشق منذ ساعتين ، وقد قدمت معها عمتها وبناتها ، وهؤلاء هم مستقبلوهن من الاقربين والمحبين والمعجبين ، وعددهم يزداد من لحظة الى لحظة .

« نورا » آه ، لشدّ ما لهجت ألسن الاسرة بهذا الاسم ، ولطالما تحدث الزوجان بإسهاب وإعجاب عن صاحبة هذا الاسم . لقد عرفت عن « نورا » بالسماع ، مثل ما أعرف عن مركريت وجورجيت بالعيان .. عرفت أنها البنت الثالثة الكبرى ، وأنها تطلب العلم منذ أربع سنوات في مدرسة ثانوية للراهبات في دمشق ، وأنها تقيم مع عمتها بباب توما ، ولم تعد إلى بغداد زائرة منذ عامين ، وأنها على حظ عظيم من الجمال والذكاء والعقل والحساسية والانوثة ، قلما تؤتاه فتاة في سن العشرين ، وأنها مخطوبة بالوعد لشاب من موظفي البنك العثماني عرفته فيمن يكثرون التردد على مجلس هذه الدار ..

لم أجد في نفسي الرغبة الملحة في أن أنزل لأهنيء الأسرة بقدومها وأشارك القوم في الاحتفال بها ، فقرأت قليلاً ، ثم نمت . وفي المساء عاد الحفل فانتظم في البهو الواسع ، فدخلته فيمن دخل ، وقدّم إليّ الاب يعقوب ابنته « نورا » ومن قدمن معها من قريباته ، فسلمت الفتاة في استحياء ، وغضّت من بصرها وهي تتمتم بالعبارات المألوفة عند السلام والتعارف .

لم تبدأ هذه الليلة كسائر الليالي بالرقص والخمر ، لتنتهي كالعادة بالوجوم والقمر ، وإنما بدأت وانتهت بالأنس الخالص واللهو البريء .

تشاجن فيها الحديث عن موضوعات شتى في العادات واللهجات بين سوريا والعراق ومصر ، وكان جلّ الحديث واقعاً على العمة اللبقة التي تدير فندقاً كبيراً في سرة دمشق ، وعلى تاجر فكه يكثر التصرف والتقلب في أقطار العروبة .

وكانت « نورا » كالعروس على المنصة : تسمع في صمت ، وتنظر في خفر ، وتتكلم في وقار ، وكنت أنا مثبت العينين مفتوحهما في وجه « نورا » لا أكاد أطرف ، مصيخ الأذنين مرهفهما إلى حديث المتحدثين ولا أكاد أعي . كان وجه « نورا » جملة من القسمات الحلوة ، والملامح المعبرة في صورة من الفن الإلهي المبدع ، لا يقع مثلها في الإمكان لإزميل مثّال ، أو ريشة مصور ، أو قلم شاعر . ولا تظن فيما قلت مبالغة من زخرف الحديث ، فإن كل من رآها يعترف بأنه لم يجد لها مثيلاً فيما رأى أو سمع ، وليس لإقبال الشباب أو الكهول على الاحتفال بها والارتياح لها سرّ ، إلا جمالها الفاتن وجاذبيتها الطاغية .

ربما لا يجد المتحذلقون من خبراء الجمال جسمها منطبقاً على مقاييس الفن إذا أخذوه عضواً عضواً ، ولكن الروح التي تنبث فيه ، والفتنة التي تنبعث منه ، والعذوبة التي تهيمن عليه ، شيء يسمو على المقاييس ويخرج من دائرة الفن . لم أكن أنا وحدي الذي انعقد نظره بوجه « نورا » واشتغل قلبه بحسنها ، وانما كان أكثر الجالسين يُنقّلون أبصارهم عند الضرورة من شخص الى شخص ومن شيء إلى شيء ، ثم يعودون فيضعونها على محيّا « نورا » . أما الأم فقد كان يظهر من نظراتها وبسماتها أنها تتيه على النساء بأنها ولدت هذا الحسن . وأما الأب فقد كان يبدو ، من هيئته ولهجته ، أنه يفخر على الرجال بأنه أوجد هذه الفتنة . وأما الخطيب فقد كان يلوح ، من حركاته وكلماته ، أنه يزهى على الشباب بأنه استأثر بهذه التحفة .

ولندع بعد ذلك الحوادث تتوالد وتتوالى في الأيام التي ستتعاقب على هذه الليلة .

أصبحت « نورا » مركز الجاذبيـة في الدار ، فحيثما تكن يتهافت عليها الناس من العشيرة والجيرة ، وكان لهذا التهافت في الأيام الأولى أسباب تختلف باختلاف السن والطبع والحالة .

فالاختان وأترابها كنّ يتطلعن إلى أن يعرفن منها ما استحدث من ضروب الزي والزينة في سورية ولبنان ، والأخوة ورفاقهم كانوا يتوقون إلى أن يسمعوا شيئاً من صبوات الشباب وخلوات الهوى في دمشق وبيروت ، والوالدان وأقرباؤهما كانوا يحاولون أن يكشفوا سرّ هذا التغير الذي طرأ على نفس « نورا » فهي لا تنشط لحديث ، ولا تهش لزائر ، ولا تنبسط للهو ؛ وكان عهدهم بها أن لسانها الحلو لا يكف عن الدعابة ، وأن وجهها الطلق لا يفتر عن الضحك ، وأن روحها اللطيف لا ينقبض عن الأنس ..

وكنت لاحظت ، وأنا بعيد ، أن الصلات الواهنة بين أعضاء هـذه الاسرة قـد عادت إلى طبيعتهـا من الإحكام والوثوق منذ عادت هذه الفتاة . كان أفراد هذه العائلة أشبه بنزلاء الفندق ، يضمهم بناء واحد ، وتجمعهم مائدة واحدة ، ولكن لكل منهم عمله وبيئته وخطته ووجهته وغرضه . فلما عادت « نورا » كانت كالخيط الذي ينظم العقد المنثور ، والروح الذي يمسك الجسد المنحل . ولعل السر في ذلك أن المرء بطبعه يحب في غيره ما ليس فيه . فالجبان يحب الشجاع ، والقبيح يحب الحسن ، والهيوب يحب الجريء ، والعيي يحب الفصيح . ولهذا كان الابطال يحبون الابطال والآلهة . والله قد كمّل « نورا » بما نقص أهلها من جمال الجسم والروح ، فهم يحبونهـا جميعاً ، ويرون فيهـا الجزء المتمم لكل منهم ،

والحب سر التجاذب ، والتضام في الكون كله ، هو الذي يجعل من حبات الرمل جبلاً ومن قطرات الماء بحراً ومن أفراد الناس أمة .

لم أر « نورا » قبل اليوم حتى أدرك ما أدركوا من الفروق بين ما كانت عليه وما صارت اليه ، الا أن ما رأيت منها كان يختلف كل الاختلاف عما سمعت عنها ، كانوا يقولون إنها بهجة الدار ، وزينة البهو ، وروح الحديث ، ولحن البيان ومرح الرقص . ولكني أراها منذ قدمت ساهمة الوجه تطيل السكوت ، مضطربة البال تطلب الهدوء ، ضيقة الصدر تؤثر العزلة . وعبثاً حاول أهلها أن يوقظوا فيها رواقد اللهو ، وأن يشعروها أن بجانبها خطيبا برّح به الشوق ، وثقل عليه الانتظار. فمن حقه أن يجلس اليها وأن يخرج معها . وأقام أبوها حفلة ساهرة في الطابق الاسفل من الدار . وكانوا قد أنزلوا اليه الفرش والاثاث من الطابق الأعلى في أواخر مارس حين يبدأ الصيف في بغداد . وينقلب البيت فرناً من غير وقود ، والهواء لهباً من غير دخان ، فغصت الردهة والفناء والسرداب بالمدعوين من رجال المال والاعمال واللهو ، تصحبهم نساؤهم وبناتهم في بزاتهن الجميلة وزينتهن الرائعة . وكان الخواجة يعقوب قد أراد باقامة هذه السهرة الراقصة أن يحتفل بأخته السيدة (صوفي) ويرجو من وراء ذلك أن يدخل الانس على قلب «نورا» وأن يخرج إلى النور بعض السلع التي طال عليها الرقاد في ظلام المخزن . وكانت منية النفس لكل حاضر أن يظفر من «نورا» بكلمة أو جلسة أو عزفة أو رقصة . ولكنها لأمر ما ، أعرضت عن الاركان الصاخبة في الحفلة ، وأقبلت على عجائز أمها فجلست اليهن قليلا ، ثم انتقلت إلى الركن الهادي الذي أجلس فيه مع الاستاذ رفائيل بطي عميد الصحافة العراقية وبعض المتأدبين من الشباب ، وأخذت مجلسها بجانبي .

وكان الاستاذ رفائيل (عليه الرحمة) واسع العلم بأحوال البلاد العربية

ورجالها ، فلا يغيب عن ذهنه خبر ولا أثر من أي كاتب أو شاعر أو أديب في مصر ولبنان وسورية . فكان الحديث بيننا شجونا من النوادر والطرف ، أخرجنا من جو الحفلة . فلما انضمت الينا « نورا » ، اتجهت نحونا الانظار ، فشعرنا ثانية بأننا أفراد من هذا الجمع المضطرب في اللهو والانس ، فلا بد أن نرجع اليه ونشارك فيه ، ولكن « نورا » آثرت أن نخوض فيما كنا فيه من الحديث عن مصر ، فان أحب الاحاديث إلى قلبها ، كما تقول ، ما اتصل بها وبأهلها ، وانها لتعرف عن أخبارها وأسرارها أكثر مما تعرفه عن أي بلد آخر . وأخذت هذه الفتاة المنقبضة الصوت تبسط أسارير وجهها بالضحك ، وتحل عقدة لسانها بالكلام ، وتروي الخبر بعد الخبر ، وتورد النكتة بلهجة مصرية لا يشوبها إلا نبرات يسيرة من لهجة دمشق . فقلت لها ، وأنا لا أملك نفسي من الدهشة : هل زرت مصر كثيراً ، وعشت في القاهرة طويلا ؟ فقالت في نبرة تنم على الاسى والاسف : « لم يكتب لي الله هذه السعادة بعد » . قلت لها : إذن كيف تهيأ لك أن تعلمي هذا العلم ، وأن تتكلمي هذه اللغة ؟ فتشاغلت عن سؤالي بغمغمة خافتة ، ولم ترد أن تجيب .

وكان كلامها وضحكها قد ظهر أثرهما على بعض الوجوه ، فعجبوا أن تستوحش في مكان فيه الخطيب والقريب ، وتستأنس في مكان فيه البعيد والغريب . وكانت الام ماري وصواحبها قد أقبلن على العمة يسألنها عن سر هذا الاكتئاب الذي أصاب « نورا » فأمات فيها الشعور بمتاع الحياة ، فقالت العمة ، وهي تخافت من صوتها : « أما السر فلا يعلمه إلا الله ، ولقد اعترتها هذه الحال منذ اكتوبر الماضي فعرضتها على الطبيب ، فقال : إنها مريضة بالقلق النفسي من الإرهاق أو الهم ، وتفيدها الراحة والتسلية والنقلة . ووصف لها أنواعاً من العقاقير ساءت على تعاطيها

الحال ، واشتدت العلة ، فكانت تنفر من المخالطة ، وتطمئن الى الخلوة ، وتكثر من الصلاة ، وتواظب على القداس . ونضارتها ، في خلال ذلك تذوى وبشاشتها تزول ، فرأيت أن أجرب النقلة ، فرحلت بها الى بيروت في عطلة عيد الميلاد ، فتسلّت بعض التسلي وتحسنت بعض التحسن ، ولكنها لم تلبث أن عادت الى حالها الأولى بعد أن عـــدنا الى دمشق . وكانت معلماتها من الراهبات قد لاحظن عليها أعراض هذا المرض النفسي ، فعالجنهـا مرة بالدعاء ومرة بالدواء ، فما نفع الدين ولا أفاد الطب . وأخيراً جاءت عطلة عيد الفصح فرأيت أن أعود بها الى بغداد ، عسى أن نجد في الوطن الذي نشأت به ، وفي العش الذي درجت فيه ، ما يدفع عن جسمها هذا الذبول ، ويُذهب عن نفسها هذا القلق . وكان في الحفل أربع أعين لا يدخلهن شعاع السرور ، ولا يقرهن متاع الغبطة . عينان في وجه الخطيب ، وعينان في وجه أمه . كانت عينا « جاك » تخضلان بالدمع كلما رأى خطيبته لا تحفل به ولا تنظر اليه . وكانت عينا أمـــه تشعان بالسخط كلما رأتا « نورا » تقبل علينا ولا تقبل عليـــه . وعلى فجأة من لهو اللاهين ولعب اللاعبين سقط « جاك » من فوق كرسيـــه ، فاقد الوعي ، متخشب الجسد ، مختلـج الأطراف ، مصطك الأسنان ، مزبد الفم . فصرخت أمه ، وفزع الحضور ، وخفوا اليه بالمسعفات حتى أفاق ، وكانت « نورا » ممن أسرعن الى المصروع بالمنبهات ، فخصهـــا بالشكر . واضطجـــع على الكنبة ريثما استراح ثم تحامل على بعض أصدقائه وخرج .

وغام على أثر ذلك الحادث جو الحفلة ، فتكدر الصفو ، وانقطـع اللهو ، وانصرف المدعوون .

وفي بكرة اليوم التالي ، وكان يوم أحد ، دخلت عليّ السيـــدة « ماري » وفي يدها صينية صغيرة عليها قدَحانِ ، فحيتني تحية طيبة ، ثم

قالت وهي تضع الصينية على المائدة : « عدت من الكنيسة قبل الأولاد لأصطبح معك بقدح من الشاي وأبوح لك بأن « نورا » منذ رأتك ، تظهر الاهتمام بك وتكثر السؤال عنك . وقد رأيتها في الحفلة تقبل عليك وترتاح بأنسها اليك . ومن الممكن إذا توثقت صلتها بك أن تكشف لك عما يكن صدرها من لواعج الحزن والهم ، فقد عجزت عمتها وعجزنا عن كشفه . ثم روت لى ما قالته السيدة (صوفي) عن مرضها وكيف تطور حتى خيف أن ينتهي الى انهيار عصبي لا يرجى برؤه . وعقبت عليه بأنها شديدة القلق على مستقبل البنت ، فقد رفضت أن تعود الى الدراسة بدمشق ، وكرهت أن تظل مخطوبة الى جاك . وقد رأيت ما حدث ليلة البارحة من جراء صدودها عنه ، وهو من أكثر الشبان مالاً ، ومن أرفعهم وظيفة . إن « نورا » كما ترى معبودة الأسرة ، وإنا لنبذل في سبيل سعادتها أنفس ما نملك . وليس جمالها وحده هو الذي أحلها من قلوبنا هذا المحل . فان لها غير الجمال البارع والذكاء اللامع مزايا أخر ، أخصها صفاء النفس ونقاء الضمير وخلوص الدين ، وللدين على أقوالها وأفعالها السلطان القاهر منذ الطفولة ، فهي لا تقول لنفسها ما تخشى أن تقوله للناس ، ولا تفعل في سرها ما تكره أن تفعله في العلن ، ولا تجري في أمورها إلا على سنَن القديسين والرسل . فإذا أصابها مكروه في صحتها أو في سعادتها ، أصاب الأسرة في صميم حياتها ، فلا تنتفع بعدها بالعيش . فالرجاء في الله وفيك أن تعالج مشكلتها بالعلاج الذي تختاره ، وسأرسلها اليك متى عادت من القداس » .

من النفاق المحض أن أقول إن شعوري بهذا التكليف كان شعور الخليّ المحايد . الحق إنه كان شعور الحالم الذي صور له عقله الباطن ما كبت من الرغائب والشهوات في صور زاهية من الوقائع واللذات . ثم تيقظ فاذا به يرى الحلم حقيقة واقعة ، يبصرها بعينيه ويلمسها بيديه . كنت في خلال الأسبوع الذي مضى على هذا الانقلاب في الدار ، أتابع

هذا الحسن الرائع بحواسي الخمس ، وهـو يجيء في المشى أو يذهب ويدخل الغرف أو يخرج ، ويتكلم في البهو أو يصمت ، فيمنعني الحياء أن أدور في فلكه وأن أدخل في شعاعه ، ثم أصبحُ فاذا بي أسمع أنه يسأل عني ويفكر فيّ ، وإذا بي أرى أن القائمة على أمره تنيطه بي وتكِله إليّ !!

فهل تصدق القط الذي أعطـاه أهل الدار مفتاح الكرار إذا زعم أنه تسلم هذا المفتاح وقلبه فارغ ، ورأسه بارد ، ونفسه عزوف ؟

قد يكون هذا القط صوّاماً قوّاماً ، يجعل من هـذا الكرار صومعة لنسكه ، ومحراباً لصلاته ، ولكن إخفاءه حقيقة شعوره وطبيعة سروره رياء صريح .

سمعت نقرتين خفيفتين على باب غرفتي ، ففتحته ، فاذا « نورا » في ثياب الأحد وطلعة الملاك ، تبتسم وتقـول : « أخبرتني أمي أن للسيد حاجة اليّ » ، فقلت وأنا أهيء لها الكرسي لتقعد : « إن حاجتيْ اليك حاجة الغريب الى الأنس ، والضيف الى الاكرام » فقالت : « لست غريباً وأنتَ في دارك ، ولا ضيفـاً وأنتَ بين أهلك ، وإن العائلة كلها ، كما سمعت ، تحبك وتحترمك » . فقلت لهـا : إن غربة الروح أشد من غربة الجسد ، وربما ظل الرجل طول عمره ضيفاً بين أهله إذا لم يوافقوه على هوى ، ولم يشاركوه في شعـور . ولهذا شعرت من إشعاع نفسك عليّ من بعيد ، أن بيني وبينك ألفة من الروح ، لو كان لها تجاوب في شعورك لوجد القلب بجانبه قلباً يتفتح له ويتصل به ويسكن اليـه ، ولعلي أدركت سرّ انقباضك عن الناس . إنهم لا يشبهونك في خلق ولا طبع ، ولا يفهمونك في إحساس ولا فكر . فهل أدركت الصواب ، أو على الأقل واجهت الحقيقة » ؟

وكانت الفتاة قد حدقت ببصرها اليّ ، وأقبلت بسمعها عليّ وقالت:

« إن ما قلته عن نفسك وعني لم يتجاوز الحق ، وإن ما أدركته أنت من سر انقباضي هو ما أدركته أنا من سر انقباضك . وقد كنت على وشك الاتصال بك لو لم تأمرني بلقائك أمي . وما كان جلوسي اليك البارحة في الصالون إلا تمهيداً لذلك . أما لماذا اخترتك من غير معرفة ، وألفتك من غير صلة ، فعلم ذلك من مكنونات النفس . فلا تعرف له باعثاً ولا علة . وكل ما أعرفه من ظواهر الأسباب أنك مصري وقلبي معمور بحسب مصر ، وأني مريضة ، ومرضي يحتاج بطبيعته الى مؤاس من نوع خاص ، ولم يكذبني قلبي ، فقد علمت من بوادر كلامك هذا أنك تنطق عن نفسي وتكشف عن ضميري » ..

لم ارَ في الجلسة الأولى أن أدخل في صميم الموضوع ، ولا أن أسألها عن سر حبها لمصر الذي تكنه ، ولا عن كنه مرضها الذي تعانيه ، وإنما اكتفيت بأن قلت لها : أراك تفتقدين الأنيس المؤاسي ، وأنا أعلم أنك مخطوبة الى السيد جاك ، والخطيب صفي القلب ، ونجي النفس وشريكك المستقبل . وهو كما ينم عليه حاله ، يهواك أشد الهوى ويرعاك أصدق الرعاية ، فلو أنك بادلته الحب وشغلت به دنياك لما أحسست معه بالفراغ . ولكن أمك تقول على أثر ما أصابه الليلة إنك لا تبالين به إذا حضر ، ولا تسألين عنه إذا غاب ، ولا تردين عليه إذا كتب ، فهل هذا عرض من ذلك المرض ؟

فسكتت « نورا » قليلا ، ثم قالت في شيء من البطء كأنما تعد كلماتها عداً : « يجوز أن يكون للأزمة النفسية التي أكابدها منذ ستة أشهر بعضُ الأثر في فساد الحال بيني وبين جاك ، وإنما جاء أكثر الأثر من الاختلاف في مزاج ومزاج ، والتباين بين خلق وخلق : أنا خيالية

وهو واقعي ، وأنا روحانية وهـو عادي ، وأنا مؤمنة وهو طبيعي ، وأنا أفهم الحياة على انها (آلة موسيقية) وأنغام ، وهو يفهمها على أنها آلة كاتبة وأرقام . فأنا لا أصلح له وهو لا يصلح لي ، وما كانت خطبتنا إلا عدة وعدها أبي إياه لنباهته في دنيا المال والعمل .

وكان باب الغرفة قد ظل مفتوحاً ، فدخلت مرجريت وجورجيت ، فعاد الحديث الى مجراه العام ، ونزلنا بعد قليل الى السرداب لنجد العمة ومن حولها سائر الاسرة يتحدثون في اهتمام وجد . فلما رأونا ندخـل وعلى وجوهنا دلائل البشر ، تهللوا جميعاً ، ولقونا لقاءهم للعائدين من مفاوضة ناجحة ، أو للعاقدين لصفقة رابحـة . ثم انصرف بعضهم الى البيان ، وبعضهم الى الكونكان ، وجلست انا ونورا مع المتحدثين .

ولاحظ الثلاثة الكبار ، يعقوب وزوجته وأخته أن ابنتهم مشروحة الصدر للجلسة ، ومفتوحة النفس للحديث . فقال الأب موجهاً كلامـه اليّ والى « نورا » :

« كنا نتحدث هنا فيما كنتما تتحدثان فيه هناك ، ومن الخير أن نتابع الحديث لنبصر وجه الرأي في خطبة جاك ودراسة « نورا » من قبل أن تعود « صوفي » الى دمشق ..

وكانوا يعلمون فيما بينهم أن الجواب عن هاتين المسألتين عندنـا لا عندهم ، فقلت : ان من رأيي أن تتركوا عقدة هذه الخطبة للزمن يحلهـا على مهل ، فان قطع العقدة ، وإن كان أيسر من حلها ، يؤذي النفس ، ويجرح الكرامة ، وسيروض السيد جاك نفسه بالصبر والسلوان على احتمال الواقع ..

وقالت « نورا » : وإن من رأيي أن أبقى معكم الى الخريف ، فان

البعد عن منشأ الداء وإن كان سيحرمني أداء الامتحان ، سيساعد فيا أرجو على استئناف النشاط واسترداد الصحة .

أصبحت غرفتي منذ اليوم قطعة من الروض وقاعة من التحف ، نقلت اليها « نورا » أجمل ما في الدار من زهريات ولوحات وتماثيل وتحف ، ثم كانت تتعهدها كل صباح بنفسها ، فتنسق الزهر وتنظم الاثاث وترتب الكتب . وانقسمت الأسرة بحكم الطباع والغرائز الى فريقين : بيني وبين القنصل ، فريق الخير وفريق الشر ، أو فريق النور وفريق النار ، أو فريق المعنى وفريق الحس . فالبنات وأمهن فريق ، والبنون وأبوهم فريق . ففي غرفتي تجتمع « نورا » وأختاها ومعهن الكتاب والبراءة ، وفي غرفة السيد « بكير » يجتمع يوسف وأخواه ومعهم الشراب والريبة .

وتمكنت الألفة بيني وبين « نورا » فلم تعد تصطحب أختيها في المجيء اليّ ، فاذا أقبلتا تريدان لهو الحديث صرفتهما الى المذاكرة ، وبقيت هي جالسة على كرسي طويل ظهرها مسند إلى صدره وسائر جسمها ممدود على طوله ، وفي يدها مجلة تنظر فيها . ولكنها لا تلبث أن تذهل عنها وتستغرق وهي يقظى في حلم عميق . فاذا كنت أكتب تركتها حتى أفرغ ، وان كنت أقرأ أطبقت الكتاب واستغرقت أنا أيضاً في وجه كله معنى وجسم كله فتنة ووضع كله سر .

وكانت عطلة عيد الفصح قد انقضت ، فعادت العمة الى دمشق ، وعاد الأولاد الى المدرسة ، وخلت الدار إلا من المرض والمريضة ، أو من المصور والمثال ، فوجدت الفرصة مواتية لأستبطن دخيلة أمرها ، وأستخرج دفينة صدرها ، فقلت لها ذات يوم : أريد أن أعالجك بالتحليل ، كما يفعل الطبيب المحلل ، أو بالاعتراف ، كما يفعل القسيس المعرّف ، فبوحي لي بكل ما في نفسك ، عسى أن أجد لك فرجاً من

هــذا الهم ، وأعدك أن يظل الأمر فيما بيني وبينك سر مهنة أو سر اعتراف .

فقالت : وأنا أريد هــذا ايضاً ، فاني منذ فارقت « الأب إلياس » أشعر بالكرب يخنق صدري ، وبالقلق يلوع ضميري . وقد كنت أستريح اليه بالاعتراف كل أسبوع كما يستريح المحزون بالبكاء أو المهموم بالشكوى . وأنت أقرب الى قلبي منه لأنك تشعر بانبساط الربيع ، وهـو يشعر بانقباض الخريف ، وأنت تعيش في موجود الدنيا ، وهـو يعيش في موعود الآخرة . ولا أريد أن أمضي في المقارنة بينك وبينه . فقلت لها ، وأنا أنثر البركة عليها من يدي : إذن ضمنت لك الشفاء بهـذه الثقة . ثم جلست على كرسي الاعتراف ، وأخذت تعترف لي وتقول .

أخذت « نورا » تعترف اليّ بالفرنسية ، لأنها تستسهلها ، لا لأنها تفضلها ، قالت :

« كان ذلك في تموز من عـام ١٩٣١ ، وكان من عادتي في العطلة الصيفية إذا لم أعد الى بغداد أن أضم يـدي الى يد عمتي في إدارة الفندق ، فأدعها تصرف أموره العامة فتموّن المطبخ وتهيء الموائد وتجهز الغرف وتتعهد الأثاث وتراقب الخدم . وأجلس أنا الى المكتب في المدخل : أستقبل النازلين وأرصـد ما لهم ، وأودع الراحلين واقبض ما عليهم . وأجيب عن كل سؤال وأستمع الى كل شكـوى . ولم أكن أدري أي شيء فيّ يجذب النزلاء اليّ ، ويرميهم بأثقالهم عليّ ، فكل داخل وكل خارج كان يتلمس الدواعي أو يختلقها ليقف أمام المكتب ، يسأل من غير موجب ، ويتكلم من غير موضوع ، ويشفع الكلام الذي لا معنى له بالنظرة التي تقول ، والبسمة التي تدل ، فأجيب عن السؤال بالنفي أو الإيجاب ، وأرد على الكلام بالصمت أو الإيجاز ، وأغمض

عيني عن النظرات والبسمات فلا تجد طريقها الى نفسي . ولكني بعد أيام ضقت ذرعاً بهذا الفضول ، فتخليت عن صدر المكتب للكاتب ، وانتحيت ناحية منه ، وأخذت أراقب الأمور من بعيد ، فلا أتدخل فيما يتصل بالادارة العليا للفندق . وكنت مع ذلك أنظر خلسة إلى من يدخل أو يخرج أو يجلس أو يقف . فأرى صوراً من الناس وأنماطاً من اللباس واخلاطاً من اللغى تجعل كل نهاري وبعض ليلي حفلة مستمرة في سينما . وكان يستوقف نظري من هذا الخليط المتغير المتجدد الجميل والأنيق والمهذب ، وهؤلاء يغلب عليهم التصون والتعالي فلا يتبذلون بالفضول ولا يتلهون بالعبث . وكان من بينهم شاب رشيق القامة حسن الهندام حلو التقاطيع . لم أستطع أن أتبين منه خلال النظرات الحذرة العجلى الا ظاهرتين على وجهه في دخوله وخروجه . وكان متزايلاً لا يدور في مدار الفندق ولا يشعر بجاذبية أهله ، إنما كان يدور كما علمت من بعد ، حول شمس غير منظورة ، لم يبقَ منها في دنياه إلا شعاعة تضيء عينه بقدر ما يعيش .

كان يجلس وحده في البهو ويأكل وحده على المائدة ، فإذا كتب لا يكتب إلا رسالة ، وإذا قرأ لا يقرأ إلا صحيفة . والصحف التي كان يقرأها مصرية يأتيه بها الخادم كل صباح ، فهل هو مصري ؟ لو سمعته لعرفته من لهجته ولو عرفت اسمه لكشفت عن بطاقته ، ولكنه لم يكن يمر بالمكتب إلا ليودع للكاتب مفتاح غرفته أو ليسترده . وكنت وأنا في ركني المنعزل ألح عليه بالنظر المتتابع كلما وقف على المكتب أو جلس في الردهة ، لعله يلقي عليّ نظرة أو يوجه اليّ كلمة ، فما كان وجهه يتعدى وجه الكاتب ولا عينه تفارق صفحة الكتاب ، إلى أن اضطر الكاتب يوماً أن يغيب واضطررت أنا الى أن أجلس على كرسيه . وأقبل هو في الضحى الأكبر يودع مفتاحه ليخرج ، فحيا في احتشام

وأدب ، وألقى بمفتاحه في رقة ولطف . ولما رأى بين يدي كومـة من بريد الفندق ، كنت أفرزها لأوزعها على الغرف ، وجــه اليّ من تحت أهدابه الوُطف نظرة حبيبة وقال : هل لي في هذا البريد بريد ؟ فسألته عن اسمه ، فقال : « نبيل طاهر » ، فعدت أقرأ العناوين في شيء من البطء لا أدري لماذا ، حتى استخرجت له من بينها خمس رســائــل صادرة من القاهرة ، فأخذها شاكراً وخرج .

عرفت في هذه اللحظة العابرة المباشرة اسمه وقليلاً من خلقه وكثيراً من صفاته ، وانصبّ في شعوري عن طريق نظرتهِ وكلمتهِ وبسمتهِ دفق من جاذبيته الروحية ، شُغل بالي به ، وصرف همي اليه . كان مثال ما ارتسم في ذهني من صورة المصري الصميم : وجــه ناعم أسمر مشرب بالحمره كأنما وردته نشوة الخمر ، وشعر ناعم أثيث متموج قد انفرق على فوده ، أشرفت منه جمّة على ناصيته ، وعينان كحلاوان تشع منهما الطيبة وتشيع فيهما البراءة ، وفم رقيق حلو يفتر افترار الطفل ، وهذه الصفات الطاغية التي تبرز لعينيك أول ما تراه فتشغلك عن صفاته الأخرى .

كنت أتمنى كلما دخل أو خرج أن يمرّ بي فيسألني شيئاً أو يكلفني أمراً ، ولكنه كان كما قلت ، محصوراً في حياته الخاصة ، لا يخرج منهـا أبداً ، ولا يستقبل فيها أحداً . ملكتني رغبة قوية في أن أطرق عليــه باب دنياه طرقة ، فلعلي أكشف ما وراء هذا الباب من سر يسبب هذا الانقباض ، وبوجب هذه العزلة ، ففرزت يوماً بريده بنفسي وحجزته ، ولما علمت أنه جالس في البهو يقرأ صحيفة ، ذهبت اليه في شيء من الحرج ، وقلت له : هذه رسائلك من بريد اليوم ، جعلت من حملها اليك فرصة أسألك فيها عن مقامك في الفندق . فنهض الشاب واقفاً ، وتسلم الرسائل ، ثم تلطف فدعاني الى الجلوس ، فجلست ، وخيل اليّ أن علامة

من علائم الرضا قد تراءت على وجهه ، فقلت له : أراض عن غرفتك ومائدتك وخدمتك ؟ أعندك ما تشكوه أم لك ما ترجوه ؟ فقال وهو يحاول أن يخفي ربكة بدت عليه ، شكراً يا آنسة ، كل شيء مريح ، وكل أمر يسر . فقلت له : دع هذا التحفظ ، واجعلني هنا بمثابة أختك ، واسترح الي بما عسى أن يكرب صدرك من هموم الغربة ، فاني مثلك أشعر بما يعتري الغريب من الوحشة ويعتاده من الشوق . فقال في لهجة مصرية وصوت خفيض : يسعدني ويزهوني أن ترفعيني في نظرك الى منزلة الأخ ، ولقد قلت إنك غريبة ، وكان بعض الشك يخالجني في أنكِ سورية لاختلاف اللهجة والحلية والملامح ، فهل انتِ عراقية ؟ فقلت : نعم أنا بغدادية ، أطلب العلم في دمشق ، وصاحبة هذا الفندق عمتي ، فأنا أساعدها في إدارته شهرَي العطلة ، وجاء عامل التلفون يدعوني الى مكالمة ، فاستأذنت منه وقمت .

أنس اليّ يومئذ « نبيل » . فكان يجلس في الردهة لا في البهو ، ويوجه كلامه اليّ لا الى الكاتب ، ويفضل أن يبقى في الفندق على أن يخرج . ولكن الحياء منه ، والاباء مني ، كانا يقفان بنا عند هذا الحد من النظر المردد ، والكلام العابر . ففكرت في حيلة تدني المجلس وتطيل الحديث ، فأخذت أقرأ الصحف المصرية كل صباح لألتمس فيها المناسبات التي يصح أن تكون موضوعاً لسؤال أو موضوعات لحديث ، ثم أدنو منه في الوقت الذي ينصرف فيه النزلاء ، ليخشع الصوت وتسكن الحركة ، فألقي اليه الخبر أو اورد عليه السؤال ، فينطلق وجهه بالبشر ، ويتفتح ذهنه بالكلام . فأقول ويقول ، وأجول في كل معنى ويجول . يروي لي عن مصر وأروي له عن العراق ، ويحدثني عن سعد واحدثه عن السعدون [1] ثم تجدد بعد ذلك

---

(١) عبد المحسن السعدون كان يومئذ رئيس الوزارة العراقية ، ثم انتحر لأسباب سياسية فكان انتحاره المحزن حديث الناس في كل مكان .

المجلس وتكرر الحديث ، حتى توثقت بيننا الألفة ، وكادت أن تزول الكلفة .

سألته ذات يوم عما زار من آثار دمشق ، وعما رأى من مفاتن الطبيعة في الغوطتين وبلودان والزبداني . فقال بلهجة الآسف : إنه قضى في دمشق نصف شهر دون أن يجد في نفسه رغبة في نزهة ، أو حاجة الى رحلة ، وكل ما كان يصنعه في هذه الايام أن يتجول في أفكاره في شارع ، أو ينفرد مع همومه في قهوة . فقلت له وقد وجدت الفرصة لاكشف عن سره وأمره : يؤلمني أن أسمع منك كلمة الهمّ ، وأنت في السن التي لا تبالي التبعة ولا يهمها من الدنيا إلا جوانبها اللاهية المرحة ، فهل تشكو علة أو تكابد أزمة ؟ وهل تتيح لاختك الحانيه عليك المتعلقة بك أن تحمل شيئاً من عبئك الذي حرمك من لهو العيش وشغلك عن بهجة الحياة ؟ فقال : لشد ما يسعدني ذلك ، فان كتم الألم في الصدر ككتم البخار في القدر ، لا يزال يفور ويضطرب حتى يجد متنفساً من الضيق فيهدأ ويستقر ، وان الآهة ينفثها المريض ، او الشكاية يبعثها الحزين ، لهي الراحة من ألمه او الفرجة من كربه . ولقد وجدت فيك منذ رأيتك وسمعتك ، علاجاً من دائي الذي أشكوه ، وتسلية عن همي الذي أقاسيه . وغداً الاحد وهو يوم عطلتك فتعالي إذا سمحت نخرج الى ظاهر المدينة ، فأشركك في أمري ، وأفضي اليك بذات صدري ، وأتملّى في الوقت نفسه بعض منازه الشام في صحبتك .

لم أجد في الاستجابة إلى دعوته مشقة كبيرة ، لاني مسيحية لا تقيدني تقاليد البيئة ، ولاني مراهقة تستهويني تجربة الخروج الاول مع شاب ، ولاني مشوقة منذ أيام الى حديث طويل مع (نبيل) . وتواعدنا على اللقاء في مكان قريب من الفندق ، وقلت لعمتي بعد أن شهدنا قداس الاحد : إن إحدى صديقاتي من الطالبات دعتني الى الغداء والسينما ، فلا تقلقي علي إذا تأخرت . وانطلقت بي وبنبيل السيارة الى « دمر »

وكانت الغوطة الغربية قد تألقت في زينتها الطبيعية ، فجعلت من أدواحها الباسقة جنة للقلب الشاعر ، ومن أمواهها الدافقة بهجة للمزاج المكتئب ، ومن مروجها الخضر سكينة للحس المضطرب . وكان مقهى (دمر) قد امتدت موائده على ضفتي الجدول الهادر ، وقد ازدانت بمن جلس اليها من بنات يوم الاحد وأبنائه . واخترنا مائدتنا في ركن منعزل من طرف المكان ، وجلسنا اليها متقابلين ، وجهاً لوجه وعيناً في عين وفماً إلى اذن . وكان نبيل لا يزال مأخوذاً بروعة الغوطة وما يكتنف مدخل دمشق من الروابي الحالية في صدر الجبل ، والانهار الشادية فى حضن الوادي ، والمنازل الغارقة في زهر الروض . فقال : ما رأيت أبدع من هذا المنظر ولا أنفذ من هذا السحر ، ولولا أن أتاحك لي الله لظللت محروماً من هذا الجمال ، مشغولاً عن هذه المتعة . فقلت له : إن بالشام أماكن غير هذا المكان تجلو رؤويتها صدأ القلوب ، وتبسط زورتها انقباض المشاعر ، وسنزورها معاً بعد أن أصفي نفسك من أكدار الهم ، وأخلي بالك من شواغل الحزن . فافتح لي صدرك ، واسترح اليّ بما تكن فيه ، فقال : لا يا نورا ليس الامر سراً أكتمه ولا ألماً أكنّه ، إنما هو صدمة عاطفية زلزلت حياتي وحطمت وجودي ، وكان لها في الناس من أقرباء وأصدقاء أثر شديد وصدى بعيد .

أحببت ابنة عمي حباً غلب علي عقلي وشعوري ، وكان الذي حببها اليّ جمالها الفاتن وخلقها العذب وروحها اللطيف ، وعِشرة طويلة متصلة تأصل فيها حبنا ونما نمو النبتة الغضة في الثرى الخصب والجو الملائم ، فاستوت على ساقها ، وتفرعت عن أصلها ، ثم أورقت ، ثم ازدهرت ، ثم رفّت علينا بالندى والظل ، ونفحتنا بالنعيم والعطر ، ثم آن لنا أن نتخذ منها العش الذي نسكن اليه ونطمئن فيه ، فأخذ أبي وعمي يمهدان للبناء ويستعدان للعرس . وعلى فجأة نعب على عشنا غراب ، ودوت على

شجرتنا الوريقة صاعقة ..

قالت امرأة عمي لامي ، وبوادر دمعها تقطر على خدها الشاحب : إن نبيلا واحسرتاه أخو عقيلة ابنتي ، تذكرت أني أرضعت نبيلا مراراً وانت مريضـة ، فماذا نصنـع يا اختي لنخفف وقع هـذه الصدمة على نبيل وعقيلة ؟

شكت أمي أول الامر في سلفتها وأساءت بها الظن ، فلعلها وجدت لابنتها عريساً آخر فزعمت ما زعمت . ولكن الحزن الشديد الذي بدا عليها ، والالم الممض الذي نال منها ، والحب المحض الذي تكنه لي منذ الطفولة ، والسرور الطاغي الذي كانت تبديه منذ أعلنت الخطبـة ، كل اولئك كان يبدد كل شك وينفي كل ريبة . شاع الخبر المشؤوم في بيتنا شيوع النار ، فشوى أكباداً وكوى أفئدة . وكان الخبر بالنسبة الي مؤيساً لا نور للامل فيه ، ولا سبيل إلى الصبر عليه ، فضاقت بي الارض ، وثقلت علي الحياة ، فذاب جسمي ووهن عظمي ولزمت السرير أياماً لا يأخذني نوم ولا يهنأني طعام ، حتى خاف عليّ أهلي فقلبوا على جسمي ونفسي صنوفا من العلاج ، فلم ينجع فيهما شيء . وأخذ أبواي يسرّيان عني بالامل في أن يجدا شهادة تكذب الرضـاع ، أو فتوى تجـيز الزواج ، ومنعوا عقيلة من لقائي لعل بُعدها يساعد على سكوت الالم واندمال الجرح ، ثم رأوا أن أبعد عن وهيج النار ومثار الشجن . فقرروا أن أرحل إلى لبنان وسورية . وها أنذا بعـد شهرين قضيتها في ضهور الشوير ودمشق لا أزال كما ترين ، مطبق الجفنين على صورتها ، مطوي الجوانح على حبها ، أرسل اليها كل مساء رسالة وأتلقى منها كل صباح رسالة ، ولم يمل قلبي اليك الا لأن فيك مشابه كثيرة منها ، فأنا أراها في وجهك ، وأسمعها من فمك ، وأتمثلها في روحك العذب وطبعك المهذب .

ثم أقبل الخادم بألوان الطعام ، فسكت هو ، واستمررت أنا أصغي

الى أصداء هذا الحديث تتوارد على خيـالي وتتردد في نفسي ، فتعتريني الشفقة عليه ، وتساورني الغيرة منها ، الغيرة ؟ نعم يا سيـدي شعرت بالغيرة ولا أدري مبعثا لهذا الشعور ، ولا معنى لهذه الكلمة .

أصبح من همي منذ ذلك اليوم أن أطيل الجلوس اليه في الفنـدق ، وأكثر الخروج معه الى الحدائق ، ولم تعوزني الوسائل التي كنت أتذرع بها الى عمتي لتعليل الجلوس أو الخروج . وكانت أحاديثنا سقاطـــا من أفانين شتى ، منها النجوى والشكوى ، ومنها الطبيعـة والناس . فإذا أفضى بنا الحديث الى ذكر عقيلة عطفته برفق الى موضوع آخر ، حتى لا يذكرها فتعاوده لوعة البين وحرقة الذكرى . ولا أكذبك فقد كان في نفسي باعث آخر يحملني على طي الحديث عنها ، ذلك هـــو الغيرة الحاقدة من أي فتاة تستولي على قلبه ، وتستأثر بحبه . لقد أحببته منذ رأيته ، ثم أخذ هذا الحب منذ عرفته ينمو على مرور الساعات والدقائق ، بانسكاب روحه الرويّ في روحي الظمـآن ، عن طريق النظر والحديث والخلوة ، وكان من أقوى العوامل التي أوقدت صدري بهذا الحب أنـــه مشغول عني وأني يائسة منه . هو مشغول القلب منذ صباه بابنة عمه . ومن الصعب خلو القلب من هوى دخيل شغله على فراغ وتمكـّـن به عن أصالة . وأنا مقطوعة الرجاء من ثمرة هذا الحب ، لأن الهوى بيني وبينه غير متكافيء ولا متبادل . هو يحب فيّ عقيلة لأني صورتها في عينه ، وأنا أحب فيه وجودي لأنه حقيقته في نفسي ، وهو مع ذلك قاهريّ وأنا بغدادية ، ومسلم وأنا مسيحية ، فاقتراني بـــه موقوف على مواتاة الظروف وموافقة الأهل . ولو كانت إقامته في دمشق ستطول لكان من الممكن أن يحمله اليأس من عقيلة على التفكير في غيرها ، ولكان من الجائز أن تكون هذه الغير هي أنا ، وإذا وقع في حبي كما وقعت في حبه سهّل الحب كل صعب ، وأدنى كل بعيد ، ولكن بقاءه بيننـــا

موقوت مهما يطل ، وخروج عقيلة من حياته بطيء مهما يكن ، وليس للعقل على الهوى سلطان حتى أحتكم في حاضر أمري ومستقبله الى المنطق ، فلم يبقَ إلا أن أفوض أمري الى الله ، وأترك زمامي في يد القدر .

أخذت أعب من هوى نبيل عباً متتابعاً لا أتنفس خلاله ولا أكتفي منه ، كنت أحبه بأذني وعيني وقلبي ، في كل كلمة وفي كل نظرة وفي كل خفقة ، في جلوات « الزبداني » وخلوات « بلودان » ومسارب « الحميدية » ومسارح « الغوطة » ، لأني كلما فكرت في أن يوم الرحيل آت لا ريب فيه ، عشت غلوة حتى امتلأ وجودي كله بالهواء ، فلا أفكر إلاّ فيه ، ولا أحلم إلا به ، ولا أعيش إلا معه ..

غبنا معاً ثلاثة أسابيع في نشوة متصلة من رحيق الحب ، لم نفق منها إلا على برقية هبطت من القاهرة تدعو نبيلاً الى العودة . فكان وقعها عليه وقعاً مبهماً ، لا هو سار ولا محزن ، كان مشوباً بالأسى على فراقي ، وبالفرح للقاء أهله . أما وقعها عليّ ، بالرغم من توقعي لها ، فقد كان أشدّ من وقع خبر الرضاع على عقيلة ، ذلك لأن عقيلة ستراه بحكم الجوار والقرابة . أما نورا فلن تراه حتى يرى الأعمى النور ، والميت النشور ، والحالم الحقيقة . قضينا ليلة الفراق ساهدين في الفندق ، يتحدث هو عما سيلاقيه من الكرب إذا لم يجد في القاهرة ما يواسيه ويسليه ، وأتحدث أنا عما سأعانيه من الفراغ الذي سيتركه في حياتي بعد تنائيه وتناسيه ، ثم تمنى وتمنيت أن تتاح لي الوسيلة لأزور مصر ، فنمضي معاً في طريق هذا الهوى العذري الى الغاية التي كتبها علينا القضاء فيه .

وفي الصباح صحبته الى ميناء بيروت ، وهناك على سلّم الباخرة جمعنا ما تفرق من عواطفنا وذكرياتنا وأمانينا ، وضغطناه وحفظناه في

قبلة قوية كانت هي الأولى والأخيرة . ثم عدت الى دمشق من غير نور ولا أنس ولا أمل . عدت كالثكلى شيعت وحيدها الى المقبرة ، ورجعت لترى أثره في كل غرفة ، وتجد ريحه في كل لعبة ، فهي تفر من البيت الذي يذكرها به الى البيت الذي ترجو أن يسليها عنه ، وكذلك فعلتُ ، فررت من الفندق الى المنزل ، ومن المكتب الى السرير . ثم اعتراني من الهم والسقم والانقباض ما قصّت بعضه عليكم عمتي .

وبعد فقد سمعتَ الصدى ولم تسمع الصوت ، وأحسست الوهيج ولم تمس النار ، وعرفت الجملة ولم تعرف التفصيل ، والحال كما ترى تشتد ولا تخف ، وتستحكم ولا تنفرج ، فهل عندك لقصتي مساغ ، ولأزمتي فرج ؟

فقلت لها وقد نفّست باعترافها عن صدرها المكروب فاستراحت الى أن تتقبل الخلاص من الكاهن : إن أمرك يا نورا مع نبيل وجاك لهو الأمر الذي وصفه الشاعر بقوله :

جننا بليلى ، وهي جنّت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

وسأحاول أن أعالجك بما عالجتِ أنت به نبيلا ، فلعلي أصيب من النجاح فيك أكثر مما أصبت أنت من النجاح فيه .

لا علاج للعاشق إلا السلوان . والسلوان شراب كان الأعراب يتخذونه من صَيِّب المطر على خرزة تسمى السلوانة ، ثم يسقونه العاشق ليسلو . ولم يعد في الامكان اليوم العثور على هذه الخرزة السحرية ، فحل محلها النسيان ، والنسيان بمعونة الزمان والصبر والشغل ، يمحو الصورة من الذاكرة ، ويطمس الماضي في الذهن ، لذلك كان همي الأول ألا أدع وقتاً فارغاً تجترُ فيه ما اختزنته في صدرها من رقيق العواطف ، وجميل المواقف مع نبيل .

فحاولت أن أنسخ عاطفة بعاطفة ، وأستبدل موقفاً بموقف ، وكانت هي قد وجدت في قولي جزءاً من عشها الذاهب ، وأملهـا الخائب ، للتماثل الذي بيني وبين حبيبها في الجنس والسحنة واللهجة ، فجعلت وقتها كله لي ، وأردت أن يكون فراغي كله لها ، فنحن في البيت نقرأ ونتحدث ونلعب الورق ، وفي الخارج نجلس على (رأس جسر مود) في قهوة ضحيانة ، ترقد على صدر دجلة النابض ، وتستغرق في الضوء والسكون ، فنجعل ظهرينا الى أحلاس القهوة ، ووجهينا الى صفحة النهر ، وعينينا الى ضفة الكرخ ، فنجتلي هذا المشهد الرائع قليلاً . ثم نرقد الى أنفسنا فنتذاكر كل حديث إلا حديث دمشق ، وكثيراً ما يلهينا الحديث المشفق عن مائدة البيت ، فنأكل « الأبيض والبيض والعنبا » من البائع الجوال ، ثم نواصل النجوى والحديث الى المساء . وفي بعض الأصائل من أيام القيظ ، كنا نفر من وقدة البيت الى « جزرة دجلة » ، فنجلس حيث يتنفس علينـا الماء بالطراوة ، ثم نأكل السمك المسقوف ، ونتفكه بالبطيـخ المبرد ، ثم نقضي العشية في زورق يهدهدنا ساعة أو ساعتين على ظهر النهر الخالد الذي تراقص عليه « العُقاب » و « الدلفين » بالخليفة الأمين ، وحسانه وقيانه وندامه .

وفي أيام الجمع والآحاد كنا نخرج من بغداد منفردين الى منازه العراق ومغانيه وآثاره ، فيوماً في مجالي الرستمية على نهر ديالي نستمتع بالخـلوة والسكون ونستغرق في الهوى والشجون ، ويومـاً في بساتين بعقوبة ، ذات الظلال والثمر ، نتخذ تحت أشجار التفاح والبرتقال مضاجـع على العشب ، أو مقاعد على الجدول ، أو مماشي تحت الكروم ، ثم نتبادل الحديث والنظر ، فتارة تقول وأنظر ، وتارة تنظر وأقول . والقول كان أفانين من شعر العاطفة ، والنظر كان أشعة من نور القلب . ويومـاً بالكاظمية أو كربلاء أو النجف ، نزور أضرحتها المقدسة ، ذوات القباب

المذهبة ، ونروّح بعبيرها المبارك على النفس العانية ، والكبد القريحة ، ويوماً بإيوان كسرى أو أطلال بابل أو آثار نينوي ، نجعل منها دروساً في تاريخ الجبارين من بني الانسان ، نستخدم فيها لغة العقل لا لغة القلب ، ونستخرج منها ملحمة الماضي لا مأساة الحاضر .

كانت كل هذه الخلوات والرحلات وما تخللها من فتون وفنون أحجارَ اللحد لحبّ أخذ يموت ، وأعوادَ المهد لحب أخذ يولد . كان قلبها لا يزال مذبذباً بين جاذبية الحب الذي غزاه على بَرَدى ، وجاذبية الحب الذي اعتراه على دجلة . وكان قلبي لا يزال مخدوعاً بأنه يمثل عواطف هذا الحب ومواقفه وأعراضه لينقذ الفتاة من بلاء وقعت فيه ، ولكن الذبذبة لم تلبث أن اطمأنت الى قرار ، والخـــداع لم يلبث أن تكشف عن حقيقة . واستعجل هذه النهاية أن الفتاة المراهقة أو أي فتاة لا تستطيع أن تعيش طويلاً على ذكرى حب ، تعيش عليها لأنها تكره الخلو ، فإذا شغل قلبها حب جديد تركت الأثر وتعلقت بالعين ، وخرجت من الخيال لتعيش في الواقع .

وهكذا أصبحنا محبين محبوبين ، لا نتحدث عن ثالث ولا نفكر في أحد ، وكان من أمري معها ما كان من أمرها مع نبيل ، حاولت أن تسليه عن « عقيلة » فوقعت في حبه ، وحاولتُ أن أسليها عن « نبيل » فوقعت في حبها . ولم يكن الحب الذي بدأ بينها وبين نبيل ثم عاد بينها وبيني إلا حباً صوفياً ، ليس له عرض ولا غرض إلاّ حديث القلب للقلب ، وأنس الروح للروح في الخلوة العفّة والنزهة النزيهة . ليس لهذا الحب مدى من الطبيعة أو الحس حتى يفتر إذا بلغه ، إنما هو كالعشق الآلهي في عمقه واتساعه وشموله وذهوله وسكرته ، لأنه اتحاد وجود في وجود وفناء ذات في ذات !

مرت الأيام على هذا الحال مرور الحلم اللذيذ في النوم الهادىء ، لا يزعجنا كابوس من هم ولا نُبوّ من قلق . وكانت « نورا » في تلك المدة قد عاد اليها صفاء نفسها ونضارة صباها ، فتفتح جسمها الغض في حرارة الحب كما يتفتح الورد الجوري في دفء الربيع ، فهي تمرح وتلهو وتقابل وتشارك . فاغتبطت الأسرة بهذا التغيير ، وتوسعت في اللهو ، ونشطت في الأنس ، وعاد البهو الرحيب سيرته الأولى من اللعب والرقص والموسيقى ، وقضينا في هذه النشوة الصوفية أحد عشر شهراً ، لا يسأل القدر المقدور متى نفيق منها ، ولا كيف ننصرف عنها ، ولماذا نسأل ؟ أنا أعلم أنها موقوتة ببقائي في بغداد ، وبقائي في بغداد لن يتجاوز أول هذا الصيف [1] ، وهي قد عودت نفسها ألا تفكر في الغد ما دامت مشغولة الفكر باليوم ..

ولكن الزمن ينقضي والعمل ينتهي ، واليوم الذي سأغادر فيه بغداد يتحدد . ولا بد أن أبلغها الخبر ، وسأبلغها إياه في أسلوب سائغ من

---

(١) ارتأت سياسة التعليم يومذاك بحجة ضيق الميزانية واشتداد الازمة النقدية ، لما طرأ على الزراعة من كساد ، أن تغلق دار المعلمين العالية سنة ١٩٣٢ ، وقضى الأستاذ الزيات بقية السنة الدراسية يدرس طلاب الصف المنتهي من دار المعلمين الابتدائية وهم على مستويات ضعيفة، وما يدرس فيها من المواد العربية لا تتلاءم مع مستوى درس الزيات العالي .

كان الزيات في السنة الأولى يصطحب زوجته ، وسكن داراً بجوار دار يسن الهاشمي القديمة على مقربة من الثانوية المركزية ، وكانت حبة بغداد قد استمرأت جسد الزوجة المصون ، فعلمت علامتها في مواضع من جسمها . وكان من حسن حظها انها قد تجنبت وجهها فلم تشوه جماله ، وكانت قد عقمت سنوات طويلة فأفادتها الرحلة الاخصاب ، فحملت حملها بولدها (رجاء) . وكان طلابه المقربون اليه يجالسونه في بعض مقاهي بغداد ، فبشرهم بالمولود الجديد الذي وصله نبأه على جناح البرق ، فاغتبط واغتبطوا ، وسألهم ماذا يقترحون له من الاسماء . أما هو فاقترح اسم عاطف ، فلم يوافقوه لأن لمعنى عاطف دلالة خاصة في العراق ، واقترح ناجي معروف اسم رجاء ، فوافق على التسمية وأبرق لزوجته به .

الكذب . والكذب الأبيض الذي ينفع ربما كان خيراً من الصدق الأسود الذي يضر ، فقلت لها ذات يوم ونحن نتقي بالنوافذ المغلقة والستائر المسدلة ، عاصفة التراب التي تثور على العراق من حين الى حين ، فترد نهاره ليلاً ، وسماءه أرضاً ، وصفاءه كدورة . إن العطلة الصيفية ستبدأ عما قريب ، وسأقضيها في القاهرة بين أهـلي ، وسأعود إن شاء الله مع الخريف .

وجمت أول الامر للخبر المنتظر ، ثم تمالكت نفسها وقالت في لهجة المستسلم وهيئة المحزون : لقد شفيتني من داء بداء ، وسأفتقدك في أشهر العطلة الثلاثة ، وأخشى أن يهاجمني الهم وأنا وحدي فأنتكس ، وأرى أن أقترح على أبوي أن أصطحبك الى دمشق ، فأقضي الصيف مع عمتي ، حتى إذا حانت عودتك الى بغداد مررت بي فأعود معك ...

وفي صباح الغد خرجت فاشترت لي ديوان الشرقيات للامرتين ، و « ألبوماً » فاخراً ضمته على بعض صورها في أسنان وأوضاع مختلفة ، ثم خاتماً ذهبياً من صنع « الصبة » نقش عليه اسمي بالمينـاء ، ولا يزال بعد تسع وعشرين سنة في إصبعي ، واتخذنا الاهبة للسفر ، وقطعنا بادية الشام على سيارة من سيارات « نيرن » في ليلة من ليـالي الصحراء ، تطلق دجاها النجوم الزهر ، حتى باتت كيوم الدجن . وكانت نورا قـد قضت الهزيع الاول من الليل تتكلم عن السماء والنجوم وحياة الاعراب وقصص الحب حتى قرسها البرد فأستدفأت ببطانيتها ، ومالت على كتفي ونامت . وفي تباشير الصباح المشرق المطل ، بلغنا فندق العمة صوفي ، فتركت نورا تستنشي نسائم الذكرى وتتعلق بأسباب الامل ، وواصلت السفر الى بيروت .

ومن الفضول الذي لا يزيد في علمك أن أصف لـك موقف الوداع فإنه موقف عرفته الخليقة كما عرفت غشية الموت . ذاقته كما ذاقت حر

الحريق . والذي يهمك أن تعرف أني لم أكد أستجم من عنـــاء السفر الطويل في السيارة والباخرة والقطـــار حتى زرت « نبيلا » في داره بالمعادي ، وكنت قد عرفت عنوانه منها — فقدمت نفسي اليه ، وقصصت خبرها عليه ، وروى لي عفة نفسها ، ورقة قلبها ، وحسن حديثها أكثر مما رويت ، وشكا اليّ من لوعة البين عنها ، وحرقة اليأس منهـــا ، وحرارة الشوق اليها أكثر مما شكوت ، واجتمع هواي وهواه فاتحـدا في صداقة وثيقة ومودة خالصـة ، وعشنا معـاً ولا نزال نعيش في ذكرى هذه النفس الطيبة التي ظهرت في حياته وحيـاتي ظهور الامل الباسم في قطوب اليأس ، والروح المؤانسة في وحشة الغربة . ثم غابت في الأفق البعيد كما تغيب الرؤيا السماوية في حجاب الغيب ثم لا يبقى منها في القلب إلا جلالها ، ولا في العين إلا سناها [1] ..

---

(١) تزوجت من شاب من ذوي معارف ابيها ، وسعدت بزواجها وانجبت ، وهي ما زالت حية تعيش منعمة مع افراد اسرتها ، ولم يبق من تلك الذكريات إلا رسيس كرسيس الحلم الجميل او المتعة الحلوة لقصة قرأتها .

تأريخ

حياة ألف ليلة وليلة

هذا البحث القيم والتحقيق الدقيق لكتاب ألف ليلة وليلة ، ألقـاه الاستاذ الزيات ببغداد في قاعدة الثانوية المركزية ، في محاضرتين اثنتين أحداهما في مساء الخميس الاول من سنة ١٩٣٢ والاخرى في مساء الخميس الذي يليه . وقد حضرت المحاضرتين ، واستمتعت – كما استمتع عدد كبير من الاساتذة والمتأدبين – بحلو الحديث وجمال الصوت وسحر الإلقـاء . وكانت القاعة ، على سعتها ، تزدحم بالمستمعين ، ولما كان التحقيق الذي أجراه الزيات في المحاضرتين ممتعاً ، ويعد أول تحقيق شامل في العربية لتطور هذا الكتاب الشعبي ، ويمثل أدب الزيات وإنتاجه في العراق ، حرصت أن أفرد له حيزاً في الكتاب ، وأطبعه بنصه كاملا ضمن ملاحقه فضلا عن كتابه في أصول الادب . قال :

يخطو الدهر دائباً في وناء وكبرياء وصمت ، فيعفي الاثر ، ويفري الحجر ، ويبرى الحديد ، وتنال يده العابثة كل شيء في حيـاة المرء بالتغيير والنقص ، إلا شيئاً واحداً منـه يلوذ بسواد القلب فيستقر في قراره ، ويكمن كمون السر في دخيلته . أريد به ذكريات الصبي وأحلام الحداثة ، فهي باقية والجسم يتخوّنه البـلى ، ثابتة والعيش تزعزعه

الاحداث ، ناضرة والمنى يصوّحها اليأس ، مشرقة والنفس يغشاها من الهم ظلام وسحب . فمن منكم يا سادة لا يذكر أول بيت أبصر فيه الوجود ؟ وأول ملعب عرف فيه الرفيق ؟ وأول مكتب رأى فيه العلم ؟ وأول موعد لاقى فيه الحبيب ؟ ومن منكم لا يذكر ساعات السحر اللذيذة الهادئة في غرفة النوم الوثيرة الدافئة حيث كان أطفال الأسرة يتجمعون حول الجدة الحنون أو الأم الرؤوم أو الظئر الحانية ؟ فينصتون في سكون وشوق الى ما تقصه عليهم من روائع الأسمار وبدائع القصص، وهم من طلاوة الحديث ، وجاذبية الحادث ، وبشاشة المحدث ، في حال لا يصف الشعور بها غير شاعر . ثم لا يلبث هذا الرحيق العجيب أن يخدر الاعصاب الطفلية الرقيقة ، فتغفو تحت جناح الكرى وتسمع بقية الحديث الشهي في الحلم . هذه الاقاصيص الشائقة التي كانت لعقولنا سحراً ، ولعواطفنا المشبوهة سكراً ، ولقلوبنا الغضة فتنة ، هي نوع من الاحلام والاماني ، تراءت في ليل الحياة الطويل ، ثم تجمعت في ذاكرة الزمن القديم ، وتنقلت من عهد الى عهد ، ومن مهد الى مهد ، ومن بلد الى بلد ، تحمل في طواياها نفحات الحكمة المشرقية العالية ، وعطور الأزمن البعيدة السعيدة . فوجودها أثر لوجود الانسان ، لأنها ظاهرة طبيعية من ظواهره ، كالغناء والشعر والرقص ، فلا تعرف لها أولية ، ولا تجد في الغالب لظهورها علة . ولكن علماء الاساطير يزعمون أنها نشأت في الهند ، وهاجرت منها الى بلاد الفرس ، ثم رحلت الى بلاد العرب ، ثم استقر بها النوى في أقطار الغرب ! وفي كل مرحلة من هذه المراحل كانت تصطبغ بصبغة البيئة ، وتتأثر بخصائص الجنس ، وتتسم بسمات العقيده . وما أبطالها الذين وجدوا على الرغم من قانون الوجود ، ونازعوا أبطال التأريخ ثوب الخلود ، فقد كان لبعضهم ولا شك حظ من الحياة ، وشهرة بملازمة الاسفار وملابسة الغِيَر ، فتحدث الناس أولا بما فعلوا ،

ثم سرجوا حول اسمائهم وأنبائهم الأكاذيب والأعاجيب حتى اصبحـــوا أعلاماً على شخصيات متميزة في البطولة والحرب والحب والحيلة والكرم ، كدعد وليلى في الشعر ، وأبي نواس وجحا في التنادر .

أما أكثر الأبطال؛ فمن خلق الخيال ، ابتدعهم رموزاً للمثل الأعلى أو القدر العابث ، أو الجد العاثر أو السلطان الجائر ، أو الهوى المتسلط أو الأمل الآسي أو الحظ السعيد . وعلى ذكر الطفرلة ومناغيات الأمومة أراكم ولا ريب تركتموني أتكلم ، وعدتم بالذاكرة الى تلك العهود الحبيبة تتخيلون سحرها وتستعيدون ذكرها ، وتصيخون الى ذلك الصوت الحنون ينبعث خافتاً من أعماق الماضي القريب أو البعيد ، مردداً أسماء أولئك الأبطال الذين طالما اكتأبتم لاكتآبتم ، وتألمتم لمصابهم ، وشاركتموهم بالعطف في نعماء الحب وبأساء الحرب ولأواء الخطب ، من أمثال حسن البصري ونور الدين المصري ، والشاطر محمد ، والشاطر حسن ، إلى آخر ما سجلته الذاكرة .

أنا كذلك ، يا سادتي ، ذكرت حين كتبت هـذه السطور ، هاتيك القبور التي ضمت هواي ، ورفقة صباي ، ونوعاً من الحنان والاخلاص لم أذق له طعماً منذ غاض في هوة البلى منبعه ... ثم ذكرت شيئاً آخر : ذكرت مجلى من مجالي الأنس في القاهرة كان جمعة القلوب وألفـة النفوس ومستجمّ الخواطر ، فعصفت بـه ريـح المدنية الحديثة ، ذلك منظر المحدّث أو القصاص أو المسامر أو الشاعر في مقهى الحي ، وهـو في حلته الشرقية المفوّفة الضافية ، فوق صُفّته الخشبية البالية العاليـة . وقد تجمع بين يديه وعن يمينه وعن شماله أوزاع العامة وشيوخ المحلة ، يستجمون من كلال العمل اليومي برشف القهوة العربية وتدخين النرجيـلة العجمية ، وتبادل العواطف الاخوية ، ثم الاصغاء المشترك الى (أبي درويش) وهو يقص بصوته المتئد وجرسه الهـادىء المتزن ، حروب (عنترة) أو

وقائع (أبي زيد) أو مخاطر (ابن ذي يزن) ، فينقلهم بقوة تمثيله أو بحسن ترتيله ، على جناح الخيال الى عصور هؤلاء الابطال ، فيشهدهم مجد البطولة وسلطان الحب وفتك السحر وبطش المردة . ثم يرى الخبيث أن فورة الحماسة أو الشوق قد طغت في النفوس لوقوع البطل في أمر أو شدة ، فيسكت ليجمع « النقوط » من السمّار والنظّار ، فلا يجد هؤلاء مندوحة عن تعجيله ليعجل هو الى اطلاق البطل من إساره ، وانقاذ الجمهور من شدة قلقه ومرارة انتظاره .

وفي ليلة من هذه الليالي الساهرة تجدون القهوة ذات الضوء الشاحب والصمت الحالم والمنظر الكئيب ، قد خفقت فوقها الرايات ، وأشرقت في جوها الثريات ، وتلألأت في سمائها المصابيح ، وأخذت زخرفها بالسامرين . وقد جلسوا متقابلين على الدكاك العالية ، يطوف عليهم غلمان بأكواب من ذوب السكر المعطر بماء الورد ، وصاحبنا المحدث قد خرج الى القوم يتهادى في عمته المكوّرة وجبته المعصفرة وقفطانه الأنيق الأصفر . وقد تدلت من حزامه الحريري ذلاذل تنوس على بطنه المنتفخ الضخم ، فإذا استوى على عرشه المنجّد توهج البخور من جانب ، وتضوعت العطور من جانب ، ثم خشعت الاصوات ورَنَت اليه العيون ، وأنشأ يحدث ، فإذا بدا لأحد الجالسين أن يسأل عن سبب هذا المهرجان عجب أولاً من أنه لا يعرفه ، ثم أجابه بلهجة الفخور المزهو : هذه ليلة زفاف « عبلة » الى عنترة ...

فاذا كانت القصة قصة بني هلال ، وجدتم هذا الهوى الجميع قد استحال الى عصبية شنيعة ، ورأيتم إخوان الامس قد أصبحوا أعداء اليوم ، فطائفة تتعصب لبني هلال ، وطائفة تتعصب لبني زناتة ، وهؤلاء يريدون الشاعر على أن يقص واقعة ، وأولئك يسألونه أن يقص أخرى ، والشاعر

لا يجيب إلا لمن يجزل له العطاء ، فإذا رجحت كفة وشالت كفة ، أخذ يروي من ذاكرته وغيبه على هوى الفتنة الغالبة ما لم يسجله تأريخ ولم يدونه كتاب ، فيزوّر الغرائب ، ويختلق الوقائع ، ويقمش مما خزنه في حافظته في مختلف الأسمار ورقائق الاشعار ليحوك منها للبطل حلة تهز العجب في قلوب أشياعه ، وتلهب الغيرة في صدور خصومه ، فاما نفحة أخرى تميل به الى الجهة الثانية ، وأما معركة بين الحزبين تكون هي القاضية .

هذا الرجل الذي صورته لكم هذه الصورة المتقاربة ، هذا الرجل الذي ينام النهار ويجلس الليل يحدث أربع ساعات متعاقبة ، هذا الرجل الفكه اللبق الحافظ الواعظ ، هو الأثر التأريخي والنموذج الحقيقي لذلك القصاص البارع الذي خلف لنا كتابنا الغالي الخالد (الف ليلة وليلة) ..

يرجع تاريخ هذا القصاص يا سادة إلى صدر الاسلام ، والفضل في وجوده كان أيضا للقرآن الكريم ، فقد اشتمل كما تعلمون على مجملات من أخبار القرون الخالية والنذر الأولى ، وكان أعلم القوم يومئذ بتفصيلها من أسلم من أهل الكتاب ، كتميم الداري ووهب بن منبه وكعب الاحبار وعبد الله بن سلام . فكان هؤلاء ومن أخذ عنهم يجلسون الى الناس في المساجد ، يفصلون ما في كتاب الله من قصص الانبياء ، ويسرفون في تهويل هذه الانباء ، ابتغاء للعبرة والتماساً للموعظة . ووافق هذا الضرب من الوعظ هوى النفوس ، فازداد إقبال الناس عليه ، وكبر إفك القصاص فيه حتى طردهم أمير المؤمنين علي من المساجد ما خلا الحسن البصري .

ولكن دهاة السياسة رأوا سلطان هذا الفن على العقول ، وقوة أثره

في توجيه الميول ، فاتخذوه لساناً للدعاية وسبيلاً لافتعال الحديث واختلاق الأقاصيص في الاغراض الحزبية المختلفة . بدأ بذلك معاوية ، فولى رجلا على القصص كان إذا صلى الصبح جلس يذكر الله ورسوله ، ثم دعا للخليفة وحزبه ، ودعا على أهل خصومته وحربه . وكان هو إذا انفتل من صلاة الفجر جلس الى القاص حتى يفرغ من قصصه . وكان ولاته وقواده يقدمون القصاص في بعض حروبهم ليقصوا على المقاتلة أخبار الشهداء وما وعدوا به من حسن الجزاء . فعل ذلك الحجاج في العراق ، وجاراه فيه من حاربهم من زعماء الفرق . فقد ذكر ابن الاثير في حوادث سنة (٧٧) ان عتاب بن ورقاء سار في أصحابه قبيل المعركة يحضهم على القتال ويقص عليهم . ثم قال : أين القصاص ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : أين من يروي شعر عنترة ؟ فلم يجبه أحد ..

وسار الشعر والقصص في ركاب السياسة جنباً الى جنب ، يشبهان على الناس وجوه الرشد ، ويموهان على العقول صور الباطل . والقصاص كانوا في ذلك أشد وطأة على الحق ، لأنهم ينسبون ما يفترون الى التاريخ أو إلى الدين . فلما هدأت ثائرة الاحزاب ، وسكنت طائرة الفتن ، ونضجت العقول ، عاد القصاص الى المسجد ، فوجد الواعظ قد غلبه على مكانه ، والعالم قد فطن الى كذبه وبهتانه ، والخليفة قد استغنى عنه برواته وندمائه ، فانقلب الى العامة يسامرهم في أملائهم وأعراسهم بما أثر من أيام العرب ، ونقل من أساطير العجم ، وروي من أخبار الفتوح .. وانتشر القصاص في العواصم العربية حتى صاروا ظاهرة من ظواهر اجتماعها وحاجة من حاجات عامتها ورعاعها ، واشتدت هذه الحاجة حين انفجرت الدواهي على العالم الاسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده من عنف المتسلطين من السلاجقة . وعسف المتغلبين من المغول وغزو المتعصبين من الفرنك فطلبهم العامة تفريجاً للكرب ، والخاصة



الاستاذ احمد حسن الزيات والاستاذ محمد بهجة الاثري

في شهر شباط - سنة ١٩٦٨

تشجيعاً على الحرب ، ولكنهم كانوا في مصر أبرع صناعة وأنفق بضاعة وأرفع مكانة ، لان طبيعة إقليمها ونظام اجتماعها وطباع سكانها كانت تعين على ذلك : فهي قطر زراعي ملموم الرقعة متصل العمارة يجود بالخير الكثير على الجهد القليل فكان . لذلك أهله قليلي الاسفار ، يؤمنون بكل خبر ، كثيري البطالة ، يميلون الى اللهو والسمر ، وكانوا لا ينفكون بين يسر متدفق طلق ، إذا عم الفيضان وعدل السلطان واقتصد الموت . وعُسر متجهم إذا فحش الغلاء وألحّ الوباء وبغى الحاكم . وعلى الحالين كان السامر والمسامر عنصرين من عناصر الحياة ينظّسران بهجة الحياة في الرخاء ، ويسرّيان كربة النفس في الشدة . وكان أول من تولى القصص الرسمي في مصر سليمان بن عنترة التجيبي سنة ٣٨ هـ : تولاه مع القضاء ثم أفرد به ، ثم تعاقبت القصاص من بعده في مصر على اختلاف بينهم في القدرة والغرض ، فكانوا أصداء للعقيدة وأبواقاً للسياسة ، تسمعون عنهم في كل عهد لهجة ، ولكل دولة سنداً وحجة . وترون ذلك أقوى ظهوراً في عهد الفاطميين . فقد كان يعقوب بن كلس وزير المعز يعتمد على المناظرات في نشر فقه الشيعة ، وعلى القصص في جذب القلوب لأهل البيت . وكان مقتل الإمام (علي) ومأساة الإمام (الحسين) موضوع المنابر والسوامر في شهر رمضان والمحرم

وقيل إن ريبة حدثت في قصر « العزيز بالله » فتناقلتها الافواه ، ورددتها الأندية ، فطلب الى شيخ القصاص يومئذ يوسف بن اسماعيل[1] أن يلهي الناس عنها بما هو أروع منها ، فوضع قصة عنترة تباعاً في

---

(١) وقيل انه الشاعر الطبيب ابو المؤيد محمد بن الصائغ الجزري ، وممن قال بهذا الرأي الاستاذ كوسان دي برسفال الذي طبع لهذه السيرة ملخصاً في باريس .

اثنين وسبعين جزءاً ، سمرت بها مجالس القاهرة منذ ذلك الحين الى اليوم . وهي إلياذة العرب ، لا ينازعها هذا الشرف الى الآن عمل فني آخر .

وفي القرن الرابع للهجرة كانت فورة هذا الفن ونهضته في بغداد والقاهرة . ففي عهدي المقتدر بالله العباسي ، والعزيز بالله الفاطمي ، كان القصاص الحكوميون والشعبيون يحتشدون لوضع الاخبار ، ويتنافسون في جمع الاسمار من الوراقين والرحالين والعامة .

ولكن القصص في العراق كان من عمل الكتاب ، يصورون فيه أنبل عواطف الناس ، وأجمل مواقف الحياة ، ويلقونه زهوراً وعطوراً في مجالس الخلفاء وسوامر الملوك . فكانت بلاغة المتحدث وجلالة السامع ونبالة الموضوع ، تطبع القصة بطابع الجمال والاعتدال والقصر ، وتنزع بها الى السليقة العربية المجبولة على الإيجاز والقصد في الشعر والخطب والرسائل والقصص . فما جمعه ووضعه (الجهشياري) و(ابن دلان) و(ابن العطار) في القرن الرابع من الاقاصيص فى الحب الطروب والترف المسرف ، وما وضعه من قبل هؤلاء (سهل بن هرون) و(علي بن داود) و (أبان بن عبد الحميد) من الأسمار في الامثال الرمزية والحكمة العالية والسياسة الرشيدة ، وما صنعه من قبل هؤلاء (عبدالله بن دأب) و(هشام الكلبي) و(الهيثم ابن عدى)[١] من الاخبار في الهوى العذري والسخاء العربي في الاسلام والجاهلية ، كل اولئك موسوم بسمة العقلية العربية الخالصة من حذف الفضول وترك الاستطراد وقلة المبالغة .

أما القصص في مصر فكان غالباً ، من عمل القصاصين والمسامرين ، يلفقونه من الكتب ، ويتلقفونه من الإخوان ، ويحدثون به الدهماء في

---

(١) عيسى بن دأب وهشام الكلبي والهيثم بن عدى من الوضاعين لا يعتمد برواياتهم .

المجالس العامة . ورزق هؤلاء القصاص على قـدر ما عندهم من القصص فاذا ما انقطع أحدهم عن الحديث انضوب معينه انقطعت بـه أسباب العيش ، فهم لذلك مضطرون الى تطويل الموضوع بالاستطراد ، وبسط الحادث بالتزيد ، وجذب القلوب بالإغراب والمبالغـة . ومن ثم اتخـذ الادب القصصي في مصر شكلا لا عهد للادب العربي بـه ، ذلك هو شكل القصة بالمعنى الذي نفهمه من كلمة (رومان) في الاصطلاح الغربي ، فأن المعروف الشائع من قبل إنما كان « Fable » والاقصوصة « Conte » والحكاية « Novelle » وهذه الانواع قد تولد بعضهـا من بعض على نحو ما يرى الاستاذ (بروتيير) الناقد الفرنسي من تطبيق مذهب (دارون) على الانواع الادبية . فالاقصوصة نشأت من المثل ، والحكاية نشأت من الاقصوصة ، والقصة نشأت من الحكاية باتساع الخيال وفعل المبالغة وحكم الزمن . ولكن القصة العربية قد تأخر نشوؤها إلى القرن الرابع حتى ظهرت بمصر ، لان عملها يقتضي التطويل والتحليل والعلم بطبائع النـاس وأوصاف الشعوب . والعرب في عهودهم الاولى كانوا أبعـد بطبيعتهم ومعيشتهم عن هـذه الامور ، ثم كانوا في عصور التحضر والاستقرار يؤثرون الخاصة بأدبهم فيضطرون في حضرة الملوك أن يراعوا الادب ، فلا يغرقون في الحادث حتى يجانب العقل ، ولا يسهبون في السمر حتى يجاوز المجلس ولا يسفون في القول حتى يصادم الخلق .

أما القصاص المصري ، فقد تهيأت له الاسباب اللازمة لخلق القصة . كان سمير الاوزاع والعامة فلم يتقيـد معهم بقوانـين الخلق ، ولا بقضايا المنطق ولا بوقائع التأريخ . فهو يصطنع اللهجـة الصريحة ، ويستعمـل الالفاظ القبيحة ، ويبالغ في الخلط والتلفيق قصداً الى الاغراب والتشويق . ويعتمد غالباً على المفاجآت القوية ، ويستطرد كثيراً إلى الحوادث الفرضية ثم يصادم الوقائع ويشوّه الحقائق ، لأنه يجهلها ، والجمهور الذي يسمعـه

لا يعلمها ، فاستطاع بذلك أن يزور أغرب الحوادث ، ويجمع شتى الأحاديث ، ويترك لنا هذه المجموعة القصصية التي كانت ولا تزال للخاصة مبعث لذة ، وللعامة مصدر ثقافة .

كان القصاص المصري يعتمد في مادته على ما يصدر عن بغداد من الأقاصيص الموضوعة والروايات الصحيحة والمدخولة ، ثم يضيف الى ذلك ما تنوقل في مصر وما تجمع من الأخبار من التجار والرحالين والبحارين . فقد كان هؤلاء ، بعد عودتهم من البلدان النازحة ، يدونون ما رأوا من الأعاجيب ، كما فعل اليعقوبي وابن فضلان وبزرك بن شهريار مثلاً ، ثم يحدثون بها الناس ، كأن يقولوا لهم مثل ما حكاه ابن خرداذبه من ان في بعض الامم رجالاً عراض الوجوه سود الجلود لا تزيد قامة أطولهم على أربعة أشبار ، في جلودهم نقط حمر وصفر وبيض ، وأن فيهم من له أجنحة يطير بها ، ومن رأسه كرأس الكلب وجسمه كجسم الثور والاسد . وما جاء في كتاب (المستطرف) من أن في « البلغار » مَنْ طوله أكثر من ثلاثين ذراعاً ، يأخذ الفارس تحت إبطه كما تأخذ الطفل الصغير ، ويكسر ساقه بيده كما تقطع حزمة البقل ، وما رأى الرحالون بالطبع هذه الاشياء ، وانما رأوا صورها على الآثار التي خلفها البابليون والفراعنة والرومان والفرس ، فظنوها حقيقة .

كان القصاص يتناول هذه الاخلاط فيؤلف منها قصة كبيرة الفصول والفصول تدور حوادثها على بطل واحد ، ولكنها تعرض من قبيل الاستطراد الى حوادث شتى لا يصلها بحياة البطل إلا صلة واهية . انظروا مثلاً كيف صنع قصة عنترة : بناها على حادثة أصيلة صحيحة هي (حرب داحس والغبراء) التي شبت لظاها بين عبس وذبيان قبيل الاسلام ، ثم دارت رحاها على قطب من أقطابها وهو عنترة بن شداد العَبْسي ،

فذكر نشأته في حادثة خرافية جذابة ، ثم وصف رجولته وبطولته وفصاحته وحبه وكرمه ، وما اتصل بذلك من عادات البدو ، كالضيافة والحماسة والاجارة والشعر والغزو والسلب والثأر . ولكن حروب عبس وذبيان مهما هوّل فيها وطوّل لا تشغل بال السامعين طويلاً ولا تدّر عليه من المال كثيراً ، فهو يوقع الخصومة بين عنترة وبين فرسان العرب ، فيقابلهم ويقاتلهم ويسمهم جميعاً بالنكول والعجز . والقصاص في أثناء ذلك ينقلنا في السهول والاودية ، ويقلبنا بين المضارب والاخبية ، حتى جلا لنا من الحياة الجاهلية صورة صادقة لا تتمثل في خواطركم عن طريق التاريخ المقتضب المفكك إلا بعد جهد . ثم يرى مع ذلك أن الشوق شديد ، وأن الامد الذي يريد بعيد ، فيخرج البطل من الجزيرة العربية ، ويقدم به الى مصر بلد القصاص ، فيقود بها عنترة حروباً ، ويهلك شعوباً ، ويبتني حصوناً ، لا تزال العامة تعرفها إلى اليوم باسمه .

ثم يذهب به الى القسطنطينية ، ويزوجه من امرأة رومية ، حتى إذا ظفرت المنون أخيراً بالشجاعة الخارقة ، عاد ابنه من (بيزنطة) إلى الحجاز ، فطالب بعرش أبيه ، وحارب معاديه ومغتصبيه . والميتة التي اختارها القصاص لعنترة تدل على قدرة فنية عجيبة .

وكان (لامرتين) لا ينفك بها معجباً ومنها طروبا ، فقد ذكر أن (الاسد الرهيص) أحد خصوم عنترة المقهورين الموتورين رماه غيلة بسهم مراش مسموم ، فلما أحس البطل فعل الموت في جسمه الوثيق ، خشي على قومه من بعده شرّ الهزيمة وعار الفشل ، فوقف حيال العدو الثائر ممتطياً جواده متكئاً على رمحه ، وأمر جيشه بالتقهقر والنجاة ، فأرتد الجيش ، وبقي هو واقفاً يعالج سكرات الموت ، والعدو متحفز للهجوم ، ولكنه لا يجرؤ عليه خوفاً من عنترة ، حتى فاضت روحه على صهوة

جواده ، وكان الجيش المتقهقر قد بلغ مأمنه . فلما طال وقوفه وجاوز الحد سكونه ، ارتاب الجيش المهاجم ، فدبر حيلة لكشف الأمر ، فأرسلوا إلى جواده حجْراً تهيجه ، فلم يكد يراها الفرس حتى وثب وثبة خرّ لها فارسه على الارض صريعاً .

والغالب فيما أظن ، أن القصاص قد أخذ هذا الختام البارع من مصرع (سليمان بن داود) أمام عماله المسخرين من الجنّ ، وقد أجملته البلاغة المعجزة في هذه الآية الكريمة ، « فلما قضينا عليه الموت ما دلهّم على موته إلا دابّة الارض تأكل مِنْسَأته فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .

ظهرت هذه القصة الحماسية الجميلة في عصر كان وادي النيل فيه منيع الحوزة باهر الجلالة صافي المورد ، لا يكدره والغ ولا واغل ، فكان استقلاله يلهم العزة ، وعروبته توحي الشهامة . فلما هبت الاعاصير الهوج بالبربرية الجامحة فأطفأت منائر بغداد وزعزعت عرش الخلافة ، وعبثت العجمة الجاهلية بتراث العرب من علم وأدب وخلق ودين ، وعدت ذئاب الغرب باسم الصليب على الشام ومصر تنبح الهلال الآفل وتنهش المجد الطريد . رأينا القصة المصرية تصور هذه الحياة الحزينة الآفلة تصويراً عجيباً ، ورأينا القصاص قد اتسع خياله بقدر ما ضاق عليه ، فهو يخلق بلاداً لم توجد ، ويتصور حوادث لم تقع ، ويعتمد في العمل على الجن والسحر والخوارق .

فبين القرنين السادس والثامن من الهجرة ، ظهرت في مصر سلسلة من القصص الطويلة الجذابة غُفلاً عن أسماء مؤلفيها ، لان القصاص المحترفين إنما كتبوها لانفسهم فيما أرجح ، ثم توارثوها خلفاً عن سلف حتى بلغت عهد المطبعة ، فنشرت على شكلها دون اسم ولا وسم ولا تعريف .

وأشهر قصص هذا الدور سيف بن ذي يزن والاميرة ذات الهمة وفيروز شاه . فأما أنها كتبت في هذي العهود ، فذلك واضح لأدنى نظر من لغتها وأسلوبها وما تدور عليه من عادات واعتقادات وصور . وأما أنها كتبت بمصر ، فذلك ثابت من أماكن وقائعها وأسماء أشخاصها . فأبطالها جميعاً عاشوا بمصر حتى الذين لم يروها أقدموهم اليها ... فالمهلهل بن ربيعة كان الوجه البحري ميدان حروبه ، وسيف بن ذي يزن هو الذي أجرى النيل من جبال القمر بكتابه السحري الذي دفنه في جزيرة الروضة بالقاهرة ، وهو الذي خطط مدن مصر ، فالجيزة اسم من أسماء زوجاته . وسنبك الثلاث ودمنهور الوحش قائدان من قواده ، والنيل تفرع الى فرعي رشيد ودمياط لان الملك (سيفا) وقف وهو قادم به من السودان يقاتل الكفار الذين اعترضوه في رأس الدلتا فوقف النيل بوقوفه ، ولكن الماء وراءه قد عبّ عبابه وطفحت أواذيه ، فاندفق شطر منه الى الشمال ، واتجه الملك بالشطر الآخر الى اليمين . ومدينة (سمنود) أصلها سماء نود ، لان الحكيم (نودا) صاحبها قد عقد عليها سماء بالسحر توقعاً لغارات الملك سيف وهو ذاهب بالنيل الى مصبه ، ثم دفنه المؤلف أخيراً فوق جبل المقطم — وقال إن قبره هو الذي يعرف الآن (بالجيوشي) .

وقد كان للحروب الصليبية أثر ظاهر في نسج هذه القصص في هذا الدور ، فان العواطف الدينية والحماسة القومية التي الهبتها في قلوب المسلمين هذه الغارات قد حملت القصاص على أن يتملق هذه العواطف ويغذيها بما يلفق من الاشعار والاخبار في فضائل الجهاد والاستشهاد والصدق والصبر . فسيف بن ذي يزن كان حنيفاً مسلماً ، يقتحم المعاقل والارصاد على الوثنية والشرك في معالم الارض ومجاهلها وهو يقول : (لا آله إلا الله ابراهيم خليل الله) ، وكذلك سائر الابطال في القصص ،

إلا انهم كانوا قبل الإسلام لابعده .

وبين القرنين الثامن والعاشر للهجرة كان حكم المماليك بفساده وحكم الاتراك باستبداده ، قد أتيا على مـا بقي من أركان الاجتماع ، وحلـلا أواصر الاخلاق والطباع ، ومني الناس بإلحـاح الأوباء وشراهة الجُبـاة والرؤساء ، واستشعرت نفوسهم ذل الحرمان والقهر ، فأخلدوا إلى التصوف أو إلى المجون ، وعالجوا همومهم بالحشيش والافيون ، وحارب بعضهم بعضاً بالشطارة والحيلة ، وتقاتلوا على حطام الدنيا بالخديعة والغيـلة ، وحال نظام الفتوة في مصر الى مناسر من اللصوص والعيارين يقطعون متون السبل ويعيثون بالامن . والناس من ضعف السلطان يخضعون لهؤلاء ويجلونهم إجلال الزعماء، ويتناقلون حوادثهم وأحاديثهم بالاعجاب والمبالغة ، فظهر حينئذ ذلك القصص الوضيـع الذي يمثل هذه الحـال بحقارتهـا وسفالتها ، وبصور تلك البيئة بخرافاتها وجهالتها ، كالقصص الذي يدور على (علي الزيبق) و (أحمد الدنف) و (حسن شومـان) و (دليلة المحتالة) و (دالة المحتالة) كما يسميها المسعودي . وأصبح اسلوب القصاص في هذا الدور دائراً بين الجهالة والقحة ، فهو يستعمل في قصصه لغـة مبتذلة وتراكيب فاحشة وجملا محفوظة ووقائع واحدة يرددهـا في كل قصة ويكررها في كل مناسبة . وكانت شهوة السهر والسمر قد بلغت مداها في ذلك الحين لتغلب البطالة على أهل القاهرة ، واعتاد الناس في الثروة على الحيلة والشعوذه والسحر والقدر ، فتكدسوا في السوامر حول القصاص . وقد تجمع لهؤلاء من خلال القرون ذخيرة وافرة من الاساطير والاسمار فهموا يدونونها ، كما دونت تلك السير من قبل ، فكان مما دون في تلك الحقبة الغريبة كتابنا وموضوع محاضرتنا (ألف ليلة وليلة) ..

(الف ليلة وليلة) يا سادة ، كتاب شعبي ، تمثلت فيه طوائف الشعب وطبقاته ،وتراءت من خلاله ميوله ونزعاته ،وتكلمت فيه اساليبه ولهجاته ،فهو

كالشعب. وكل شيء للشعب قد لقي من جفوة الخاصة وترفع العلية أذى طويلاً، أغفله الادب فلم يتحدث عنه، واحتقره الادباء فلم يبحثوا فيه، ورآه محمد بن اسحق المعروف بابن النديم فقال إنه غث بارد، لانه نظر اليه نظره الى الادب الارستقراطي الذي يصور الترف، ترف الخيال وجمال الصنعة. فلما حقق العصر الحديث تغلب الديمقراطية وسيادة الشعوب؛ واستتبع ذلك عناية أصحاب المذهب الابداعي (الرومانتيكي) في الغرب بحياة السوقة والدهماء عنايتهم بحياة الملوك والنبلاء، وهب رواد الاستعمار وعشاق الآثار ينقبون عن (فولكلور)[1] الشرق، أخذ أدباؤنا بحكم التقليد والعدوى يعطفون على أدب السواد، فدونوا اللغة العامية، وجمعوا الاغاني الشعبية، ونظروا بعض النظر في فن القصص، وسمعوا في رجفة من الدهش الى قول الأوربيين: إن في أدبنا الموروث كنزاً دفيناً من هذا النوع، له في أدبهم أثر قوي وشأن نابه. ولكنهم لم يخلدوا بدياً الى هذا القول بثقة، واستكثروا على هذا الكتاب الخرافي السوقي أن يذكر في الكتب، ويوضع في المكاتب، وينبه الناس الى فضله، ويهنأ العرب بانتاجه، حتى رأينا بعيوننا أنه نقل منذ أوائل القرن الثامن عشر الى كل لغة، وحل الموقع الأول من كل أدب، وظفر باعجاب النوابغ من كل أمة، حتى قال فولتير إنه لم يزاول فن القصص إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشر مرة. وتمنى القصصي الفرنسي (استندال) أن يمحوا الله من ذاكرته «الف ليلة وليلة» حتى يعيد قراءته فيستعيد لذته.

ثم قرأنا أن اقلام المستشرقين أخذت تتجادل منذ اوائل القرن التاسع عشر في أصله، وتكشف عن مناحي جماله وفضله، وأن دوائر المعارف

---

(١) مجمع التقاليد والاساطير الشعبية لأنه من الامم.

الكبرى سجلته في حقولها وخصته بالطريف الممتع من فصولها ، وأن الاستاذ (فكتور شوفان) أفرد له في كتابه « تأريخ المؤلفات العربية » جزءين سرد فيهما مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته وجزءين آخرين لخص فيهما طائفة كبيرة من حكاياته . وأن الكتاب الروائيين قد استغلوه للسينما والمسرح ، فاستخرجوا للاول رواية « لصّ بغداد » وللثاني « قسمت » أو القضاء والقدر ، وأن رجال التربية والتعليم في فرنسا والمانيا وانكلترا قد اقتبسوا منه أدباً للاطفال فاختصروه وصوروه ، ولقيت أنا منذ عامين في القاهرة مستشرقاً اسبانياً وآخر أمريكيا ، قد ارسلت الأول جامعته والثاني جمعيته لينقبا في مدن الشرق عن مخطوطات ألف ليلة وليلة .

حينئذ أخذت خاصتنا تقرؤه وتسمعه . ومطابعنا الراقية تصححه وتطبعه ، وأدباؤنا المترفعون يشيرون اليه في تاريخ الأدب . ولكنهم الى اليوم لم يدرسوه دراسة علمية تكشف عن لبابه ، وتستقطر النطف العذاب من عبابه ، وهو على الرغم من جميع ما فيه قد سجل على توالي القرون أطوار اجتماعنا ، وصوّر بالألوان الزاهية مختلف أخلاقنا وطباعنا ، ونشر في الشرق والغرب أنوار حضارتنا وازدهار ثقافتنا وجمال تقاليدنا ، وأتم نقص التأريخ الذي تجاهل الشعب ، والأدب الذي احتقر العامة ، فكان منه للناقد الاجتماعي والمؤرخ والفيلسوف والأديب الباحث والكاتب القصصي منهل ثر الينابيع صافي المورد ، ثم كان – فضلاً عن ذلك – للشعب العربي في زمن انحلاله وضياع استقلاله وصعوبة اتصاله قبس يبعث الحرارة في النفوس الخامدة ، وذكرى تلوع القلوب أسى على المجد الذاهب ، وصلة ثقافية تجمع المنازع المتفرقة على الوحدة .

يكاد يكون « ألف ليلة وليلة » علماً ثانياً على بغداد ، بل ربما كان أدل عليها اليوم في نظر الشعوب الحديثة من شأنها الرفيع في الحضارة

ومكانها البارز في التأريخ ، ذلك لأن آثارها المادية قد ألحّ عليها طغيان الدهر وفيضان النهر حتى محواها . أما هي في هذا الكتاب فلا يزال سناها باهياً لم يخب ، وصداها مدوياً لم ينقطع ، فهو للحضارة العربية في بغداد متحف زاخر بالأعاجيب ، دونه ما للحضارة الفرعونية في مصر من معابد ومقابر وكنوز ، لانه يسير في البلاد وهي ثابتة ، ويتحدث الى جميع الشعوب وهي صامتة ، حتى أصبح لفظ بغداد في جميع اللغات مرادفاً للعمران الزاهر والترف العجيب ، واسم الرشيد رمزاً للعدل الشامل والزمن الخصيب . ذكر أحد كتاب الانكليز فترة من الزمن الرخي فقال : « كان ذلك في العصر الذهبي ، إذ كان يحكم الخليفة العادل هارون الرشيد » . .

ذلك بعض فضل الكتاب على بغداد . وقد ذكرت من قبل ، أنه لم يؤلف على هذه الصورة فيها ، ولم يؤلفه أحد من بينها ، وإنما جمع في مجالس القصص في القاهرة ، ودون على هذا الشكل في القاهرة . وطبع أول طبعة كاملة في مطبعة الحكومة في القاهرة ، ثم كان حظ القاهرة من « كتاب ألف ليلة وليلة » أن صورها للناس مثابة للاحتيال والشطارة والجهل . بينما يصور بغداد مهبطاً للفضل ، وموطناً للنبل ، ومعدناً الكرم ، وعشاً للحب ، ومظهراً للترف . حتى كان من جراء ذلك أن أهل بغداد لا يزالون يقولون (عياق مصر وحيال مصر) ونحن ما زلنا نقول في القاهرة : تبغددفلان إذا أظهر البغددة . وهي كلمة مشتقة من « بغداد » على ما أرجح تدل على السرف والترف والبطر والنبل [١] .

---

(١) كان هذا الاشتقاق في الماضي البعيد للعهد السعيد . أما في العهد الحديث ، فقد راح اخواننا المصريون يطلقون لفظة تبغدد الرجل إذا كثر لحنه وسحق سيبويه حتى العظام . حدث للوفد الحقوقي العراقي برئاسة الاستاذ منير القاضي في الحفل الجامعي الذي أقامته الجامعة في القاهرة ان عثمان الشيخ سعيد شرع ينشد قصيدة الزهاوي التي حيا بها مصر ، ←

وسبب اختلاف حظ البلدين من الكتاب أن القصاص المصري إذا تحدث عن مصر – وهو منها وفيها – تحدث عما يرى وعبر عما يسمع ، وقد علمنا في أي عهد من عهود الضعف والانحلال ظهر هذا الكتاب بمصر . أما إذا تكلم عن بغداد فانما يتأثر بعوامل أربعة : يتأثر بما وضع من الأقاصيص الجميلة في بغداد ، ويتأثر بما ملا الآذان وشغل الاذهان من عظمة بغداد وابهة الخلافة ، ويتأثر بما ركب الله في طباع الناس من تقديس الماضي وتعظيم البعيد ، ويتأثر بجهله أحداث التاريخ وتطور الامم ، فأبى وهو في القرن العاشر من الهجرة أن يعترف بموت الرشيد ومصرع بغداد ونكبة المجد الأثيل .

أما بعد ، فأنني أحاول الآن ، يا سادتي أن أكشف عن حقيقة « ألف ليلة وليلة » بمقدار ما تهيأت لي المراجع في بغداد ، بعد أن توفرت على قراءته ودراسته في مختلف الطبعات ، ووقفت على ما نشر عنه من الأبحاث في بعض اللغات ، وما أريد بالطبع أن ادفع السأم في نفوسكم بذكر مالا يحتمله المقام من التحليل المفصل ، وإنما اجتزىء بذكر ما لا يسع الرجل المثقف جهله من هذا الكتاب .

وهنا يدركنا المساء كما يدرك شهرزاد الصباح ، فنرجيء البقية الى الأسبوع المقبل إذا تفضلتم بالسماح (٢) .

← فأكثر من اللحن وأساء تقطيعها وتقدم ثان وثالث وأراد الاستاذ ، وهو نحوي كبير ولغوي ان يخفف الحال فوقع في بعض الخطأ ، فلما أخذ بعض المحتفين يلقون كلماتهم ، صار ينعتون الطلاب من يقع في اللحن بقولهم تبغدد الرجل .

(٢) كنت بين شهود هذه المحاضرة وكانت في يوم من ايام شهر رمضان ، وبالرغم من ان اكثرنا كان صائماً وددنا لو استمر الزيات في محاضرته ، فقد خلب البابنا وسحرنا بالقائه الجميل وتقطيعه الحسن ونبرته العذبة .

المحاضرة الثانية عن تأريخ الف ليلة وليلة :

ألقى الاستاذ الزيات محاضرته الثانية في قاعة المدرسة الثانوية ببغداد بعد أسبوع من محاضرته الأولى ، وذلك في كانون الثاني سنة ١٩٣٣ م . وقد غصت القاعة بالمستمعين حتى ان الكثيرين قد اضطروا الى الوقوف لاستماعها . وقد وفى الاستاذ الموضوع تحقيقاً وبحثاً ، وأوضح تأريخ هذه القصة وما دخل عليها من زيادات ، وذكر من عني بدراستها من الغربيين ، فجاء تحقيقه كافياً شافياً لم يبق لمستزيد طلباً في زيادة . وهذا نصها :

« ليس من اليسير على الباحث الكشف عن حقيقة كتاب كألف ليلة وليلة ، أصله مفقود ، ومؤلفه مجهول ، وزمان وضعه مبهم ، ومكان حوادثه مشتبه به ، لأننا إذا فزعنا الى التأريخ نسأله قال : إن ما يتصل بالأقاصيص والأساطير كان خارجاً بطبيعته عن اختصاص الأديب ومنهاج المؤرخ . وإذا رجعنا الى نص الكتاب ندرسه لنتبين من لغته وأسلوبه وأسماء أبطاله ومواطن رجاله وعقائد أهله نصيب كل جنس وجيل في تكوينه ، وجدناه من هذه الجهة ضعيف الحجة خادع الرأي قليل الغناء ، لأن كثيراً من النساخين والقصاصين في البلاد المختلفة قد اعتوروه فنقلوه على وفق لهجاتهم ، وعبثوا به على مقتضى شهواتهم ، حتى لا تجد نسختين منه تتفقان ، لا في الترتيب ولا في النص . ففي حكاية البنات مع الحمال والصعاليك الثلاثة مثلاً يقول : الصعلوك الثاني إنه قرأ القرآن بالروايات السبع وحفظ الشاطبية ، والشاطبية في علم القراءات كالألفية في علم النحو . وفي بعض النسخ لا يذكر الشاطبية ، ويكتفي بذكر الروايات السبع ، فلو أن ذكر الشاطبية كان عاماً في جميع النسخ لحكمنا بأن هذه الحكاية كتبت بعد سنة ٥٩٠ وهي السنة التي توفي فيها الشاطبي . وفي حكاية مزين بغداد يذكر المزين الفيلسوف سنة ٧٦٣ في نسخة

وسنة ٦٥٣ في نسخة أخرى ، فعلى أي الرقمين نعتمد في تأريخ هذه الحكاية ؟

إذن لم يبقَ للباحث غير الاعتماد على النقد المبني على تأريخ الحضارات المقارن ، وعلى ما بقي في الكتاب من صور الأساليب ورسوم التقاليد التي لم يشوهها الناسخ ، ولم يعفّ عليها الزمن .

كان أول من ذكر ألف ليلة وليلة من المؤرخين على بن الحسين المسعودي المتوفي سنة ٣٤٦ في كتابه (مروج الذهب) ، فقد قال حين عرض لأخبار إرمَ ذاتِ العِماد : « إن هذه الأخبار موضوعة من خرافات مصنوعة ، نظمها من تقرب من الملوك برواياتها ، وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية . (وفي رواية أخرى الفهلوية بدل الهندية) مثل كتاب هزار افسانه وتفسير ذلك بالفارسية ألف خرافة ، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة ، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها شهرازد ودنيا زاد .

ثم جاء بعده محمد بن اسحق المعروف بابن النديم المتوفي سنة ٣٧٥ هـ فقال في كتابه الفهرست : « أول من صنف الخرافات ، وجعل لها كتباً ، وأودعها الخزائن الفرس الأوّلُ ، ثم أغرق في ذلك ملوك الاشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ونقلته العرب الى اللغة العربية ، وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه ، فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب هزار أفسانَه ، ومعناه ألف خرافة .

وكان السبب في ذلك أن ملكاً من ملوكهم كان إذا تزوج أمرأة

وبات معها ليلة قتلها من الغد . فتزوج بجارية من أولاد الملوك ، لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد . فلما حصلت معه ابتدأت تحدّثه ، وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها ألف ليلة . . . رزقت في أثنائها منه ولداً أظهرته وأوقفت الملك على حيلتها عليه ، فاستعقلها ومال اليها واستبقاها ، وكان للملك قهرمانة يقال لها دنيا زاد ، فكانت موافقة لها على ذلك . وقد قيل ان هذا الكتاب ألف لحميا ابنة بهمن .

ثم قال ابن النديم في موضع آخر : (والصحيح إن شاء الله أن أول من سمر بالليل الاسكندر ، وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه لا يريد بذلك اللذة ، وإنما كان يريد الحفظ والحرس ، واستعمل لذلك بعده الملوك هزاز أفسانه ، ويحتوي على ألف ليلة ، وعلى دون المائتي سمر ، لأن السمر ربما حدث به في عدة ليال . وقد رأيته بتمامه دفعات ، وهو بالحقيقة كتاب غثّ بارد الحديث) .

فالرجلان كما ترون متفقان على أن الكتاب منقول عن هزاز أفسانه الفارسي . وأنه موضوع في خبر الملك والجاريتين : شهرزاد ودنيا زاد ، وأن اسمه في عصرهما كان ألف ليلة ، لا ألف ليلة وليلة ، ولا عبرة بمجيء الكتاب في الطبعة الحديثة المصرية لمروج الذهب ، فان ذلك من زيادة المصحح . ويختلفان في نسب البنت والجارية . فيقول ابن النديم إن شهرزاد من أولاد الملوك ، وان دنيا زاد قهرمانة الملك ، ويزيد أن الكتاب يحتوي على ألف ليلة ، وعلى دون المائتي سمر ، وأنه ألف لحميا أو هميا او حماني او جمانة او خماني على اختلاف الروايات ، وهي بنت الملك بهمن بن اسفنديار .

هاتان هما الوثيقتان الخطيرتان في تاريخ هذا الكتاب ، ولا يوجد غيرهما

فيما نشر علينا من كتب مؤرخينا القدماء ، اللهم إلا إشارة الى وثيقة ثالثة مفقودة نقل عنها المقريزي في الخطط ، والمَقّري في نفح الطيب وعزواها الى مؤرخ مصري اسمه القرطبي ألف كتاباً في تاريخ مصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي ذكر فيه ألف ليلة وليلة ، وقايس بين قصصه وبين ما يتداوله الناس في عصره من الحكايات المشهورة . وفي هذا دليل على أن الكتاب على أي صورة من الصور ، كان معروفاً في مصر على عهد الفاطميين ، وأن اسمه كان اذ ذاك ألف ليلة وليلة ، وأن عنصراً من القصص العربي قد دخل في هيكله ، ثم تجاهله بعدئذ أدباؤنا ومؤرخونا فلم يحققوا مصدره ولم يسجلوا نموه وتطوره ، حتى جاء رأس المستشرقين (البارون سلفسترد ساسي) فبدأ البحث العلمي في أصله بمقالين نشرهما في جريدة العلماء ، أولهما في سنة ١٨١٧ والآخر بعده بإحدى عشرة سنة . وجملة رأيه أن الكتاب تأليف جماعة لا تأليف واحد وأنه مؤلف في العهد الأخير ، وأنه عربي الوضع من فاتحته الى خاتمته . ودفع قول المسعودى أن فيه عناصر أجنبية من الهندية أو الفارسية . فناقش أدلته قوم آخرون أشهرهم (يوسف فون هامر الالماني) ، فقد نشر في سنة ١٨١٩ مقالاً في إحدى المجلات الألمانية ، وفي سنة ١٨٢٣ مقالاً آخر في المجلة الأسيوية ، أيد فيهما رأي المسعودي تأييداً لا سبيل عليه لآخذ . وفي سنة ١٨٣٩ ترجم الاستاذ (وليم لين الانكليزي) قسماً من ألف ليلة وليلة ، وقدم له مقدمة حاول أن يثبت فيها أن الكتاب تأليف رجل واحد ، وأنه ألف بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٢٥ للميلاد . ثم استأنف هذا البحث في هذا العصر طائفة من الثقات ، أشهرهم : كوجي ومولر ونولدكي واوستروب وكريمسكي وشوفان وكارادفو ، فاستجلوا على قدر امكانهم ما غمض من أصل هذا الكتاب ، حتى أصبح من الممكن بعد تمحيص ما قالوه وتصحيح ما جهلوه ان نثبت في هذا الأصل رأياً يقارب الصواب إن لم يكنه .

اصل الكتاب وطبقاته :

أصل هذا الكتاب نواة من الأقاصيص الهنديه والفارسية تسمى (هزاز أفسانه) ترجم الى العربية من الفهلوية في أواخر القرن الثالث للهجرة بعنوان (ألف ليلة) وهو الذي رآه المسعودي وانتقده ابن النديم. ثم تجمع حول هذه النواة في الأزمنة الواقعة بين القرن الرابع والقرن العاشر من الهجرة طبقتان : طبقة بغدادية صغيرة وطبقة مصرية كبيرة. فأما النواة أو الأصل أو الإطار كما يسميه الباحثون ، فمؤلف من الحكايات الباقية الآتية : حكاية الملك شهريار وأخيه شاه زمان ، وهي مقدمة الكتاب ، وحكاية التاجر والجني ، وحكاية الصياد والجني ، وحكاية حسن البصري ، وحكاية الحصان الأبنوس ، وحكاية الأمير باسم وجوهرة السمندلية ، وحكاية أردشير وحياة النفوس ، وحكاية قمر الزمان ابن الملك شهرمان والأميرة بدور ، وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال ..

وقد اختلفت كلمة الباحثين في أصل هذا الأصل كما ألمعنا الى ذلك من قبل ، ففريق يرى – ورأيه الأرجح – أن المقدمة وبعض حكايات الأصل هندية ، ويبني هذا الرأي على المشابهة في الموضوع والطريقة والأسلوب . فأما المشابهة في الموضوع فان في حكاية الملك شهريار وأخيه مشابهة من (كاتاسارت ساجارا) الهندية ، وأما المشابهة في الطريقة فان ادماج حكاية وتوليد قصة من أخرى ، إحدى خصائص الأدب القصصي الهندى ، وهي ملحوظة في ملحمة (مهابها رامة) وقصة (بنجة تنترى) أصل كليلة ودمنة ، لأن الباعث الأول على القصص في الأدب الهندي كان بناء الفرصة واكتساب الوقت حتى يؤفك المتهور من عزمه ويحجز المتسرع عن وجهه ، كما فعل الببغاء مثلا مع زوجة صاحبه في حكاية (سوكا سابتاني) ، فقد كان يقص عليها كل يوم أحسن القصص ليعوقها بلهو

الحديث عن زيارة خليلها في غيبة حليلها ، ويقطع حديثه دائماً بقوله : سأقص عليك البقية غداً إذا بقيت في البيت . وهذه الطريقة وذلك الباعث نجدهما في كثير من حكايات ألف ليلة وليلة . فلا نزاع إذن في أنها هندية . وأما المشابهة بالأسلوب فان لوازم القاص الهندي أن يقول : لا تفعل ذلك وإلا أصابك ما أصاب فلاناً ، فيسأله السامع . وكيف ذلك ؟ فيجيب القاص على هذا السؤال برواية القصة . وهذا الاسلوب نفسه مستعمل في تلك الحكايات من ألف ليلة وليلة ، وقولهم فيها : وكيف ذلك ؟ ترجمة حرفية لهذه الجملة السنسكريتية : (كاثات اتات) . ثم يمضي هذا الفريق في تطبيق نظريته على بعض الحكايات ، وينتهي إلى أن هناك طائفة من الأقاصيص لا شك في أنها فارسية ، وهي حكايات الحصان الأبنوس وحكاية حسن البصري وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال ، وحكاية قمر الزمان والأميرة بدور وحكاية بدر باسم والأميرة جوهرة السمندلية وحكاية اردشير وحياة النفوس .

وفريق آخر يرى أن الأصل كله فارسي ، تأثر بالعقائد اليهودية والاغريقيه والإسلامية ، ويريد أحدهم وهو الاستاذ (كوجي) أن يجعل بين هيكل (ألف ليلة وليلة) وبين قصة (استر) اليهودية صلة ونسبة ، ذلك لأن ابن النديم في الفهرس يقول إن هزاز افسانه ألّف لحميا بنت بهمن ، والطبري يقول إن استر هي زوج بهمن ، والمسعودي يجعل استر زوجة لبختنصر ويسميها دنيا زاد ، ثم يطلق اسم شهرزاد أيضاً على أم حميا بنت بهمن أي على زوجة بهمن ، وهي التي سماها الطبري استر .

ويقول المسعودي أيضاً في موضع آخر : إن أم حميا يهودية ، ويعود الفردوسي والطبري والمسعودي فيطلقون اسم شهرزاد على حميا نفسها ، وهي بنت الملك بهمن وزوجه على عادة الفرس الأولين . أما وجه الشبه

بين قصة استر المذكورة في التوراة وبين مقدمة ألف ليلة ، فهو أن الملك اسريوس كان كالملك شهريار ، لا يرى المرأة إلا ليلة واحدة فتزف اليه البكر مساء ليطردها من قصره في الصباح دون أن يقتلها كما يفعل شهريار ، واستر كانت كشهرزاد تستهوي الملك وتخلب لبه ، فيستبقيها الوزير ، وشهرزاد بنت الوزير وهي تغرر بنفسها لتنقذ بنات جنسها من شر الفضيحة والذل ، وشهرزاد تفعل ذلك الفعل لتدرأ عن بنات قومها خطر السباء والقتل .

أما علة هذه الآراء المتناكرة التي تجعل هذا الأصل عربياً بحتاً ، أو فارسياً بحتاً ، أو هندياً مشوباً ، فهي أن القصاص العرب قد عبثوا به عبثاً شديداً ، فبدلوا أسماءه ، وغيروا اسلوبه ، وموهوا لونه ، واخترعوا بعضه ، وطبعوه بطابع إسلامي محض . ثم بعثروه في جوانب الكتاب وثنايا القصص حتى التاث على المقابيس الفنية فرزه وتحديده . وأما الطبقة البغدادية فتتألف من أقاصيص غرامية صغيرة انتزعت من حياة العرب واتسمت بسمة الاسلام وفاضت بنعيم الحب والترف ، تمثل حياة الطبقة الوسطى بأسلوب صحيح عذب ، وتصور حضارة بغداد في أيام العروس بخيال قوي خصب ، وتشهدكم سورة الغنى في الاسواق ، وضجة الغلمان في الافنية ، وتصف الجواري في المقاصير ، ومداعبة الزوارق اللاهية في دجلة ، وتجعل من الخليفة الرشيد ملاك رحمة ورسول عناية ، يجيء متنكراً وظاهراً في كل مكان بالثرة للمحروم ، والعدل للمظلوم ، والوصل للعاشق البائس . ولا أقصد بذلك إلى أن كل حكاية يتدخل فيها الرشيد تكون بغدادية ، فان افتتان الناس بمجده ، وازدهار العراق في عهده ، جعلاه رمزاً للرجاء والعدل ، حتى في زمن غير زمنه ووطن غير وطنه .

تجمعت هذه الطبقة في مدى القرنين الرابع والخامس مما أثر عن

الرواة ودون في الكتب مستقلا وغير مستقل ، فهي على ما أرجح بقايا القصص التي نشرها الأدباء البغداديون ، ثم طواها الزمن . وقد عدّ ابن النديم في الفهرست عشرات منها كقصة علي ابن أديم ومنهلة وقصة عمرو بن صالح وقصاف وقصة أبي العتاهية وعتب ، وقصة وضاح وأم البنين ، وقصة أحمد بن قتيبة وبانوجة ، وقصة ريحانة وقرنفل ، وقصة سكينة والرباب الخ .

وأشهر حكايات هذه الطبقة حكايات علي بن بكار وشمس النهار ، وهي قصة شهيدين من شهداء الحب تشعر النفوس حرقة الأسى على جدّهما العاثر ونهايتهما المحزنة ، وقد صيغت في أسلوب رقيق وعبارة مهذبة ، واشتملت على نوع من الأدب يكاد يخلو منه أدب الخاصة ، وهو الرسائل الغرامية التي تجري بين العاشقين إذا عزّ اللقاء وعيل الصبر ، ثم حكاية انس الوجود وورد الاكمام وهي قطعة حب وشعر وغزل ، تجدون من فيها محباً أو حبيباً أو واصلا بينهما ، والشعر الذي تضمنته إنما أنشيء لها خاصة ، فهو مطابق لمقتضى أحوالها مشتمل على أسماء ابطالها ، وذلك قليل في سائر الكتاب كقوله من أبيات :

ما خاب من سماك أنس الوجود ... يا جامعاً ما بين انس وجود
يا طلعة البدر الذي وجهه ... قد نوّر الدنيا وعمّ الوجود

ثم حكاية البنات الثلاث مع الحمال والصعاليك الثلاثة ، ثم حكاية النائم اليقظان أو أبي الحسن الخليع ، ثم حكاية بدور وجبير بن عمير الشيباني ، ثم حكاية الرشيد مع الخليفة الثاني محمد بن علي الجوهري ، ثم حكاية المعتضد مع أبي الحسن الخراساني وهي تدور على السرف والترف والحب وتقص علينا مصرع المتوكل ، ثم حكاية الشاب البغدادي مع جاريته ، ثم حكاية الجواري الضرائر ، ثم حكاية السندباد البحري

وهي وصف جذاب شائق لسبع سفرات مخطرات في مياه الهند والصين قام بهن السندباد في عهد بلغت فيه بغداد والبصرة غاية لم تدرك يومئذ في العمران والعظمة . ومما لا جدال فيه أنها كانت في الأصل رحلة حقيقية ، شوهها الناس بالمبالغة وزيفها القصاص بالافتعال والتزيد ، ولعلّ صاحبها هو الذي نحا بها هـذا المنحى من الاغراب كما فعل بزرك بن شهريار في كتابه عجائب الهند ، فلو صفيناها من سخف الاساطير وصرف الحديث كالسمكة العملاق التي يظنها الملاحون جزيرة ، وبيضة الرخ التي يحسبهـا الراؤن قبة ، إذن لتكشفت عن تفاصيل دقيقة تطابق ما كتبه الرحالون في هذا الموضوع ، كوضع جزر المهراجا أو المهرجان كما يسميـه السندباد والبحث عن الماس بواسطة النسور في سيلان وما ذكر عن الفيل والكركدن وشجر الكافور وتجارة القرنفل الخ .

وأصدق ما في حكايات السندباد تصويرها لنفسية الرحالة الذي يشغف قلبه حبّ الاسفار ومصارعة الاخطار وجهاً لوجه ، فهو في كل سفرة يخوض غمرات الهول ويكابد غصص الغرق ويأخذ على نفسه الموثق الغليظ ألا يزمع رحلة بعد هذه المرة ، فاذا ما عاد سالماً غانماً الى دياره ، ونعـم حيناً بالعيش الرخي بين ندماه وسماره ، عاده الوله الشديد الى البحـر الغادر ، ونازعته نفسه الطلعة الى الافق البعيد ، فيجتوى الراحة ويعاف النعيم ويبتاع البضائع ويكترى السفينة ثم يقلع عن البصرة .

واما الطبعة المصرية :

فهي اوسع الطبعات وأجمعها وأصلحها للبحث وأصدقهـا في اللهجـة وأقلها في البلاغة ، تألفت في مدى خمسة قرون بين القرن الخـامس والقرن العاشر من القصص العربية والتقاليد الاسلامية والسير اليهـودية

والأساطير الفرعونية . وقد قسمتها حسين حلمتها الى طبقتين :

قديمة تنتهي بالقرن الثامن ، وحديثة تنتهي بالقرن العاشر . فالطبقة القديمة حسنة الأسلوب مطردة السياق شريفة الغرض تـدور على المغامرة والحرب ، وتعارض الأخلاق وتضارب العواطف ، وتعتمد على الطلاسم والأرصاد والجن والسحر والقـدر ، كحكاية مسرور وزين العواطف ، وحكاية الوزيرين نور الدين وشمس الدين ، وحكاية قمر الزمان الثانية ، وحكاية الخياط والاحدب ، وحكاية مزين بغداد ، وهي قطعـة فنية رائعة . ثم حكاية علي شار أو بشار مع زمرد ، والطبعة الحديثة على الجملة عامية اللغة ركيكة الأسلوب جريئة العبارة ، تدور تارة على حيل المحتالين ومكايد العيارين ومخاطر اللصوص ، وتارة على تصوير الأخلاق وتذكير النفوس الغافلة بالعبر . وظهور القصص المحتـال الداعر بجانب القصص المتصوف الزاهد في هذه الطبقة – إنما اقتضته طبيعة المجتمـع المصري يومئذ من التجاء فريق من الناس الى الله ، وانصراف فريق آخر الى الشيطان . وقد كان من الممكن أن تبدو هذه الظاهرة ايضاً في قصص بغداد لولا أن مغامرات اللهو والحب فيها قد غلبت في نفوس القصاصين على كل شيء به ، وهم الى ذلك كتابون يتأبهون عن حياة العامة ، فقـد كان في بغداد على عهد الخليفة المعتضد بالله رجل اسمه العقاب وكنيته أبو الباز ، شهر بالكيد والحيلة حتى قال فيه المسعودي في الجزء الثاني من مروج الذهب ص ٤٧٩ من طبعة مصر : « إنه برز في مكايده وما أورده من حيلة على « دالة المحتالة » وغيرها من سائر المكارين والمحتالين ممن سلف وخلف منهم » . ثم ذكر بعض حوادثه وهي غريبة . وكان في بغداد كما كان في القاهرة نظام « التوابين » وهم اللصوص ، فـاذا حدثت حادثة عارفوا فعل من هي ، ذكر ذلك المسعودي ايضاً في ص ٤٧٣ من الجزء نفسه ، وكانت بغداد والقاهرة تتبادلان هذا الصنف من الزعماء

والشيوخ كما يقصه (ألف ليلة وليلة) .

تأثر القصاصون المصريون في حكايات الحيل إذن بطبيعة العمران ، فضلا عن تأثرهم بما بقي مذكوراً على بعض الألسنة من أساطير العهود الفرعونية ، فان قصة علي بابا واللصوص الأربعين مثلا تشبه قصة وردت في (كتاب الأقاصيص الشعبية القديمة) لكبير الأثريين الاستاذ (ماسبيرو)، ثم تأثروا في أقاصيص العبر والعظات بالاسرائيليات كحكاية مدينة النحاس ، وقصة حاسب كريم الدين وبلوقيا وجان شاه ، وذلك ما دعا الاستاذ (فكتور شوفان) الى أن يقول إن القصص المصرية الأخيرة ، إنما وضعها يهودي مصري أسلم ، وذلك بالطبع وهم من الاستاذ ، لأن علم العرب بالاسرائيليات منذ ظهور الاسلام لا يقل عن علم اليهود بها ، وأشهر أقاصيص هذه الطبعة حكاية علي بابا والأربعين حرامي ، وحكاية علاء الدين ابي الشامات والمصباح العجيب ، وهي التي اقتبسوا منها لص بغداد للسينما ، ثم حكاية معروف الاسكافي ، وحكاية أبي قير وأبي صير ، وقصة حاسب كريم الدين وملكة الحيات ، وقصة مدينة النحاس ، وحكايات أحمد الدنف وحسن شومان وعلي الزيبق ودليلة المحتالة وزينب النصابة ، وحكاية الملك الناصر والولاة الثلاثة وحكاية الرجل الصعيدي وأمرأته الافرنجية .

وفوق هذه الطبقات الثلاث أو الأربع تراكم في العصور الحديثة عدد من القصص الكبيرة والأقاصيص الصغيرة ، ليبلغ الكتاب الغاية التي حددها له اسمه . وفي هذه الزيادة تختلف النسخ اختلافاً شديداً . من تلك القصص طائفة حائلة اللون من أثر التقليد ، كقصة عجيب وغريب وسهيم الليل ، وهي من قصص البطولة والحرب ، تستعر وقائعها في العراق بين العرب والعجم أو بين دين الحنيفة والمجوسية ، وتستعير

صورها من قصة عنترة وسيرة ابن ذي يزن . ثم قصة عمر النعمان وأولاده وهي مضروبة على قالب أردشير ، وحياة النفوس ، ثم قصة تاج الملوك والاميرة دنيا ، وهي كسابقتها تقليد لقصة أردشير ، ثم حكاية جان شاه وهي تقليد سخيف لحكاية حسن البصري ، ثم حكاية وردخان والملك جليعاد وهي ملفقة من أمثال كليلة ودمنة ، وطائفة أخرى يغلب فيها أثر التجديد كحكاية هكتار الحكيم وأقصوصة شول وشمول ، وحكاية الجارية تودد وهي حكاية ثقافية تعليمية كتبها فقيه مصري في العهد الأحدث على الرغم من وقوع الحادثة ببغداد وقيام المناظرة برياسة النظام المتكلم في مجلس الرشيد ، فان الجارية كانت تجيب السائل في الفقه على المذهب الشافعي وتصرح بذلك ، وتفكر في التقويم الزراعي للشهور القبطية كهيك وبرمودة وبشنس ومسرى وأمشير ، ثم تقول في حضرة الرشيد ، الويل ثم الويل لمصر والشام من جور السلطان ، ومن الغريب أن الاستاذ (أوستروب) يقول في (دائرة المعارف الاسلامية) إن هذه القصة نشرت في اسبانيا بعنوان (لادون لا تيودور) أو تودور ، ويظن تودد تصحيف تودور ، ولم يتح لي الاطلاع على هذه القصة لأرى كيف تتفق مع قصة كل ما فيها مناظرة في علوم الثقافة الاسلامية البحتة . .

وهناك عدا ما ذكرت مجموعة من أقاصيص الفرسان والأجواد ونوادر الأولياء والزهاد نقلت من العقد الفريد والمستطرف وعروس المجالس ومناقب الصالحين ، لم يقصد بها إلا توسيع الكتاب .

مؤلف الكتاب وزمن تأليفه وسبب تسميته :

ذهبت جهود الباحثين باطلا في تحقيق هوية المؤلف ، لأن (هزار أفسانه) نقل الى العربية غُفلا لم يُسمَّ واضعه ، ثم غشيته الطبعتان

البغدادية والمصرية على التدريج ، فكان كل قصاص يكتب لنفسه ما سمع وجمع في عصره من ثمرات القرائح وقطرات الأقلام دون أن يسندها الى راو أو يعزوها الى مؤلف ، ولماذا يفعل ذلك وهو يريد أن يحفظ ويقص لا ان يروي وينشر ؟ فلما هيأت الاحوال أسباب تدوينها في العهد الذي ذكرته ، قيض الله لها من ضم شتات ألفتها ، ونسق نظام وحدتها ، ثم دونها على هذه الصورة ، ولم يستطع ذلك الجندي المجهول أن يعلي اسمه على الخلود . إما لتواضع حمله على إنكار ذاته ، وأما لتواطؤ من النكران والنسيان أمات اسمه بعد مماته . ومن التوافق الغريب أن أسماء الكتاب الذين وضعوا القصص الفرنسية الكبيرة في العهد الذي دون فيه (ألف ليلة وليلة) ، قد سحب النسيان عليها ذيله كذلك كأغاني رولان وقصص المائدة المستديرة وقصص الحكماء السبعة مثلاً .

وقد اختلف العلماء في أن يكون المؤلف واحداً أو جماعةً ، ولست أرى لهذا الخلاف وجهاً ، فان الكتاب تكون على اليقين من أعمال مستقلة ، ثم نما بالاتفاق على توالي الحقب ، فوضعه وتكوينه إذن عمل جمع ، وجمعه وتدوينه عمل فرد ، وتحليله الى الأعمال الفردية المتعاقبة أمر فوق القدرة ومن وراء الامكان . أما التاريخ الذي قر فيه على هذا الوضع الأخير فهو النصف الاول من القرن العاشر من تاريخنا ، ومن الممكن أن نحصره منه في السنوات العشر الواقعة بين سنتي ٩٢٣ و٩٣٣ ، وهما توافقان سنتي ١٥١٧ و١٥٢٦ من التاريخ المسيحي . وقد حصره الاستاذ (وليم لين) الانكليزي بين سنتي ١٤٧٥ و١٥٣٥ للميلاد أي في مدى خمسين سنة ، فوافقناه في الغاية وخالفناه في البدء ، ولم نرَ هذا الرأي اعتباطاً من جهة ، ولا استنباطاً من جهة أخرى ، وإنما اعتمدنا في تحقيقه على دليل مادي ، وهو أن الاستاذ الفرنسي (جلان) . قد أخذ ينشر ترجمة الكتاب لبلاط الملك (لويس الرابع عشر) سنة ١٧٠٤ . وقد نقله

من نسخة عربية مخطوطة في ثلاثة مجلدات أرسلت اليه من سورية بعد سنة ١٧٠٠ وهي مكتوبة بمصر غفلا من التاريخ ، ولكن الذي نقلها الى الشام وهو من طرابلس كتب عليها بخطه أنه امتلكها سنة ٩٤٣ للهجرة ، ثم انتقلت من يده الى يد آخر من حلب ، فكتب عليها أيضاً تاريخ هذا الانتقال وهو سنة ١٠٠١ ، فيكون تأليف الكتاب إذن قد تم قبل ٩٤٣ بزمن نقدره كما قدره (لين) بعشر سنين .

هذا من جهة الطرف الأعلى . أما من جهة الطرف الأدنى ، فإنّا نجد ذكر (القهوة) المعروفة يتردد في بعض الحكايات كحكاية أبي صير وأبي قير حكاية علي نور الدين ومريم الزنارية مثلا ، وذلك لا يكون قبل العقد الأول من القرن العاشر ، لأن القهوة لم تنتشر في الشرق إلا في هذه المدة ، ثم نجد لفظ (الباب العالي) وبعض النظم العثمانية تذكر في حكايات أخرى كحكاية معروف الاسكافي وهي مصرية قطعاً ، والعثمانيون لم يستولوا على مصر قبل سنة ٩٢٣ فيكون الكتاب إذن قد دوّن بعد هذه السنة وقبل سنة ٩٣٣ ..

ذلك تحقيق الزمن الذي صنف فيه الكتاب جملة ، أما تحديد التاريخ لكل حكاية وكل طبقة فذلك عمل إن تيسر في حكاية تعذر في أخرى وبعض الباحثين قد حاول ذلك في شيء من التوفيق كالأستاذ وليم بوير الأمريكي ، فانه نشر سنة ١٩٢٤ بحثاً في ٤٤ صفحة من المجلة الاسوية جزم فيه بأن حكاية الوزيرين شمس الدين ونور الدين قد كتبت بعد حكم الظاهر بيبرس أي بعد سنة ٦٧٦ ، ويرجح أنها كتبت سنة ٧٠٦ ، وأن قصة الخياط والأحدب بما تشتمل عليه من الحكايات الأخرى كمزين بغداد ، قد ألفت سنة ٨١٩ للهجرة ، والدخول في هذا الموضوع يخرج بنا الى التفصيل الذي يحك في الروح ويخمد نشاط الحديث .

سمى العرب « هزار أفسانه » (ألف ليلة) ولو أرادوا الترجمة الأمينة لقالوا (ألف خرافة) أو أسطورة ، فعدولهم عن العنوان الصحيح يدلنا على أحد أمرين : إما أن الليلة كانت في اصطلاحهم ترادف الأسطورة باعتبارها زمناً لها ، وذلك ما نستطيع استنباطه من قول محمد بن اسحق الوراق : (ابتدأ أبو عبدالله الجهشياري صاحب كتـاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يتعلق بغيره . واحضر المسامرين فأخذ منهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ما يحلى بنفسه ، فاجتمع له من ذلك أربع مئة ليلة وثمانون ليلة سمر تام ، يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تتميمه ألف سمر) . وأما أن يكون عدد الألف في الأصل إنما أريد به التكثير لا التحديد ، على حد قوله تعالى (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ، وآخر به أن يكون كذلك ، فان ابن النديم قد رآه بتمامه مراراً ، وقال : إن فيه دون المئتي سحر ، وهو اليوم بطبقاته وزياداته واستطراداته لا يتجاوز ٢٢٤ حكاية ، قسمها المؤلف على ألف ليلة وليلة تقسيماً فيه عبث الهزل أو سخف الصناعة ، فان (شهرزاد) يدركها الصباح دائماً ولما يمض على حديثها غير بضع دقائق ، على أنه لم يبق مما رآه ابن النديم إلا تلك الحكايات التي سردناها عندما تحدثنا عن الأصل .

أما زيادة الليلة على الألف ، فمن عمل القرن السادس ، لأن النسخة التي رآها القرطي بمصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي كانت تحمل اسم (ألف ليلة وليلة) ، ويقول (جلد مستر) في تعليل زيادة الليلة إن العرب يطيرون بالأعداد الزوجية ، وهو زعم غريب ما رأيت في تاريخنا ولا في أدبنا ما يؤيده . ولقد ظل الكتاب أكثر من قرنين يسمى (ألف



الجالسون من اليمين : الثعالبي ، الرصافي ، الزهاوي ، عطا الخطيب .

الواقفون : علي محمود الشيخ علي ، بهاء الدين النقشبندي ، جميل المدفعي ، طه الراوي ، موفق الالوسي ، رؤوف الكبيسي ، عبد المسيح وزير ، ابراهيم كمال ، محمود صبحي الدفتري ، احمد حامد الصراف ، طه الهاشمي ، مزاحم الباجه جي ، علي ممتاز ، عبد العزيز المظفر ، عبدالله الشواف ، محمد بهجة الاثري ، رفائيل بطي وتوفيق السمعاني .

ليلة) ، وكان الجهشياري يريد أن يسمي كتابه (ألف سمر) ، وعندنـا ألفية أبن معطي وألفية ابن مالك . وأغرب من هذا الزعم ان يؤيده (أوستروب) في (دائرة المعارف) ويزيد عليه أن ميل الناس في تلك العصور الى التسجيع في عناوين الكتب كان من البواعث أيضاً في هذه التسمية ، وليس في قولنا ألف ليلة وليلة كما تعلمون تسجيع ولا مزاوجة والغالب في رأيي أن الليلة إنما زيـدت فوق الالـف لإفـادة الكمال ، كطفحة الاناء وسقطة الميزان ، لان الالف عدد تام بالنسبة الى هذا الكتاب ، فاذا زيد عليه الواحد كان كاملاً ، والكمال درجة فوق التمام ، وان في لغة التخاطب ما يشبه ذلك ، فقد يقال في المن : قضيت لك ألف حاجة وحاجة ، وفي المبالغة زرتك ألف مرة ومرة ، وهلـُمَّ جرا .

طريقة الكتاب واسلوبه :

كانت طريقة العرب في القصص أن يسردوا الاسمار والاحاديث على نمط يجعل كل حكاية قائمة بذاتها لا يربطها بما سبقها ولا بمـا يلحقهـا علاقة ، وترون ذلك واضحاً في أمثال لقمان وكتب النوادر ، فلما نقلت الاقاصيص الهندية الى العربيـة في القرن الثالث عن طريق الفارسيـة ، أدخلت في أدبنا القصصي طريقة طريفة تجعل الحكايات سلسلة متماسكة الحلقات متعاقبة الخطوات ، متتابعة النسق ، وذلك على ضربين : الاول أن تتعلق جميع الحكايات بحكاية أصلية تكون فاتحة لبدايتها ، وسبباً لروايتها ، ابتغاء التعويق عن فعل ما لا يحل ، وذلك في العربية مذهب كتـاب الوزراء السبعة ، وكتاب كليلة ودمنة ، وأغلب كتاب ألف ليلة وليلة ، وهو في الفارسية مذهب بختيار نامه ، وقصة جهار درويش ، وقصة نوروز شاه ، وكتاب طوطي نامه ، وأنوار سبيلي مثلاً .

والضرب الثاني أن تروي الحكايات موزعة في الكتاب على عدة أبواب

بحيث تكون الحكاية في أي باب من هذه الابواب مقدمة لحكاية الباب الذي يليه ، ومن هذا الضرب في أدبنا (كتاب سلوان المطاع في عدوان الاتباع) لابن ظفر الصقلي المتوفي سنة ٥٦٥ ، وكتاب (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء) لاحمد بن عربشاه الدمشقي المتوفي سنة ٨٥٤ ، وفي أدب الفرس كتاب (مرزبان نامه) لمرزبان بن رستم بن شروان ، وقد ترجمه ابن عربشاه واستمد منه ذلك ، فضلاً عن الطريقة الفارسية التي احتذيناها في الاقاصيص الغرامية المطولة ، فألف ليلة وليلة إذن يجري على ثلاث طرق : يجري على الطريقة الهندية في الحكايات المتداخلة المتسلسلة كحكايات الاصل ، وحكاية البنات الثلاث والصعاليك الثلاثة ، وحكاية الخياط والاحدب والطبيب ، وحكاية جان ، شاه وحكاية وردخان .. الخ .. ويجري على الطريقة الفارسية في الحكايات المفردة المجردة ، كحكايات العشاق في بعض أقاصيص الاصل وما جرى مجراها من حكايات الطبعة البغدادية ، فانها مضروبة على قالب القصص الفارسي في الاعتماد على الحب الوهمي الذي يصيب ظرفاء الشباب على أثر طيف يزور في الكرى ، أو صورة تعرض في الطريق ، او حكايات تلقى في المجلس ، ثم يجري على الطريقة العربية الخالصة في الاقاصيص الصغيرة المقتبسة من كتب الادب ، كحكاية حاتم الطائي ، وحكاية معن بن زائدة ، وحكاية ابراهيم بن المهدي ، وحكاية خالد بن عبدالله القَسْري مثلا ..

اما اسلوبه :

فيختلف باختلاف الزمان والمكان والجنس والشخص ، فاذا حكمنا عليه فانما نحكم على جملته لا تفصيله ، ونتوخى الصفات العامة في نقده وتحليله ، فهو في عمومه اسلوب سهل المأخذ ، مطرد السياق ، سوقي اللفظ ، مبسوط العبارة ، كثير الفضول ، كثير التضمين ، جريء الاشارة ، لا يعرف الكناية ولا يَقْنَى الحياء ، ولا يصطنع التحفظ ، لان سبيله سبيل العامة ، فهو يسايرهم في ثرثرتهم وفضولهم وسذاجتهم وصراحتهم وبلادتهم ، ولا يستطيع أن يكون إلا كذلك ، يسير سير الاعرج المفلوج وراء المذهبين الكتابيين اللذين راجا على التعاقب في عهده ، وهما مذهب ابن العميد في العراق ، ومذهب القاضي الفاضل في مصر ، فهو يسرف في السجع ، ويكثر من اقتباس الامثال وتضمين الملح ، أحياناً بذكر مصطلحات النحو على سبيل التشبيه او التورية كقوله في قصة قمر الزمان (باتا على ضم وعناق وإعمال حرف الجر باتفاق ، واتصال الصلة بالموصول ، وزوجها كتنوين الاضافة معزول) وهو يغالي في تضمين الابيات في خلال الحكايات ، ويمعن في ذلك غالباً حتى يمل ، وترصيع النثر بالشعر أسلوب لا يألفه الادب العربي ولا الادب الفارسي ، وانما هو ميزة من مزايا الادب الهندي أيضاً . اقتبسه الفرس ، ثم نقله كتّاب الينا في منتصف العصر العباسي ، وروجه في عهد بني بويه مؤلفو القصص ومنشئو الرسائل والمقامات كابن العميد والصاحب والبديع والخوارزمي ومن ترسم خطاهم أو سار على هداهم ، وموضع هذه الاشعار يكون عادة في مواقف السرور والحزن والوصف وثوران العواطف ، ولكن القصاص يسيء في الغالب استعمال التضمين ، فيخطيء مواضع الاشعار ، او يجهل محل المناسبة ، او يردد الابيات نفسها في كل موقف ، وقد تدفعه السماجة الى الاستطراد الغث فيقول : وقال الشاعر أيضاً في المعنى ، ثم يورد أبياتاً لا يصلها بالموضوع سبب ،

كما فعل في مقدمة علي نور الدين ومريم الزنارية مثلاً ، فانه حين وصف البستان لم يترك نوعاً من أنواع الفاكهة إلا ذكره وروى ما قيل فيه من الشعر حتى استغرق في ذلك خمس صفحات من الكتاب .

إن خير ما يمتاز به أسلوب ألف ليلة وليلة ، هو الوضوح والصدق والصراحة والجاذبية ، فالمعاني تسبق الألفاظ إلى الذهن ، والصور تسبق الوصف إلى الخاطر ، والشوق يبعث اللذة ويثير الاهتمام ويحرك الانتباه ويربط السامع والقارىء بموضوع القصة ، على أن القصاص يعالج التصوير والحوار بدقة وبراعة في كل ما يتصل بأحوال الشعب وأخلاق العامة ، فاذا سما الى مقام الملوك والخاصة خانته قدرته ، وغلبت عليه بيئته وطبيعته ، فيفقد ما يسمى في الفن الكتابي بالصيغة المحلية ، وهي أن يسند إلى الشخص ما يلائم طبيعته وطبقته وبيئته من قول أو فعل ، فالأقاصيص الهندية والفارسية تشوبها روح القصص الإسلامية ، كحكايات قمر الزمان بن الملك شهرمان ، والحكايات البغدادية تظهر فيها اللهجة المصرية ، كحكاية ابن الحسن الخليع ، ثم نراه يجري على لسان الخليفة الرشيد ما يأبى عليه جلاله وكماله أن يقوله ، ويجعله يفعل ما لا يجوز في العقل ان يفعله ، كان ينادي وزيره جعفراً بقوله : يا كلب الوزراء ، ويكلفه في قصة الفتاة المقطعة بالعثور على القاتل في مدى ثلاثة أيام وإلا شنقه هو وأربعين من بني برمك ، وكان يخلع في حكاية علي نور الدين مع أنيس الجليس حلة الملك ليرتدي مرقعة بالية قـــذرة لكريم الصياد ، فيفيض قملها على أطرافه ، ويسيل قذرها على منكبه وأعطافه . ولو أن ما كلف به الرشيد من التعب المزري كان لضرورة ملجئة لوجدنا له مساغاً من الفن ، ولكنه جشمه ما جشمه ليتسنى للخليفة أن يسمع غناء أنيس الجليس ، وهي في قصر من قصوره ، وفي ضيافة خـــادم من خدمه .. فهو يدخله في هذا الزي المزري على الحبيبين والبستاني ليقدم

اليهم ما معه من السمك فيكلفوه شَيَّه في المطبخ فيشويه .

وكثيراً ما تدفع القصاص شهوة الأغراب إلى تجاوز المبالغة المعقوله ، فتفوته من الفن صفة الامكانية ، وهي أن يلبس القصصي الحوادث الخيالية ثوب الحقيقة فيقرب ما بينها من الظروف ويمهد أسباب الوقوع حتى لا تتنافر مع العقل والعلم والعرف والتقاليد ، والأمثلة على هذا العيب مستفيضة في كل قصة .

وفي الكتاب طائفة من الحكايات قد استوفت شروط الفن القصصي كلها كقصة الصياد والجني ، وقصة مزين بغداد ، ومقدمة حكايات السندباد ، وقصة علي بن بكار وشمس النهار ، هذا إذا نظرنا إلى الاسلوب في جملته وعمومه . أما إذا تتبعناه باللمح الخاطف في نواحي الكتاب ، وجدناه فيما بقي من الأقاصيص الهندية والفارسية وما جرى مجراها من الحكايات المحدثة المقلدة بيّن السذاجة ، أبله الاشارة ، لأنها من نوع الخوارق التي تدخل على القلوب الغريرة ، ولا تظفر إلا بتصديق العقل البسيط ، فهو جارٍ مع طبيعتها ، متفق اللون مع صورتها ، وفي الطبعة البغدادية تراه متين العبارة ، عفيف اللفظ ، حسن السلوك ، دقيق الوصف ، كثير السجع ، قليل الفضول ، لأنه في الغالب مكتوب يحذى على المثل العليا من قصص الفرس وتاريخ العرب ، وقد يسف في بعض الأقاصيص إسفافاً قبيحاً ، فيثقل بسخفه على الطبع ، ويعتدي بضعفه على الذوق ، كما تراه في قصة الخليفة مع النائم اليقظان مثلاً . أما الاسلوب في الطبعة المصرية ، فهو في قسمها الأول وخاصة الأقاصيص المكتوبة عنه أشبه شيء بأسلوب الطبعة البغدادية مع اتساع في السجع وجرأة على الحشمة ، والغالب عليه التقليد فتارة يجري على منهاج الطريقة الهندية كما ترى في حكاية وردخان والملك جليعاد ، وتارةً ينسج على منوال الطريقة الفارسية كفعله في قصة قمر الزمان الثانية ، وحكاية مسرور وزين المواصف ، وقد يجري في مجراه الخاص

من التهكم الساخر والمزاح المضحك ، فيكون رقيقاً كما نراه في قصة الاحدب وخاصة في مزين بغداد ، ولكنه في القسم الثاني وفي سائر القصص الالقائية التي ألفها القصاص ليلقوها في السوامر مهلهل النسج ، عامي اللفظ ، مرذول المبالغة ، سيء التلفيق ، شديد الوطأة على الحياء والمروءة لصدوره من قصاص محترفين جهلاء ، يتملقون فيه شهوات العامة بالافحاش ، ويستفزون فضول الجمهور بالمبالغة ، ثم يكثر فيه ترداد الجمل المحفوظة الملتزمة ، فيقال دائماً في وصف القينة العازفة « فعملت على العود من غرائب الموجود إلى ان طرب الحجر الجلمود ، وصاح العود في الحضرة ، يا داود . »

وفي إيثار البعد : « بعدك عن الحبيب أجمل وأحسن ، عين لا تنظر ، وقلب لا يحزن » .

وفي غرابة الحادثة : « لو كتبت على آفاق البصر لكانت عبرة لمن يعتبر » .

وفي غرابة الحادثة :لو كتبت بالابر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر.

وفي وصف الشيخ الفاني : « وقد أبقى ما أبقى ، وعركه الدهر فما استبقى » ، كأنه مفنى ملقى في خرقة زرقاء ، تمر بها الأرياح غرباً وشرقاً كما قال الشاعر :

أرعشني الدهر أيَّ رعش والدهر ذو قوة وبطش
قد كنت أمشي ولست أعيا واليوم أعيا ولست أمشي

وفي وصفه ساحة الحرب ومجالس الأنس ورياض الأرض وأثاث البيت ، لا يكاد يغير شيئاً من الاسجاع والاوضاع ومقطوعات الشعر .

ذلكم يا سادتي ما استطعت استشفافه من صور الأساليب الأثرية في الكتاب ، وسترون حين تعيدون قراءته أن القصاص المصنفين والمصححين في مصر قد اخضعوه إخضاعاً شديداً للهجاتهم وأساليبهم وأمثالهم حتى جعلوا البحث اللغوي الفني من البعد بحيث لا تبلغ اليه وسيلا ؟

فلسفته ومراميه :

ان من يطلب من ألف ليلة وليلة فلسفة خاصة وفكرة عامة ووجهة مشتركة ، كمن يطلب من كافة الناس عقيدة واحدة ، وطبيعة ثابتة ، واغراضاً متفقة ، فهو كما قلنا من قبل كتاب شعبي ، يصور الحياة الدنيا كما هي لا كما ينبغي أن تكون ، فاذا رأينا مذاهبه تتناقض ، ومراميه تتعارض ، وآراء تختلف ، فذلك لأن المجتمع الذي يصوره كذلك ، ولم يكن الكتاب نتاج قريحة معلومة ولا نتيجة خطة مرسومة حتى نتلمس في جوانبه الدوافع والنوازع والغاية ، إن هو الا صدى يتردد خافتاً لعقائد الشرق القديم وعقلياته وعاداته ، ففي الفلسفة نراه يتأثر بالافلاطونية الحديثة والاخلاق الاسلامية ، فيدعو الى القناعة باليسير والعزوف عن الدنيا والاعتدال في اللذة والمبالغة في الحذر ، والتفويض المطلق للقدر ، فروحه من هذه الجهة تتنافر مع صوره والبراقة وسائله الطماحة وحوادثه المغامرة ، ثم نراه في أقاصيص أخرى ولا سيما الحديثة يزين الانانيه ، ويرضي القسوة ، ويتشوف الى المكاسب الدنيئة ، ويشره الى اللذة الحسية ، ولا يكاد يعتقد بالعواطف الكريمة . وقد يصور المتاع الحسي واللهو الجموح بما لا يتمثل في الذهن إلا على سبيل الخيال ، كالذي يحكيه عن فتى من أبناء الملوك أرسي الى جزيرة كلٌ من فيها من تجار وصناع نساء كأنهن اللؤلؤ المكنون ، فقضى بينهن في هذا النعيم أياماً أقل ما أصاب فيها من اللذة أنه كان يلقي الشبكة في الماء على سبيل اللهو ، فتخرج اليه من الاصداف خريدة من بنات الجان ، كأنها حورية من حور الجنا الخ ..

فاذا اختبرناه في السياسة والاجتماع رأيناه ملكياً يقيم في كل مدينة عرشاً ، وينصب على كل مجمع من الاحياء ملكاً ، حتى الحيات والحشرات والطيور والوحوش والقردة ، ديمقراطياً يشرك الملك والصعلوك في متع الحياة ومجالي الانس ، عائلياً يبني نظام البيت وتأثيل المجد على الزوجة

والولد ، لذلك تجدونه يستهل معظم أقاصيصه بحنين الوالدين الى النسل ، وفزعهما الى الله أو الى المنجم من داء العقم ، وقد يسمو مغزاه الى الفلسفة الاجتماعية العالية ، مثال ذلك حكاية السندباد والحمال ، فالحمال يؤده الحمل الفادح ، وينهكه الحر اللافح ، فيلقي حمله على مصطبة امام بيت من بيوت التجار يتردد اليه النسيم الرطب ، وتفوح منه روائح العطر والطيب ، ثم يرى عظمة ذلك التاجر في كثرة خدمه وغلمانه ، ويسمع تغريد البلابل والفواخت في بستانه ، ويصغي الى رنين اوتاره وغناء قيانه ، ويتنشق أفاويه الطعام الشهي من صحافه وألوانه ، فيرفع طرفه الحائر الى السماء ويقول : سبحانك يا رب لا اعتراض على حكمك ولا معقب لأمرك ، أين حالي من حال هذا التاجر ؟ أنا مثله وهو مثلي ، ولكن حمله غير حملي .

على أن أسوأ ما سجله ألف ليلة وليلة من ظلم الانسان وجور النظم هو القوة الجائرة على المرأة فان حظها منه مكنود وصورتها فيه بشعة ، وكيف ننتظر من كتاب بني على خيانة المرأة أن ينصف المرأة ؟ إن شهرزاد المسكينة إنما تسهر جفنها وتكد ذهنها لتقص على الملك شهريار أعجب القصص ابتغاء الحظوة لديه حتى تدرأ القتل عن نفسها والخطر عن بنات جنسها ، ومن الخطل الأليم أن يسند القصاص كل هذه النقائص الى النساء على لسان واحدة منهن في مقام الدفاع عنهن ، وأن يجري على فمها في حضرة الملك تلك الكلمات المخزية في وصف بهيمية الرجل.

ألف ليلة وليلة يصور لنا المرأة في القسم الهندي الفارسي خطالة خائنة تبيع عرض الملك للعبد في قصة شهريار وأخيه ، لجوجة جموحة أنانية في قصة الحمار والثور تصر على أن يبوح لها زوجها بسرّه ، وهي تعلم أن في افشائه ضياع أمره ، حاقدة كائدة منتقمة في قصة الوزراء

السبعة : قاسية عاتية مرهوبة في حكاية قمر الزمـان الأولى ، وهي في بغداد سجينة في قصرها مغلوبة على أمرها قد انتبذها زوجها وألقى زمامه في أيدي الجواري والقيان ، وعلى كلتا الحالتين من حرية ورق نراها وسيلة لذة وغرض شهوة وأداة خدمـة ، أما هي في مصر والشام فوجودهـا عدم ، لا تسمع لها صوتاً في بيت ، ولا ترى لها أثراً في سوق . فإذا خرجت من ظلام الستار الى ضوء النهار ، كانت طاغية جاهلة ، كزوجة معروف الاسكافي ، أو لصة حيّالة ، كدليـلة وبنتها زينب ، أو قوادة مرتادة ، كأولئك العجائز اللاتي ينقلن الفتنة من مكان الى مكان ، ويصلن المنكر بين فلانة وفلان .

أما تصوير الكتاب لمظاهر الاجتماع الشرقي في القرون الوسيطـة من العادات والاخلاق والمواسم في السوامر والولائم والاعراس والمـآتم والاسواق والمحاكم ، فقد بلغ الغاية من ذلك كله ، إلا أن الطبعة المصرية في هذا الباب كما قلنا أصدق وأجمع ، لأن القصاص وهم مصريون تكلموا عن علم ووصفوا عن رؤية ونقلوا عن سماع ، فاذا قرأتم مثلا حكاية نور الدين وشمس الدين ، وجدتم المصريين كانوا في حفلة العقد يطلقون البخور ويشربون السكر وينضحون الوجوه بماء الورد ، وفي زفـاف العروس ينطقون المواشط وألقيان بالقاء النقود في الدف أو (الإطار) ، كما يسميه ألف ليلة وليلة ، أو (الطار) كما يسمى الآن في مصر ، وفى جلوتها على المنصة يجلسونهـا بين صفين من كرائم السيدات في يد كل منهن شمعة موقدة ، ثم يلبسونها حلة بعد جلة في فترة بعد فترة حتى يخلع عليها سبع حلـل ، ومع كل سيدة من المدعوات الى الحفل صرّة من الثياب المعدة لذلك الزفاف يحملها خادم ، فكلما خلعت العروس حلة خلع المدعوات كذلك حلة الى تمام السبع ، ولا تزال هذه العادات باقية في بعض البلاد وبعض الأسر في مصر .

وإذا قرأتم حكاية علاء الدين أبي الشامات ، وجدتموهم كانوا يستعملون الحشيش قوة للزوج ، ويتخذون المحال خلاصاً من الطلقة الثالثة ، وهما خلتان شائعتان في الطبقة الدنيا ، إقرأوا حكاية معروف الاسكافي ، تجدوه مثالا صادقاً لبعض الناس هناك في ضعف الارادة وسلامة الصدر وحب الابهة وتبذير ما في الجيب اتكالا على الغيب واهتضاماً للحق ، وتجدوا زوجه فاطمة العرة التي فرّ من جبروتها وجفوتها وقسوتها وعنادها الى أقصى مجاهل الأرض فتبعته ، لا يزال لها شبه في الباقيات الصالحات بمصر من عهد الجهالة .

أما الطبعة البغدادية ، فقد عبث بها القصاص وشابوها بلهجاتهم وعاداتهم ولكنها مع ذلك حرية بثقة الباحث إذا استطاع تنقيتها من شوائب البهرج والدخيل .

بقي علينا أن نعرف وجهة كتابنا في الدين ، وليس من العسير على القارىء أن يتبين تلك الوجهة ، فان في كل صفحة من صفحاته دليلا على أنه مسلم صادق الإيمان قوى العقيدة ، يأخذ تقاليد الدين صحيحة أو مشوبة مأخذ العامي الواثق المطمئن ، فلا يبحث ولا يستنبط ولا يطيق ، حتى في مقام الحكمة والموعظة لا يكاد يذكر حديثاً أو آية ، وانما يستند في ذلك إلى مأثور الشعر ومنثور الحكم ، فسبيله في الدين أن يدعو اليه ويهتف به ويتعصب له ، لذلك نراه لا يتحدث إلا عن المسلمين ولا يتخذ اشخاصاً لقصصه حتى الأجنبية منها إلا من المسلمين ، فاذا كان أحد الجنة أو الناس غير مسلم واضطر الى الحديث عنه انتهى به الى الاسلام أو دبر له عقبى سيئة ، وذلك نادر ، كما فعل في حكاية مسرور المسيحي وزين المواصف وزوجها اليهوديين ، فالحبيب والحبيبة أسلما فورفت عليهما ظلال النعيم والحب ، وظل الزوج يهودياً فدفنته امرأته حياً ،

وألف ليلة وليلة سنتي لا يكاد يعرف فرقة أخرى من فرق الإسلام حتى الشيعة – وكان لهم على عهده في مصر دولة الفاطميين ، وفي العراق نفوذ البويهيين – لم يذكرهم إلا في حكاية علاء الدين ، وهي مكتوبة بمصر على عهد المماليك . ولقد دلّ حين تعرض لهم في هذه القصة على جهالة قبيحة أو دعاية سيئة ، فقد أشار في موضوع منها الى أن الروافض كانوا يكتبون اسمي الشيخين على بواطن الأعقاب ، وقال في موضع ثان إن أهل بغداد كانوا يغلقون الابواب خوفاً من الروافض أن يلقوا الكتب في دجلة ، وقال في موضع ثالث إن الرشيد سأل الرجل الذي همّ باغتياله وهو يلعب الكرة والصولجان فنجاه أصلان بن علاء الدين: أما أنت مسلم ؟ فقال : كلا ، وإنما أنا رافضي .

مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته :

صنّف المنقبون ما عثروا عليه من مخطوطات (ألف ليلة وليلة) ، فكانت ثلاث مجموعات مختلفة : مجموعة آسيوية ومجموعتين مصريتين . فأما المجموعة الاسيوية وهي أقدمهن فلا تشمل إلا على القسم الأول من الكتاب وإحدى نسخها مبتورة ، وأشهرها نسخة كلكوتا ، وهي تحتوي على مئتي ليلة ، وقد شرع في طبعها الشيخ اليمني في جزءين بمدينة كلكوتا سنه ١٨١٤ م ، وأتمها سنة ١٨١٨ م فكانت أول مخطوطة طبعت من هذا الكتاب في الشرق والغرب ، ثم نسخة (برسلو) وهي التي طبعها الاستاذ (هبكت) في اثني عشر جزءاً ، ظهر الجزء الاول في سنة ١٨٢٥ م والآخر سنة ١٨٤٣ . وأما المجموعتان المصريتان فهما أحدث من الاولى وبين نسخها اختلاف شديد في الاسلوب والترتيب والعدد والقصص ، ومن هاتين المجموعتين نسخة كلكوتا الثانية التي جمعها ، وطبعها الاستاذ (ماك نوكتن) في أربعة مجلدات من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٢ ، ثم نسخة بولاق التي طبعتها الحكومة المصرية في مطبعتها بالقاهرة سنة

١٨٣٥ في مجلدين ، وهي أكمل النسخ جميعاً وأصحها ، وعنها صدرت جميع الطبعات في مصر والشام وبومباي ، ونقلت جميع الترجمات الى جميع اللغات ما عدا ترجمة (جلان) . فأما الطبعات ، فكلهن سواسية في قبح الشكل وسوء النقل وقلة العناية ، لصدورهن من أرباب المكاتب وأصحاب المطابع ، وهؤلاء يبتغون أوفر ربح في أيسر كلفة ، على أن أديباً عن الآباء اليسوعيين قد طبعه ببيروت طبعاً جميلا في أربعة مجلدات بعد أن قصّ من قصصه واقتضب من جمله وهذب من عباراته ، ثم جاء منشيء الهلال فأربى عليه بالحذف والبتر والاختصار وطبعه في مصر في خمسة أجزاء صغار ، وهاتان الطبعتان ، ولا سيما الأولى أليق الطبعات بأخلاق الفتى وحياء الفتاة ، ولكنهما لا تنقعان غلة الأديب الباحث .

فأما الترجمات فأولها في الوجود ترجمة الاستاذ (جلان) ، وهي أنيقة الأسلوب ، رائعة السبك ، إلا أنها غير دقيقة ولا أمينة ولا وافية ، على أن لها اليد الطولى على الكتاب في التعريف والتنويه باسمه والدلالة على فضله ، طبعت هذه الترجمة بباريس في اثني عشر مجلداً ابتداء من سنة ١٧٠٤ الى سنة ١٧١٧ ونقلت عنها سنة ١٧٠٧ ترجمة انكليزية مختصرة في ستة مجلدات بعنوان الليالي العربية ، وأشهر الترجمات بعد ذلك في السعة والدقة والصدق ترجمة « بورتن » بالانكليزية ، وترجمة ماردوس بالفرنسية ، وترجمة هبكت بالالمانية .

ذلكم يا سادتي ما يتحمله المقام والوقت من تاريخ ألف ليلة وليلة ، وإنكم لترون من هذا الإجمال فعل القريحة العربية فيه ، ومظهر العقيدة الاسلامية في جميع نواحيه ، وطابع العقلية السامية في أخيلته ومراميه ، حتى أصبح الكتاب عنواناً عريضاً من عناوين آدابنا ، وشاهداً جديداً على الحبيبة القاهرة والشخصية الآمرة في آبائنا ، وإلا فبماذا نفسر هذا ؟

لقد خلفوا اليهود على الدين فظهر عربياً رائعاً في رسالة محمد ، وخلفوا اليونان على العلم فعاد عربياً ساطعاً في فلسفة ابن رشد ، وخلفوا الرومان على الحضارة فبهرت العالم بالعمران والعدل في عصر الرشيد ، وخلفوا الفرس على الأدب فأخضعوا ألسنتهم وأفئدتهم لأدب القرآن ، وخلفوا الهند على القصص فأروهم روعة الخيال وقوة الإلهام في ألف ليلة وليلة ، وخلفوا الأمم العظمى على أكثر الارض فأوشكوا أن يعرّبوا العالم ، فليت شعري أتغيرت الصحراء ، أم فسدت الدماء ، أم ضويت الابناء ، أم هي ربضة الاسد ، واستجمامة المتعب ، واستجماعة الواثب ، ثم استئناف الهجمة الأولى على الموقع الأول في الحياة ؟

لقد اعنتّكم طويلا ، وأتعبتكم كثيراً ، وكدت أخرج من المحاضرة الى الخطابة ، فعذراً يا سادتي وشكراً .

صديق الكلاب

كتب هذه القصة وهو في العراق ، قصها عليه رجل بدويّ اسمه عبد الواحد ، كان يقوم على خدمته ، حكاها له بلغته البدوية الجميلة ، فعاد الزيات فسجلها بلغته الفنية . وللزيات قصص قصيرة ، كتب بعضها في (الرواية) وبعضها في (الرسالة) ، ولو جمعت لحصل منها كتاب في الأقصوصة البارعة ، قال :

« شرب عبد الواحد وسقانا ثلاثة أقداح من الشاي المعطر ، ثم أطلق من حنجرته القوية جشاءة طويلة عريضة كخوار العجل ، ثم حضأ النار بأنامله وشيع ضرمها في بقية الفحم ، ثم أشعل منها سيكارته العربية ، وأرسل في رفق دخانَها الرقيق الأدكن . وبانت على معارف وجهه شهوة الكلام ، وكان كلبي الصغير قد لاذ من قرس البرد بجانب الموقد ، فهو ينطوي وينتشر تبعاً لما يغلب على جو الغرفة من نفح النسيم أو لفح اللهيب . فرأيته يطيل النظر اليه في طرف ساكن ووجه ساهم ، فقلت مداعباً :

لعلك ذكرت بالكلب حبيبتك وهي في خبائها بين كلابها وشائها ، فابتسم ابتسامة العذراء الخفرة ، وقال : الحمد لله ، ما ذكرت على فقري حياة البرمنذ هجرته ، ولكني ذكرت رجلاً كان في بغداد يدعى (أبا

الكلاب) . فسألته : وما حديث أبي الكلاب هذا يا عبد الواحد ؟ فلمع في عينيه البشر ، لأن سروره كان في أن يتحدث وأسمع . وذهب به شيء من التيه ، لأن شعوره بأنه يعلم ما لا نعلم يرفعه قليلا فوق قدره ، لذلك تراه عند الحديث يجلس جلسة النظير ، ويلهج لهجة الأمير ، ويقرر تقرير العالم .

قص عليّ هذه الأقصوصة ، وهو على يقين منها جازم ، وما كان أسرني وأسرّك لو استطعت أن أنقلها اليك بلغته الجميلة التي تأخذ من لحن بغداد ومن لحن البادية ! على أنني سأحاول ما أمكنتني القدرة أن أترجمها ترجمة صادقة ، تكشف عن أثرها وفعلها في نفسي ..

كان في بغداد منذ خمسين عاماً أسرة كريمة تعتز بنسب العرب من جهة الأب ، وتتصل بسبب الترك من جهة الأم ، فهي مزاج معتدل من عقليتين متباينتين ، لا يجمع بينهما غير الدين ، والدين في مثل هذه الحال يكون أوثق وأمتن أسباباً ، لقيامه مقام الجنسية الجامعة والعصبية القريبة . فالوالدان صالحان تقيان لا يفهمان من العروبة إلا النبوة والقرآن ، ولا من التركية إلا الخلافة والسلطان ، ولا يعرفان من دار السلام وفروق (١) إلا انهما بلدان في طريق واحد ، والولدان جميلان بارّان ، يكبر الذكر منهما الأنثى بخمس سنين ، وقد درجا معاً من مهد الفضيلة ، ثم ترعرعا في حنان الأبوين على كفاف من العيش يؤتيه متجر غير نافق .

لم يشغل عبد الواحد باله كثيراً بتفصيل حياة هذه الأسرة الصغيرة ، فكان كلامه عنها مرسلا مجملا ، لا يحلل طبيعة شخص ، ولا يحدد تاريخ حادث ، ولا يعين مكان منزل ، حتى أسماء الأب والابن والبنت لم يجد في

---

(١) فروق مقر الخلافة العثمانية وهي الاستانة .

ذكرها ما يفيد الحديث .

فهو يحذف ما يزعمه فضولاً ، ويسير قدماً الى هيكل الموضوع وعقدة الحادث ، فيقول :

إن الغلام كان عمره اثني عشر ربيعاً حينما صحب خاله الى الاستانة ، والاستانة يومئذ كانت منتجع الخواطر ومهوى القلوب الطامحة الى السطوة والثروة والعلم ، فهل كانت هجرته إلى دار الخلافة تثقيفاً لنفسه ، أو تخفيفاً لابيه ؟ فما يعلم إلا أنه شدا شيئاً من العلم في إحدى مدارس القسطنطينية تحت عين وايه وعونه ، ثم اندفع في غمار المدينة الصاخبة يداور الامور ويلتمس المكاسب ، ثم أوغل في مدن البلقان وشعاب الاناضول ، حيناً في خدمة الجيش ، وحيناً في طلب العيش ، حتى انقطع علم ما بينه وبين أهله .

كان الغريب النازح يهاجم الاخطار في كل فج ، ويصارع الاقدار في كل اج ، وكل همه أن يجمع من المال ما يضمن له ولاسرته خفض العيش في ظلال بغداد الجميلة ، فلما ملأ الدهر يديه بما أمل ، كان وا أسفاه ربيعه قد أدبر ، وربعه قد أقفر ، وحلمه قد تبدد ، فان والديه البائسين قد ألحّ عليهما من بعده الحزن والضر والفقر حتى انطفأ سراجهما في حولين متعاقبين بعد انقطاع خبره ببضع سنين .

وأما البنية اليتيمة ، فقد حنا عليها بعض ذوي المروءات من أهل البيوتات ، فضمها الى حرمه ، وواسى يتمها الحزين بعطفه وكرمه .

عاد المهاجر الى وطنه يحمل في جيبه المال وفي قلبه الامل فما وطئت قدماه ثرى العراق الذهبي حتى ازدحمت الذكريات على خاطره ، ومرت الحوادث المزعجات أمام ناظره . ولكن شعوره بلذة العودة الى الارض التي أبصر عليها الدنيا ، والسماء التي تقبل منها الروح ، والهواء الذي رفّ

عليه الصبا ، والماء الذي نضح قلبه بالنعيم ، والاسرة الحنون التي براه اليها الشوق ، والمستقبل الباسم الذي ينتظره في بغداد ، كل أولئك قد شعب فؤاده ، وشفى كبده ، ومسح مابه .

عرف المحلة والدار بعد لأي ، لطموس المعالم القديمة ، ثم قرع الباب بيد مرتجفة فاذا المالك الجديد يخرج اليه ، فأقبل عليه المسكين لهفان ضارعاً يسأله : هنا كان مهبط نفسي ، فأين أبي ؟ وهنا كان مسقط رأسي فأين أمي ؟ وهنا كان لي مهد وأخت وملعب وجيرة . فقل لي بربك يا سيدي : أين تحمل بكل هؤلاء القدر ؟

وكان بين المسؤول والسائل حوار قصير عرف منه البائس أن ريح المنون قد عصفت بأهله ، فارتد إلى الفندق لا يملك دمعه ولا قلبه ، ثم قضى حيناً من الدهر ذاهب القلب يكابد غصص الكرب ، ويعالج بعض الهموم ، حتى رأم الزمان والايمان جروح صدره ..

وقع في نفس الوحيد الحزين أن يتزوج ليعيد إلى سجل الوجود اسم اسرته . فاقترحت عليه جارة عجوز أن تخطب له فتاة يقولون إن بينها وبين بني فلان عاطفة رحم ، ويؤكدون أنها تنزع الى عرق كريم المهذب وجمالها المحتشم ، فاطمأن قلب الخاطب الى رأي الخاطبة ، واختلفت العجوز بينه وبين ولي الفتاة حتى تم الوفاق وسمي الصداق وعينت ليلة الزفاف ..

زفت العروس إلى زوجها ، فبهره ما رأى من جمال وأحس من ظرف وسمع من أدب ، فافتر في وجهه السرور ، وحمد الله على حسن توفيقه . ثم انقضى شهر العسل على خير ما يجد زوج من زوجه . وفي ذات ليلة تجاذب الزوجان أطراف السمر وشققا بينهما الحديث حتى أفضى الى علاقتها بوليها فلان (بك) فأحب الزوج أن يعرف درجة

القرابة بينهما فغضّت الفتاة من طرفها وشاعت حمرة الخجل في وجهها ، وقالت في صوت خافت متهافت من الخزي والخوف (الحقيقة ان ليس بيني وبين هذا الرجل قرابة ، إنما هو نبيل محسن آواني ورباني بعد ما فجعني البين في أخي والموت في أبي ، وأنا يومئذ في حدود الثانية عشر ، ثم تتابعت الاسئلة من الزوج وتسارعت الاجوبة من الزوجة ، وكان كلما انجاب عن خبايا الغيب حجاب امتقع لونه واقشعر بدنه واشتد وجيب قلبه ، وكانت هي كلما رأت منه ذلك نسبته الى انخداعه في أصلها ، فمضت تعضل المأساة وتصور الفاجعة بالكلام والدمع ، عسى أن تعطف قلبه على مصابها ، فلا يفكر في طلاقها وعذابها ، ولكنها لم تكد تلمس الحجاب الاخير حتى رأت زوجها قد قف شعره وارتعدت أطرافه ثم انفجر صارخاً يقول : واويلتاه ! لقد تزوجت أختي ، ثم خرّ مغشياً عليه ، فلما ثاب اليه بعض رشده ، نظر الى اخته فوجدها فاقدة الوعي ، فتركها وابتدر الباب ، وخرج مسرعاً لا يلوي على شيء ولا يلتفت إلى أحد .

خرج طريد القدر من بيته خروج أوديب الملك من قصره ، ثم هام في الطرف الضيقة المتشابكة يسأل الرائح الغادي عن مفتي بغداد . فلما دخل عليه ، باح له بسر الخطيئة ، فهول عليه الشيخ التركي بعقابها ، وبالغ في جرائرها واعقابها ، ثم افتاه بعد الاستشارة والاستخارة والرؤيا أن لا يغفر هذا الجرم إلا إذا صدف عن متاع الحياة وخرج عن أثيل الملك واستتر بأخلاق الثياب وقضى عمره في جمع الخبز للكلاب الشوارد .

أذعن الخاطىء البرىء لحكم الفقية الاحمق ، ونزل للزوجة الاخت عما عملك ، وارتدى طمراً من القطن الغليظ ، وحمل على عاتقه مخلاة ، ومضى يقرع كل بيت ويقصد كل مطعم فيجمع الفتاة والخبز ، ثم يقف بالميدان فيقسمه بالسوية على من أجاب الدعوة من كلاب الحي .

لم يمض غير قليل حتى عرفه الناس وألفه الكلاب ، فصار يمشي في الازقة وخلفه منها قطيع ، وينام في العراء وحوله من شدادها حرس مطيع ، وتحين الوجبة فلا تجد كلباً طليقاً في بغداد الا أجاب نداءه ، وتناول من يديه المحمومتين غداءه . ولكن الوالي رأى على طول الزمن أن يدي ابي الكلاب على رعيته عافية وربيع ، فسمن هزيلها وكثر قليلها ، حتى اختنق بلهاثها النهار وصمّ بنباحها الليل ، وأصاب الناس من عضاضها وأمراضها شر كبير ، فأقام في ظاهر المدينة حظيرة واسعة ، ثم أمر الشرطة فصادوا الضواري وألقوها فيها ، فكان أبو الكلاب على عادته يجمع الطعام والعظام ثم يذهب الى ضيوف الحظيرة فيطعمها ويسقيها ، ثم يتهالك على الارض من اللغوب فيرقد مكانه حتى الصباح .

وفي ضحوة من الايام أولم الوالي لاسراه وليمة (السفاح) لبني أمية ، فما نجا من بعدها لاهث ولا نابح . وجاء أبو الكلاب فرأى ألآفه الخلصاء على أديم الأرض صرعي لا يتملقن بعين ، وشبح الجريمة يحيا ، فتساقط بجانب السور مهدود القوى صريع اليأس ، ولبث مكانه لا يأكل طعاماً ولا يذوق مناماً حتى لحق بربه .

تقدير الجمهورية العربية للزيات :

نال الزيات جزاء خدمته وتقدير أدبه جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٦٢ في الآداب . وهي أعلى جائزة تمنحها الجمهورية العربية للعلماء والكتاب ، الذين قاموا بأعمال اصيلة مبتكرة اثرت في بناء الحياة القومية والانسانية ، وهي التفاتة من الدولة بارعة وكريمة هي بعض ما يستحق الزيات من تقدير وتقويم لأدبه وخدمته الطويلة ولأمثاله من حملة القلم ودعاة الاصلاح فهم المجاهدون الأولون وهم الأساس في نهضة الشعوب ويجب أن يكونوا في المحل الأرفع والمكان الاسمى قبل حملة الرشاش

والمدفع ، وحقهم يجب أن يرعاه الحاكمون .

وانتخب عضواً في المجمع اللغوي في القاهرة منذ سنة ١٩٤٦ ، وراح يعمل على تحقيق الأهداف التي من أجلها انشيء المجمع ، واشترك في لجانه العامة .

منها لجنة تيسير الكتابة ، ولجنة اصول الحضارة ، ولجنة معجم الفاظ القرآن ، ولجنة الادب ، ولجنة اللهجات ، ولجنة المعجم الوسيط . وهو أحد الاعضاء الاربعة الذين تولوا اخراج المعجم الوسيط ، وشارك بعدة اقتراحات بناءة للمجمع منها :

فتح باب الوضع على مصراعيه بوسائله المعروفة ، وهي الارتجال والاشتقاق ، ومنها : اطلاق القياس بالفصحى ليشمل ما قاسه العرب ، وما لم يقيسوه ، فان توقف القياس على السماع يبطل معناه ..

ومنها اطلاق السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما يسمع اليوم من طوائف المجتمع ، كالحدادين والنجارين والبنائين ، وغيرهم من ذوي المهن .

وقدم اقتراحات بشأن المعجم الكبير وذلك بأن يوصي المجلس لجنة المعجم التاريخي الكبير ان تمزج طريقتها بطريقة فيشر وان تدخل في المعجم جميع الزيادات التي انفرد بها معجم فيشر ، ومنها : اقتراحه لجمع ما تفرق من أعمال المجمع في محاضر الجلسات على طول السنين ليسهل على الاعضاء الرجوع اليه فلا يقع في عملهم تناقض ولا تكرار .

واقترح عرض انتاج المجمع في صورة منتظمة على الجمهور ليستفيد منه من يستفيد ويعقب عليه من يعقب .

وألقى بحوثاً وكلمات قيمة ، منها : الوضع اللغوي وهل للمحدثين رأي فيه ، والمجمع واللغة العامة ، وفي ألفاظ الكتاب المحدثين ، وكلمة أبّن فيها

الاستاذ ابراهيم مصطفى ، وكلمة عن فقيدنا العلامة الشيخ رضا الشبيبي .

أشهر مؤلفاته :

١ – وحي الرسالة المجلد الاول تضمن ما كتبه الزيات في افتتاحيات الرسالة من سنة ١٩٣٣ الى سنة ١٩٣٩ .

٢ – المجلد الثاني من وحي الرسالة من سنة ١٥٣٩ – ١٩٤٣ .

٣ – المجلد الثالث من وحي الرسالة من سنة ١٩٤٤ – ١٩٥٠ .

٤ – المجلد الرابع من وحي الرسالة من سنة ١٩٥١ – ١٩٥٤ .

٥ – تاريخ الادب العربي . اعيد طبعه طبعات متعددة احبها جاوزت الست عشرة وفي كل طبعة ينقح ويختصر او يزيد بعض فصول الكتاب وأصبح المرجع المعتمد لدارسي الادب ولا سيما طلاب دور المعلمين والثانويات وحل محل الوسيط والمدخل والمجمل وغيرها من الكتب المقررة وفق مناهج التعليم في العراق .

٦ – دفاع عن البلاغة ، والزيات رحمه الله يدافع عن البلاغة ابلغ دفاع ويعرضها أجمل عرض ويذكر أسباب التنكر عن البلاغة ، ويفصل فصولاً مبتكرة عدها من دعائم البلاغة مثل العلاقة بين الطبع والصنعة ، والذوق ، والاسلوب ، ودعاة العامية والرمزية وموقف البلاغة من هؤلاء المقوضين لاصل البلاغة ، ويتجلى حرص الزيات على الفصحى والدفاع عن لغة الكتاب الكريم صيانة للقرآن الخالد وحفظاً لتراثنا الأدبي والحضاري وفي الكتاب دراسات نافعة لظهور المدارس النقدية وتوجيه الى كتب النقد الصالحة .

٧ – من الادب الفرنسي :

وموضوعه فصول أدبية اختارها واقاصيص وقصائد ترجمها من نوابغ

الكتاب ، وعرب نماذج من القصة القصيرة وضعها أمام عشاق القصة نشر أكثرها في مجلته (الرواية) .

٨ - في أصول الأدب :

كتاب في النقد ودراسات تهدف إلى توضيح أغراض الادب وأهدافه وأساليبه ، ودراسة للمسرحية ، ومن موضوعاته محاضرته القيمة (ألف ليلة وليلة) وأثرها في الادب الغربي ، وكتابه هذا كان مصدراً عن مصادر الدراسة الادبية ، ونواة لكثير من البحوث التي يتقدم بها الجامعيون ، وفيه عرض لآراء بعض المستشرقين والرد على دلّس منهم على أدبنا ولغتها .

٩ - وختم أديبنا الراحل حياته بتأليف كتاب لم يرَ النور بحياته ذلك هو (عبقرية الاسلام) ، والزيات فيما كتبه عن الاسلام وأيامه الخالدات في مدى حياته في الرسالة والازهر ليدل دلالة واضحة على حرصه وعقيدته وتشرب روحه لمفاهيم الدين الحنيف ، ولا غرابة وهو الازهري المتشبع بأدب الاسلام ولغة القرآن ..

نماذج من ارائه وأدبه

تقدير الزيات :

وبعد فهذه أقباس من أفكار الزيات ونماذج من نثره الفـــني ، تشع بالنور وتتسم بالصدق وتتشح بالتجديد ، وتحمل طابع الاصلاح والثورة على الجمود ، وتدعو الى العزة الاسلامية والكرامة القومية ، وتبشر بالعروبة والوحدة ، خلد الزيات أفكاره ومقالاتـــه في مجلدات أربعة – وحي الرسالة – ومـــا سطره في الرسالة الجديدة وكتبه في افتتـاحيات مجلة الأزهر ، لو جمـع لكون مجلدين أو أكثر ، وفي جمعها بكتاب تخـدم القارىء وعشاق البلاغة . .

وكتب يخاطب زعماء العرب سنة ١٩٤٥

وكانوا قد اجتمعوا للتشاور والتباحث في وضع القواعد والاسس التي يرونها كفيلة لقيام الجامعة العربية فكتب يذكرهم :

« اذكروا يا زعماء العرب وأنتم اليوم بسبيل التشاور في تجديد وحدة العرب .. ان الركن الأول من اركان دينكم هو التوحيد ، وأن العمـل الاول من أعمال نبيكم كان التوفيق اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا » . واذكروا إحسان النبي

إليكم إذ كنتم اشتاتاً فجمع شتيت شملكم ، فاقمتم على وحدته ملكاً وسلطاناً ، اذكروا ان الوحدة هي التي مكنت العرب بالأمس البعيد من تراث كسرى وقيصر ، وهي وحدها التي تستطيع في الغد القريب أن تنقذكم من وارث أساطين الاستعمار موسوليني وهتلر وتشرشل ... قولوا للمعوقين منكم ، والمخلفين عنكم ، ان العصبية التي توسوس في بعض الصدور بالرياسة والسيادة والعزة ، إنما كانت في تاريخنا الحافل بالاحداث والعبر علة العلل في انشقاق العصا ، وانقسام الرأي وانحلال العقيدة وانتشار الأمر ، وتعدد الدول هي النعرة التي قامت يوم السقيفة تقول : منا أمير ومنكم أمير .. وهي الهامة التي خرجت من قبر عثمان ، وظلت تصيح على دار الخلافة نحن هاشميون ، ونحن امويون ، ونحن قيسيون، ونحن يمانيون ، ونحن علويون وعباسيون، ونحن عرب وشعوبيون... نتقاطع في الدين ونتعادى في الدنيا ... »

الرجل المنتظر :

وفي ٢٩ نيسان سنة ١٩٤٠ كتب تحت هذا العنوان « الرجل المنتظر » والعالم يومئذ يغلي كغلي الحميم ، ويهدر بالحمم كهدير البركان ، والخوف قد ملك كل انسان والممالك تتطاير في خارطة أوربا يومها كتب يقول :

« ليكون لنا حاسب يوم نطالب أن يكون لنا في الدست رجل يحاسب المنتصرين يوم يوزعون الاسلاب » ، وكأنه كان ينظر بعين الغيب ليكشف الحجب عن أوصاف الرجل المنتظر فراح يخطط له المنهج ، ويوضح له المهيع ويمهد له الأرض ، قال :

« لهذا الرجل الذي تنتظره الأمة العربية آيات تمهد له ، وتدل عليه ، فمن الآيات المهيئة لظهوره ، انحلال الاخلاق ، فلا تتماسك في قول ولا

فعل ، وتقاطع القلوب فلا تتواصل في وطن ولا دين ، واستئثار النفوس ، فلا تتعفف في صداقة ولا نسب ، وجموح الشهوات فلا تنقدع بلين ولا بشدة ، واستبهام المذاهب فلا تستبين بنجم ولا شمس ، وانقطاع الامة عن ركب الحياة فلا تتحرك قبلة ولا دبرة ، ومن آياته المنبئة بوجوده أن يكون لغيره لا لنفسه : ولأمته قبل أسرته ، وللانسانية بعد وطنه ، ومصداق تلك الآيات أن تموت « أنا » في لسانه وتحيا في ضميره ، ويتحد في ذهنه وجود ذاته بوجود شعبه فهو يحس الم لأنه مجتمع شعوره ، ويدرك نقصه لأنه مجتلى عقله ، ويملك قياده لأنه مظهر إرادته ، وهو في سمو نفسه ونزاهة هواه ، قد ارتفع عن أوزار الناس وأقذار الأرض ، فلا يطمع ، لأن غرضه أبعد من الدنيا ، ولا يحقد لأن همه أرفع من العداوة ، ولا يحابي لأن فضله أوسع من العصبية ، ولا يقول قولا ولا يعمل عملا إلا اذا وافق الدين الذي يعتقده ، والمبدأ الذي يؤيده ، والشعب الذي يقوده ، ثم هو في المعية ذهنه ، ورصانة لبه ، وصلابة عوده ، وبعد همته يعظم على الاحداث ويعلو على الحوائل فلا ينضج رأياً إلا أمضاه ولا يرمي غرضاً إلا أصابه ، ولا يروم أملا إلا أدركه ، هذا الرجل الملهم الموهوب هو الذي ترقب ظهوره كل فرقة وترصد نجمه كل أمة ... »

الجهاد عدة الاسلام :

وكتب في العدد الثاني من السنة التاسعة والثلاثين ، من مجلة الأزهر ، صفر ١٣٨٧ – مايس ١٩٦٧ مقالا بعنوان – الجهاد عدة الاسلام – على أثر النكسة التي هزّت الأمة العربية وأقضت مضجعها ، وعرفتها حقيقة كياناتها الهزيلة واستعداداتها الضعيفة وقياداتها المتشاكسة المتواكلة المغرورة . جاء فيه :



عبد العزيز الثعالبي

متى يؤدي المسلم فريضة الجهاد ، إذا لم يؤدها اليوم ؟ دينـه يتقحم عليه الكفر يحاربه مع الصهيونية ، ووطنه تنفجر على جوانبه الدواهي والاستعمار ، وأخوته في فلسطين ، اخرجتهم الدول النصرانية من ديارهم وأموالهم ليدخلوا فيهـا من صنعوا الصليب للمسيـح من سلالة يهـوذا وشعبه في أقطار العروبة وديار الاسلام ، لا يزال في معترك الخطوب ، ومشتبك المطامع ، يجأر بالشكوى ، ويصرخ من الظلم ، ويغضب للكرامة ، ويثور للحق ، فلا ينال من الضمير الغربي ، إلا ما تناله هبة الريح من الصخر الاصم ، والجواب : — ان المسلم المؤمن ، لا يزال على ذكر من أن دينه قرآن وسيف ، وتأريخه فتح وحضارة ، وشرعه دين ودنيا ، وحربه جهاد وشهادة ، وحكومته خلافة وقيادة ، فهو مجاهد أبداً ، لا ينفك عنه الجهاد أصغره وأكبره ، فاذا لم يجاهد عدوه جاهـد نفسه ، وإذا لم يراقب ثغوره راقب ضميره ... والمسلمون منذ استيقظ وعيهم على رجفات الحرب العالمية الاولى ، ادركوا ان علة ما أصابهم من الاستبعاد والاستعمار ، انما هي اعتمادهم على الحق دون القوة ، وعلى القول دون العمل ، واصل ذلك الضعف — والضعف يجافي طبيعة العربي — وينافي حقيقة المسلم ... فتنادوا من وراء الحدود المصطنعة والستور المضروبة ، بلسان الأدب ، وألهام الروح ، ووحي العقيدة الى العمل سراً وعلناً الاستقلال الذي يحرر ثم الى الالفة التي تجمع ، ثم الى الوحدة التي تضوى ، ثم الى القوة التي تدافع ..

وهذه المراحل الوعرة المهلكة التي تؤدي الى الحرية والعـزة ، لا يقطعها إلاّ الجهـاد الفدائي الذي فرضته شريعـة الله ، واقتضه طبيعة العرب .

وذلك الجهاد الفدائي هو بذل المال والنفس في سبيل فكرة سامية ، كأعلان كلمة الله أو تكريم ذات الانسان ، او تحقيق حرية الوطن .

وهو فرض عين ، على كل مسلم قادر ، إذا وقع المسلمون في خطر عام لا يقدر على دفعه قوم دون قوم ، كالاستعمار والصهيونية ..

والقيام به لا يتقيد بزمن ولا أرض ولا جنس ، مثله في ذلك مثل الأركان الخمسة للأسلام ، ولكنه يختلف عنها في أمر دقيق ، وذلك ان المسلم قد تضعف في نفسه الدواعي إلى إقامة هذه الأركان كلها او بعضها ، فيترك الصلاة والصوم ويهمل الزكاة والحج . وإذا ذكره بها واعظ ، أو حثه عليها خطيب جعل قوله دبر اذنه ، ولعل السبب في هذا الضعف ان العمل بهذه الأركان قائم بين المسلم وربه ، فلا وازع لها من ضميره .

أما عقيدة الجهاد فقائمة على الصلاة بينه وبين ربه ووطنه وولده وماله وتراثه وذكرياته وأمانيه ، فهي لا تزال حية في نفسه على تراخي الزمن وشدة الترك كالنار في البركان الهادىء ، تسكن ولا تنطفىء ، وتكمن ولا تظهر ، حتى إذا أثارتها الحمية لدين يهان ، او لوطن يهاجم ، انفجرت في نفوس المسلمين انفجار الحمم ، فما تذر من شيء أتت عليه إلا دمرته ..

بذلك نفسر هذه الصيحة الاسلامية العامة التي أخذت دول الاستعمار من جميع الأقطار المسلمة ، على انقطاع السبب وتباعد الشقة ، تستنكر تآمرها على مصر وتستعد لدفعه عنها بالأموال والأنفس ، وبذلك تفسر هذه القضية العربية الشاملة لما يصيب مصر وسوريا من بغي الاستعمار الفاجر ، وعدوان اسرائيل المبيت ، وما تبع هذه القضية من تعاون العرب على امدادها بالرجال والمال والعتاد ، في ميادين الحرب وتأييدهما بالرأي والصوت في مجالس الحكم ..

وما عطف المسلمين على مصر ، ولا غضب العرب لفلسطين لعصبية الجنس أو لحق الجوار ، وإنما هو لتلك الحفيظة الدينية ، التي اوحاها الله في

الكتاب ، وبيّنها الرسول في السنة وفصلها الفقهاء في الفقه ، والجهاد كسائر الاركان يستند الى نص القرآن الكريم ...

وان من سوره ما موضوعه الحرب والسلم والغنائم والأسرى والعهود ، وجملة ما يتألف منه قانون الحرب في الاسلام كسورتي « التوبة ، والانفال » .

ومن المغازي الدقيقة في القرآن الكريم ، انه لم يعرض لأسرى المسلمين بنظام ولا معاملة كما عرض لأسرى العدو ، لأنه يأمر بالثبات ، وينهى عن الهزيمة إلا لخدعة أو نجدة ..

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال ، أو متحيزاً الى فئة ، فقد باء بغضب من الله .. » أما سر القوة في المجاهدين فعلمه عند الاسلام وحده .

كان العرب من قبله قوى مبعثرة ، على رمال الصحراء لا تجمعها وحدة ، ولا تربطها رابطة ، فلما اصطفاه الله لأداء رسالته ، أمدهم بروح من عنده ، وحدّت الشتيت وألفت النافر ، وجمعت الكلمة « لو انفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم » ..

ثم قوّى هذه الروح فيهم بعقيدة القضاء والقدر ، فقال لنبيه صلوات الله عليه : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

ثم ضمن للمجاهد الفوز باحدى الحسنيين : النصر الذي تعقبه العزة لله والحرية للوطن والكرامة للانسان أو الشهادة التي يعقبها البقاء في الدنيا بالذكر والخلود في الجنة بالروح .. بهذه الروح الالهية ، خرج البدريون وهم زهاء الثلاث مئة الى أئمة الكفر من أبطال قريش وهم زهاء الالف ، فكبكبوهم قتلى في وادي بدر ، وعادت الفئة القليلة الى يثرب بالنصر

والأسرى ، وعادت الفئة الكثيرة الى مكة بالهزيمة والجرحى ... وبهذه الروح المنبثقة من روح الله خرج بدو الجزيرة من أجواف الاودية وأعماق القفر ضئال الجسوم ، قلال العدد ضعاف العدة ، الى الامبراطوريتين اللتين تقسمتا يومئذ ملكوت الارض فقوضوا الايوان على ملك كسرى ، وحطموا العرش على سلطان قيصر ...

وبهذه الروح الملتهبة في دماء المجاهدين ، ثبتت بور سعيد بالأمس لمئة وستين الفاً من أعقاب الصليبين ، وثبتت مصر وإخواتها لعدوان اسرائيل ومن وراءها من الامريكيين والبريطانيين والجهاد بعد أولئك كله سعادة لا يؤتاها إلا من اجتباهم الله لاكرام خلقه وأعزاز حقه واصلاح أرضه ، وقد سماهم الله الشهداء وجعل مقامهم في الجنة مع الصديقين والانبياء .. »

خواطر من المعركة :

وكتب ثانية في مجلة الازهر الجزء الثالث - السنة التاسعة والثلاثين - جمادي الأولى ١٣٨٧ هـ - آب ١٩٦٧ قارن بين الغزوات الصليبية الثمان التي شنتها أوربا النصرانية على الشرق المسلم في مدى قرنين من العصر الوسيط وهذه الصليبية التاسعة التي تشنها امريكا وأوربا على فلسطين مدفوعة باطماعها الامبريالية واللصوصية والصهيونية قال فيها :

« تلك الغزوات كان مبعثها الفروسية المسيحية والعصبية الدينية صدرت عن الإيمان وابتغت مرضاة المسيح - هذا زعم مسعريها - وهذه غزوة بعثتها اللصوصية الدولية والطماعية الدنيوية فصدرت عن الكفر وابتغت مرضاة يهوذا ، ويهوذا هو اليهودي الذي باع المسيح الى عدوه بدوانق معدودة قبل أن يصيح الديك ، وهو الذي روى بالدم شجرة الصليب

فاثمرت العذاب للناس والخراب للارض ، ولا يزال يهوذا المسيح ينافس في الشر إبليس آدم ، يبغي الغوائل لاتباع عيسى كما ينصب الحبائل لاتباع محمد . فلكل مصلح من يديه صليب ، ولكل نهضة من وساوسه نصيب ، ولكل أمة من دسائسه فتنة .

ومن أعجب الأمور أن تتعاون اليوم دول النصرانية على أن تجعل صانع الصليب سادنا لقبر المسيح وكاهنا لكنيسة القيامة .

ان نكبة فلسطين ومحنة العرب قد غطتا على كل حاسة ، وغلبتا على كل عاطفة ، فالفكر فيها والحديث عنها ملء القلوب وشغل الالسن ، ولكن الكلام هواء والبكاء ضعف والمنى أباطيل والمهادنة غش ، والمفاوضة عجز ، فلم يبقَ إلا أن نسكت لنعمل ، وندبر لننفذ ، ونتقوى لنسود ونتسلح لننجح ، ونقتل لنحيا ونظلم لنحترم .

وان من علامات الساعة أن يخرج اليهودي من البنك الى الثكنة ، ومن الدكان الى الميدان ليحارب العرب على فلسطين ويثأر للفرنج من صلاح الدين .

كذلك من علامات الساعة ان ينهزم العربي أمام اليهودي ولو ظاهرته مادية الامريكان وخديعة الانكليز ، فان الثعلب يكفيه ان يشم ريح الاسد من بعيد ليجحر ، وان الفار يكفيه أن يبصر الهر من فوق الجدار ليسقط .

لقد سمعنا ان اليهود يحتلون البلاد بالنساء والذهب ، ولكننا لم نسمع قبل اليوم انهم يحتلونها بالرجال والحديد .

الفدائيـــة :

ان مصر وإخواتها تملك العناصر الجوهرية للنصر وهي حسن الاستعداد وقوة الاعتماد وشدة الكراهية للعدو ، ولكنها تملك أيضاً عنصراً رابعاً لا يتيسر امتلاكه لأي شعب إلا إذا ارتفعت الوطنيـة في نفوس افراده الى مقام العقيدة الدينية الصوفية فيتحد وجـود الفرد بوجود الشعب ، ووجود الشعب بوجود الوطن ، وذلك العنصر هو الفدائية الشاملة التي تنتظم الفرد والاسرة والامة والحكومة والدولة ، فيكون كل واحد من هؤلاء فداء ضرورياً للآخر .

والفدائية في سبيل الوطن أو الدين أدل على خلوص القلب وصراحة الإيمان من الاستشهاد في سبيلها بالجهاد ، لأن الفدائي يبذل ولا يطمع في العوض ، ويضحي ولا يفكر في الثواب ، كل سعادته أن يشعر وهـو يسبل عينيه على شعاعة من نور الدنيا أن نفسه مغتبطة لأداء واجبه ، مطمئنة الى لقاء ربه . أما المجاهد فهـو يبيـع ماله ونفسه ليشتري من الله – الجنة – « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتتلون ويقتلون » فالتضحية في ذهنه بيع وشراء وعمل وأجر .

على ان الفدائي الذي يقتل في سبيل شعبه تكتب له شهادة المجاهد في سبيل ربه ..

روح الله :

روح الله هو ذلك السر الذي لا يزال كامناً في الجهاد والاستشهـاد والايثار ، لم ينفك أبداً عن مسلم ولم يخذ له أبداً في حرب ، كان يتمثل له في صور الملائكة تقاتل معه ، ويتحقق عنده في الوعد الصادق من الله

بالنصر أو الجنة ، ثم بقويه في نفسه على توالي الاعقاب والاحقاب الانقياد لله وللرسول . وقد جمع الله تدبير الحروب في آيتين من كتابه في قوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا » . وفي قوله : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا » ، ثم الايمان بالقضاء والقدر ، وقد قال الله لنبيه « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

فالمؤمن بمقدور الله يرمي نفسه في وجه الموت لا يبالي أن يقتل أو يُقتل ، لأنه في احدى الحالتين سيظفر باحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة .

وكان في أكثر هجماته يصيب ، وفي أقلها يصاب ، ولذلك قالوا عن عقيدة وتجربة : أطلب الموت توهب لك الحياة والحذر لا ينجي من القدر .

الله اكبر :

الله أكبر جملة تضمنت سر الاعتقاد وسر الجهاد وسر الفداء وسر النصر ، ولاشتمالها على هذه الاسرار كانت ركناً جوهرياً في الصلاة ، يدخل بها المصلي الى الله ، ثم يرددها في ركوعه وسجوده ، وفي قيامه وقعوده ، ثم كانت هتافاً حماسياً في الحرب يصيح بها المجاهد عند الهجوم فيكبر في نفسه النصر ، ويصغر في عينيه الخطر ، وكان غالباً ما يكون هذا الهتاف الله أكبر فتح ونصر ، فإذا جاء نصر الله والفتح انقلب هذا الهتاف القوي نشيداً قومياً ينشده المجاهدون في كل مسجد ، ويردّده المصلون في كل عيد وهو : الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً ، لا إله إلا الله وحده ؛ صدق وعده ، ونصر جنده ، وهزم الاحزاب وحده .

وقوة هذه الكلمة آتية من اعتقاد المسلم بأن الله أكبر من كل كبير ،

وأقدر من كل قدير وأعلى من كل علي ، فهو في حمى هـذا الاعتقاد يهاجم الجيش الكثيف ولا يخشى ويقتحم الخطر الداهم ولا يبالي ، وكيف يخشى ضرراً أو يبالي خطراً ، والله الذي تفرد بالسلطان الاعظم واختص بالقدرة العليا يحميه من وراءه ويكفيه من أمامه ...

ومن مقال بعنوان (مالي لا أكتب) :

« وإذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك رعت به وخدك تقرع »

أن نكبة فلسطين ومحنة العرب قد غطتا على كل حاسة ، وغلبتا على كل عاطفة فالفكر فيها والحديث عنها ملء القلوب وشغل الالسن ... ولكن الكلام هواء والبـكاء ضعف والمنى أباطيـل ، والمهادنة غش ، والمفاوضة عجز ، فلم يبقَ إلا أن نسكت لنعمل وندبر لننفذ ، ونتقوى لنسود ، ونتسلح لننجح ؛ ونقتل لنحيا ونظلم لنحترم ، لو كان في الدنيا حق لما كان لفلسطين قضية ، ولو كان في الناس عدل لما اصطلحت على ظلمنا الشيوعية والرأسمالية ولو كان في الأمر اختيار لما تركت سيوفنا من بني يهوذا بقية » .

عشرون سنـة انسلخت على الشعوب العربية وهي تملأ الدنيا ادعـاء واحتجاجاً ، تقول ولا تعمل ، وتهدد ولا تنفذ ، وتخدع حكوماتها شعوبها بالاستعداد والتسليح وتدبر وتهيء جيوشها لليوم الموعود يوم نسترجع الارض السليبة ونعيد المشردين الى ارضهم ووطنهم ويومئذ نعيد كرامتنا فلما حمى الوطيس خسرنا كل شيء وظهر زيف الاعداد والاستعداد وبان عجزنا ورحنا نتهم أنفسنا ونرمي قادتنا بالخيانة والعمالة ، وأعلنا اننا خدعنـا وباغتنا عدونا وظاهرته قوى الشر امريكا وبريطانيا والمانيا الغربيـة ، والحقيقة المرة أقولها انما الذي سبب نكستنا هو ضعفنا وعدم استعدادنا وغرورنا واتكالنا على الكثرة والكثرة لا تغني من غير سلاح متكافيء مع

سلاح عدونا وكانت الكفاءة تنقصنا والخبرة تعوزنا ، وجهلنا بما يعد عدونا وبما عنده من قوة جعلنا نخسر الجولة وعسى أن يكون فشلنا في ٥ حزيران ١٩٦٧ يهيب بنا الى أن نعمل لنغلب في الجولة الثانية التي لا محالة أننا سنخوضها ان لم تكن برغبتنا فستكون رغم انوفنا أو نضطر إليها ، ولكن ها نحن قد مضت سنة وشهران ، فهل نحن بمستوى المعركة ؟ كل الدلائل تثبت اننا لم نكن نعمل إلا لتوسيع الخلافات وتنفيذ المؤامرات والإنقلابات ليقفز مغامرون وطامعون الى المناصب والراسات والوزارات وتوزيع الغنائم على الانصار والاغرار وليكن من بعدهم الطوفان ..

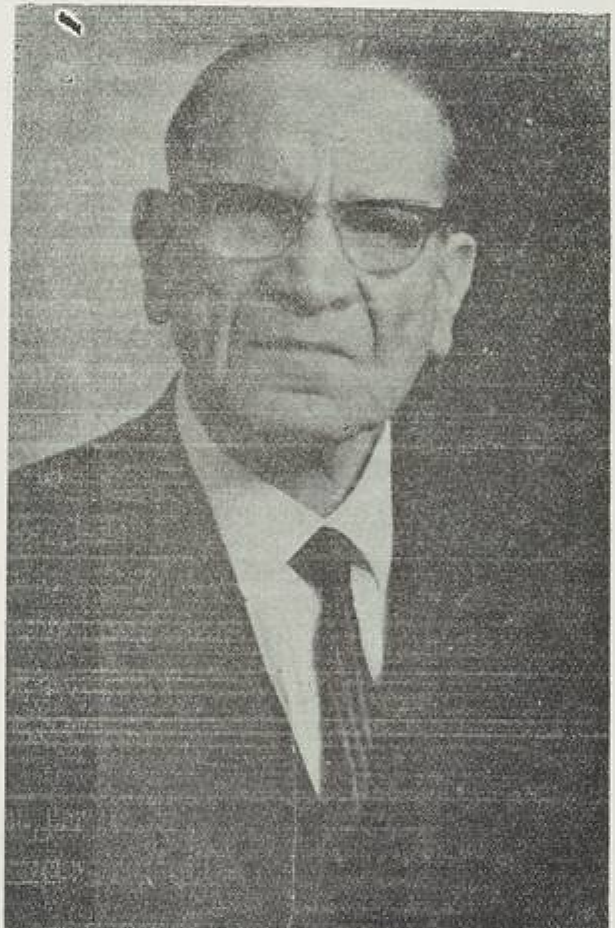
اضعف الايمان :

قال الرسول الكريم صلوات الله عليه : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان » .

ودول العالم اليوم وأممه – وفيهم المؤمنون بصاحب هذا الحديث يقفون أمام المنكر الامريكي والانجليزي الصهيوني باضعف الإيمان ، فيطوون صدورهم على السخط ، وقد يحركون ألسنتهم بالانكار ، ومن هؤلاء من يستطيعون دفع العدوان بالقوة ولكنهم يتلكأون ويترددون لغرض أو مرض ..

وكفاحك المنكر بالقلب أو باللسان وأنتَ قادر على كفاحه باليد نقيصة من نقائص النفس البهيمية لا تخرج عن الجبن أو الخبث .

على أن ضمائر الشعوب أحيا من ضمائر الدول ومن المتوقع ان هذا الانكار الشعبي باللسان سينتهي الى أنكار الدول باليد ، وحينئذ يطمئن محبوا السلام والمدنية على أن الدنيا لا تزال بخير .



الاستاذ كامل الجادرجي

وكتب بعنوان « الجهاد بالمال فوق الجهاد بالنفس » .

ويقـول الله عز اسمه وجل علاه « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهـدوا باموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير لكم ان كنتم تعلمون » .

« إنما المؤمنون الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون » ، « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله واولئك هم الفائزون » .

فهو سبحانه – في هذه الآيات الثلاث . وفي سائر الآيات التسع التي ذكرها الجهاد بالاموال والانفس يقدم الاموال على الأنفس لحكمة يؤيدها التاريخ ويؤكدها الواقع ، ذلك لأن المال عصب الحرب ، بغير روحه لا تتحرك وبغير وقوده لا تشتعـل ، هو زاد الجندي وعتاده ، يضع القوت في فمه والسلاح في يده والنصر في وجهه ، وهو وسيلة الاعداد التي أمر الله بها المسلمين في قوله :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون بـــه عدو الله وعدوكم » .

والبديل اليوم من رباط الخيل هو الطائرات والدبابات والصواريخ والمدافع والقذائف ، لأن رباط الخيل بحكم التطور العسكري والتقدم العلمي لم يعد يرهب العدو ولا يكفل النصر .

وهذه الاسلحة الجبارة يكلف شراؤها مئات الملايين من العملة السهلة والصعبة ، والاتكال فى تدبير هذا المال الضخم على الدولة يربك ميزانيتها فتنوء بمطالب الانتاج والخدمة فلم يبقَ إلا أن يجاهد الشعب بالمال ليوفر السلاح للجيش المجاهد بالنفس كما يفعل العدو ، فان اليهود في العالم هم الشعب وعليه المال واسرائيل في فلسطين هم الجيش وعليه القتال .

والغائلة التي نزلت بالعرب من ائتمار الاستعمار والصهيونيـة في أوائل هـذا الصيف فسلبتهم بعض الأرض وأفقدتهـم أكثر السلاح كان من وسائلها الفعالة السلاح الامريكي الحديث والمال اليهودي المتدفق ، فلولا المال ما كان لليهود دولة ولولا الدولار ما كان لاسرائيل جولة ولا صولة .

ان الذي يبذل نفسه في الجهاد يقدم الى الجنة شهيداً بمفرده ، ولكن الذي يبذل ماله في المعركة يقدم الى الأمة جيشاً بمجوعـه ، وان جيش العسرة لو لم يسنده المؤمنون الصادقون بالمال لما سار جيش الرسول الى تبوك ، ان قانون الحياة على طوله وفصوله يرجع في أصلـه الى مادتين اثنتين مادة الهجوم على القوت ، ومادة الدفاع عن الذات .

وما كلمات النباهة والمجد والخلود إلا طعوم مغريات في يد الطبيعة ، تتذرع بها الى ضمان الحياة بالوفرة ، كما تتذرع بالجمال والشهوة واللذة الى بقاء النوع بالولادة ، فالحي الخليق بالبقاء تتوفر فيه – ولا ريب – قوة السعي لنفسه وقوة الوقوف لغيره فاذا فقد هاتين القويتين أو أحداهمـا كان طفيلياً على مائدة الحياة وفضولياً في ملكوت الطبيعة ، وليست العزة التي تأخذ القاصر حين يرشد ، أو النابغ حين يستقل ، إلا يقظة الانانية في طبعه ، وثورة الحيوية في دمه ، وهذا الذي نشهده اليـوم في مصر وإخواتها من التسابق الى أعداد القوة ، والتنافس في إنشاء الدفاع ، انما هو استكمال لاحدى وسيلتي العيش ، واستشعار لارقى طبيعتي الوجود . ومن هنا كان منهاج الثورة قائماً على الانتاج والدفاع انتاج اليد والآلة والعلم والفكر ، ودفاع الفقر والجهل والمرض والعدو ، وما عدونا الحقود اللدود إلا اليهود من كيدهم للمسلمين في يثرب ، الى يوم طردهم العرب من فلسطين ، ومن أصدق من الله في قوله :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود الذين اشركوا » .

وطلعت الثورة تعد العدة وترصد الإهبة خمس عشرة سنة لاستئصالهم من قلب العروبة حتى بلغت من ذلك مبلغ الامان والقـــدرة ، ولكن الاستعمار الذي غرس شجرتهم الملعونة في أرض الهدى والسلام ، ومهبط الوحي والإلهـام ومجتلى عين موسى ومسرح قلب عيسى ومسرى روح محمد ، وقدس الأديان الثلاثة وقبلة الإسلام الأولى ومهد الانبياء ومقبرة الرسل لم يرد لاسرائيل أن تموت لأن موتها في فلسطين يعني موتـه في الشرق ، فتحدى غضب الله عليهم ، ونبؤة المسيح فيهم بأن وضـع في أيديهم السلاح والمال والعلم والخديعة فقتلوا من قتلوا واحتلوا ما احتلوا وشردوا ما شردوا ونهبوا ما نهبوه ودنسوا مساجد الله وقوضوا مساكن الناس وانطلقوا يخربون المدن ويحرقون الحقول ويقطعون السبل ويحصدون المؤمنين الآمنين ...

ان مؤتمر الرؤساء والملوك في الخرطوم قد أحيا الأمل وجدد الثقـة ووثق العقدة ودل بقرارته الحازمة أن اخوة النسب والعقيـدة والوطن قد ادركوا ما يراد بهم من شر وما يدبر لهم من كيد ، فاجمعوا أمرهم على الجهاد بالأموال والانفس ليطهروا الوطن من احتلال الدخيل ويحرروا فلسطين من اغلال اسرائيل .

أيها العرب في جميع الارض من طنجة الى البصرة : ان معركتنا مع الصهيونية معركة بقاء أو فناء فاختاروا لانفسكم ، ولا تحسبن ان بني اسرائيل لا يزالون صعاليك « خيبر » وسكان « الحارة » وباعة اليانصيب وزنابير النحل وعصافير البيدر وحثالة المجتمع ، انها أصبحوا اليوم بفضل المال أعيان « نيويورك » وأعضاء « الكونكرس » وقوام « البيت الابيض » وأرباب الاعمال والامـــوال والاعلام في سائر الارض : يسألون فيجب (ولسون) ويأمرون فيطيع (جونسون) ويلوحـون بالرغيف الذهبي

للامم المتحدة فيتبعها منها كل كلب ويطلبون من المنظمات اليهودية أن تمدهم بالمال فتمدهم بعد العدوان بخمس مئة مليون دولار ، فتجهزوا لهم بجهازهم وهو المال واستعينوا عليهم بعدتهم وهي الايمان ، والمال قوة اليهود المالية به ، والايمان بالتوراة والتلمود هو قوتهم المعنوية ، انهم يؤمنون بقول الاصحاح الخامس عشر من سفر التكوين : (في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلا : لنسلك اعطى هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات) . فإذا كان (يهوه) قد أعطاهم هـذا العطاء ، ووعدهم هذا الوعد ، فان « الله » وهو أصدق القائلين يقول لنا في كتابه : « لن يضروكم أذى وأن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون . كلما اوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الارض فساداً والله لا يحب المفسدين — وإذ أذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب — ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » وقول الله هو الحق ووعده هو الصدق فلا مخرفة كاهن ولا افتراء حاخام .

ان اسرائيل — يا قوم — طغت على القناة وفجرت على الاردن ، وقد بسطت امريكا على جرائمها البشعة ضباب العمى وحجاب السمم فلا تبصر ولا تسمع ، واستجرّت أوربا الحاقدة لدعايتها الخادعة فلا تعي ولا تدرك ، فليس أمامنا إلا أن نحقق وعد الله بأموالنـــا ودمائنـــا وإيماننا دون الاعتماد على شرق أو التجاء الى غرب » .

ان الاسلام قوته فيه ودفاعه منه ، ولا يزال كتابه في ايدينـا يعمر القلوب بالقوة ، ويغمر النفوس بالحياة ، والقوة قوة الإيمان ، والحيـاة حياة الروح ، أما قـوة الاساطيل على الماء وفي الهـواء ،

فقد يأتيها أمر الله ليلا أو نهاراً فتصبح دخاناً في السماء وحطاماً على الأرض .

* * *

يالعزة الاسلام لذلة العرب :

تحت هذا العنوان كتب في مجلة الازهر الجزء التاسع – السنة التاسعة والثلاثين ذي القعدة ١٣٨٧ – اثبته بنصه لما فيه من تعبير لواقعنا المؤلم

ربنا رب العزة ، وديننا دين القوة ، ورسولنا رسول الجهاد وأدبنا أدب الحماسة ، وعلمنا علم الحياة ، وتاريخنا تاريخ البطولة ، وجندنا جند الفتوح ، فمن أين تأتينا الذلة بالاستكانة ، ويصيبنا الخور والهزيمة ، ويخالجنا اليأس والقنوط ، وتعترينا أدواء الامم الحقيرة من تخاذل وتواكل ، ومن تحاسد وتباغض ، ومن خيانة وغش ، ومن اختلاس ورشوة ؟

يأتينا كل هذا حين نسينا الله وأتبعنا غير سبيل المؤمنين ، تلك السبل التي قال فيها الرسول صلوات الله عليه « تركتكم على الواضحة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » .

ولقد نسينا الله وزاغت قلوبنا عن نهج رسوله فأخذنا التقية وتركنا التقوى ، وعرفنا الاثرة وأنكرنا الايثار ، واقتضينا الحق ومطلنا الواجب ، وخدمنا الاسرة وأهملنا الأمة ، وعبدنا النفس وكفرنا بالناس ، وحفظنا الدنيا وأضعنا الآخرة وتحللنا من قيود الدين لننطلق في الارض انطلاق السائمة في المرعى تشطح وتنطح وترعى وتغزو لا يوجهها إلا الغريزة ولا يدفعها إلا الشهوة .

أجل نسينا أنفسنا حتى غدونا مسلمين من غير ايمان ، وعرباً من غير عروبة ، ولو بقينا على اسلام محمد وأبي بكر وعمر ، وعلى عروبة خالد وسعد وعمرو ، لما صرنا من جهلنا بالدين وعجزنا في الدنيا على أخلاق العبيد يطاطىء اشرافهم فلا يندى لهم جبين وتنقص أطرافهم فلا يحمى أنف وتنزل بهم الشدة فيتخاذلون تخاذل القطيع عاث فيه الذئب ، ويغير عليهم العدو فيتوكلون تواكل الاخوة دبّ فيهم الحسد وتجمعهم الخطوب فتفرقهم دواعي الهوى والطمع .

ان الله الذي كتب الذلة على بني اسرائيل ، جعل العزة له ولرسوله وللمؤمنين ، فلو كنا مؤمنين بقرآننا على سماحته وهداه كما يؤمن اليهود بتلمودهم على قسوته وضلاله ، لما انقلبت عزتنا ذلة وكثرتنا قلة ، ولما بلغ بنا الهوان ان اسرائيل تطـأ بأقدامها النجسة بعض وطننا المقدس فتخرب المدن وتقتل الابرياء وتستحيي النساء، وتشرد الامنين وتنتهك المساجد وتنتهب الاموال وتحتل القدس ، ثم يكون لها في الامم المتحدة صوت كصوت الأقوياء . وفي عالم السياسة رأي كرأي الاعزة .

فالعلّة إذن لهذ الانقلاب هي ضعف القوة الروحية وفقدان التربية الدينية : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » وبركات الله السماوية والأرضية والروحية والمادية من عزة ونصرة وقوة وثروة .

ان البيت المسلم لا يذكر فيه اسم الله ولا تتلى فيه آياته فالأم لا تقيم الصلاة والأب لا يعرف المسجد والاولاد لا يجدون القدوة الحسنة في أبويهم فينشأوا مسلمين باللفظ ملحدين بالمعنى لا يخشون الله ولا يقرأون القرآن ولا يؤدون الشعائر ولا يفقهون الدين ، فاذا تركوا البيت الى المدرسة وجدوا قشور الدين وقصور المنهج وضعف المعلم ، فالمنهج يجعل

للدين حصتين في الاسبوع ، ولا يجعل له في الامتحان وزنا في السنة ، فينصرف التلميذ عن درسه لأنه لا يقدم ولا يؤخر في حساب نجاحه .

والمعلم يعلمه على أنه نافلة في المنهج وصفر في الامتحـــان ، فيعرض صوراً للشعائر من غير شعور ، ويلقي سوراً من القرآن من غير أبانة ، ثم لا يجد من عمله ولا من تقواه ما يبعثه في نفوس الاطفال ليكون عوضـاً لهم عمـا فقدوه في الاسرة فتضعف ثقتهم بـه وتقل هيبتهم له ، وينتشر عليهم أمر النظام فينفق أكثر الحصة في إسكات المتكلم واسكان المتحرك وإقرار المضطرب ، ثم تساور الطلاب الشكوك وتهاجمهم الشبهات في الجامعة فلا يجدون من أساتذتهم من يحلوها لهم أو يدفعها عنهم ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، ولأن الدليل الحائر لا يخرج التائه من التيه . لذلك أصبح الاسلام رسماً محيلا في قلوب بعض ، وصوراً شوهاء في إذهان بعض ، فالخاصة قنعـوا بظهره ثم جعلوا شرعهم غير شرعه ، ودستورهم غير دستوره ، وقبلتهم غير قبلته ، والعامة عبثوا بجوهره فقلبوه صوفيـة جاهلة لا صلة بين شعوذتها وعباداته ، ولا نسبة بين سلبيتها ومعاملاتـه وهؤلاء وأولئك لا يجدون في أنفسهم معنى الاسلام الصحيح ولا مغزى الإيمان الصادق فيفقدون السور التي تجمع ، والقبلة التي توحد ، وحينئـذ يصبحون كما هم اليوم ضعفاء على العدو اقوياء على الصديق ، يمشون في أرضهم الغنية وهم جياع ، ويعيشون في وطنهم العزيز وهم اذلة ، ويبلغ بهم الشتات ان يقف مائة مليون عربي أمام مليوني يهودي وقفة المهزوم يطلب الرحمة والمظلوم يطلب العـدل ، ولو كانوا من الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم اصدق فيهم قول الله تعالى : « أن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا الفاً من الذين كفروا » ، ولكان لهم حق النصر على من قال وهو أصدق القائلين « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

ان التربية الدينية هي رياضة المجتمع الاسلامي على الرجوع الى النهج الذي سنه الله في كتابه ، وبينه الرسول في سنته ، وأتبعه الصدر الأول في سلوكه فبلغ بالعرب البداة الجفاة زعامة الدنيـا في السياسة والملك وقيادة العالم في الحضارة والعلم ، وأمامة الدول في العدالة والحكم وريادة الامم في الجهاد والتضحية .

وهذه الرياضة لا تدرك بخطب المساجد ولا عظات المحافل ولا مقالات الصحف ، فقد ملت الآذان هـذا الكلام لطول اعتياده وكثرة ترداده وسوء عرضه ، إنما تدرك بالاسوة الحسنة في البيت والتنشئة الروحية في المدرسة ، والحياة الخاتمية في البيئة .

والسبيل الى ذلك كله اعداد الأم التقية وتخريج المربي الصالح وتهيئة الجو الملائم ، ووضع الحوافز والجوائز لحفظ القرآن ، وجعل الدين مادة اجبارية في الامتحان ، وأخذ الاطفال بعزائم الله منذ الصغر ، والإفادة من الشاشة والمسرح في تصوير الشمائل المحمدية في مواقف الاحسان والعدل ، وتمثيل الفتوة الاسلامية في مشاهد الحق والخير ، وتجسيد الخلال العربية في ميادين الجهاد والمروءة ، وتطهير المجتمع من عوامل الفساد في الصحافة والاذاعة والكتاب والشارع ، وترغيب النشىء في بيوت الله بالمنظر الحسن والفراش النظيف والدرس المشوق والخطبة البليغة ، وإقامة المعسكرات الخلوية يجتمع فيها الشباب للرياضة الروحية على نحو ما يفعلون في الرياضة البدنية ، وإنشاء منظمة قيادية في الأزهر تسن منهجاً لرعاية العقيـدة وتنميتها في نفوس الطلاب ، ثم تقـوم على تنفيـذه في الأسرة والمدرسة والجامعة ، وهذه المنظمة المرجوة ستكون الثكنة المحمدية لجنـد الله ، أسلحتها المصاحف لا القذائف ووسيلتها الحياة لا الموت وغايتها التعمير لا التدمير ، وغنيمتها الخير للناس والسلام على الأرض ، وان القائد الصالح

المصلح جمال عبد الناصر قد دعا في ميثاقه وخطبه الى رجوع الأمة الى رحاب الله وبناء المجتمع على قواعد الدين ، فهو حرى أن يكون من وراء هذه المنظمة يؤيدها بالرعاية لتقوم ، ويمدها بالدعاية لتنتشر ، فيضم الى ثكنات القوة العسكرية ثكنة القوة الروحية ، ليجمع بين أسلحة المادة وسلاح الروح ، يوائم بين مادة العلم وروحية الدين ، ويبعث في القلوب الزائفة مامات فيها من فضائل الاسلام ومناقب العروبة ، ليعود مجتمعنا كما كان في صدر الدعوة حياً بالجهاد قوياً بالصبر نقياً بالفطرة ، متآلفاً بالحب متضامناً بالمروءة متعاملاً بالتقوى لا يحقد فيه الفاقد على الواجد ، ولا ينام به الغني الطافح أو القوى الطامح ملء جفنيه وإخوته في الدين والنسب لائذون بملاجيء البؤس معذبون في أسار العدو لا يجدون الولي الذي ينصر ، ولا السخي الذي يجود .

لذلك قطعت التربية المادية بين النفوس وذلك الينبوع الإلهي الذي يفيض على الموات فيحيا وعلى الجدب فيخصب ، وعلى الصلب فيلين ، وعلى الخامد فينشط ، وعلى العليل فيصح ، حتى أصبحت من الجفاف تتناكر تناكر الغرباء وتتدابر تدابر العدو ، وتتلمس جوانبها المظلمة فلا تجد فيها شعاعاً لقول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » ولا أثراً لقول الرسول الكريم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » فالإبن يعق أباه والأخ ينكر أخاه والصديق ينافق صديقه والتاجر يغش زبونه ، والعامل يزيف عمله والموظف يقتل ضميره ، والمجتمع الذي يتألف من هذه الرذائل القاتلة لا يقوى وأن كثر عدده ولا يغنى وأن توفر مدده ، فان مائة مليون صفر لا تزيد قيمتها على قيمة صفر واحد ، وأن ما فوق الأرض وما تحتها من مال وركام لا ينفع الشعب إذا لم يكن لله وللوطن .

ان علاج هذه الرذائل بالنظم والقوانين علاج مسكن ، يخفف الألم

ولا يحسم الداء ، إنما العلاج الناجع هو النور لمن أظلم عليه الليل ، والدليل لمن استبهم أمامه الطريق والامـان لمن ساورته مخاوف الحياة ، وكل أولئك في كتاب الله الذي أنزله هدى للناس ورحمة ، وجعله للمسلمين رباطاً وعدّة ..

النقد الادبي تقويم وتقييم :

هذا آخر ما كتبه أديبنـــا الكبير ، أعده لمجلة الازهر ، وهو المقال الشهري الذي ظل الزيات يواصل كتابته لمجلة الازهر منذ أن تولى رياسة تحريرها سنة ١٩٥٢ ، بعد أن اختفت الرسالة التي كانت بحق رسالة الأدب والفكر والنقد والتوجيه ..

وللقارىء العربي ، ولكن العصبة الحديثة من حملة الافكار المتطرفـة والذين يهيمنـون على الصحافة في مصر رأت في الرسالة خطراً على الأفـكار والمذاهب الـتي يعتزمون نشرهـــا وترويجهـا بين القراء فأمروا بحجبها ...

والزيات في مقاله بل وفي كل ما كتب ، بارع الحكم صريح فصيح ، ذو ثقافة واسعة وعلم رصين ينقل اليك أصول النقد المتعارف عند علماء النقد بأسلوب رصين ولفظ متين وكلام سلس ، وفكر فيه العمق والرؤية ، أسلوب يمتع النفس ويبهر العقل ، لا يجهدك فهمه ولا يملك سماعه ، تحس وأنت تقرأ ما يدبج كأن المعاني تنساب الى نفسك والآراء تتدفق الى خاطرك ، وما أصدق قول أبي العيناء في وصف كاتب معاصر له أحسبه ابن المقفع ..

« كلامه صريح ولسانه فصيح ، وطبعه صحيح ، كأن بيانه لؤلؤ منثور ، ووشي منشور وروض معطور » .

والزيات فيما يكتب من مقال : يلتزم القصد والأبانة لا يحب الإطالة إلا بقدر ما يتطلبه المعنى من الوضوح ويكلف بالايقاع ولذلك كثر في كلامه الازدواج والسجع من غير التماس لهما وكأنهما يأتيان عفو الخواطر أو من وحي الطبيعة وكان يتحاشى استعمال الغريب وينأى بقلمه عن الحوشي لأنه يرى استعمال الغريب هو العي بعينه - وقد يتفاصح بعضهم باستعمال الغريب فيظنه البلاغة وما هو من البلاغة بنصيب ، لا من بعيد ولا من قريب ... قال رحمه الله :

« نقد العمل الأدبي معناه تقويم عوجه بالاداة الصالحة ، وتقويم مادته بالوزن الصحيح ، وأداة الناقد بهذا المعنى ملكة غنية أصيلة ، وتربية أدبية طويلة ، وثقافة علمية شاملة ، والناقد بهذا الاعتبار ، يشارك المشرع في صدق التمييز ، والفيلسوف في دقة الملاحظة ، والقاضي في قسوة الحكم ، ومن هنا كان نوابغ النقد في العالم اندر من نوابغ الشعر والكتابة .

أما عند العرب : فقد انحصر - لاسباب لغوية لا محل لذكرها في هذه الكلمة الموجزة - في جزء واحد من النقد بمعناه العام عند الافرنج ، فلم يعالج غير أبيات وفقرات من الكلام المنظوم والنثر المسجوع ، وأغفل القصيدة باعتبارها وحدة لا تتفرق ، والكتاب باعتباره كلا لا يتجزأ ، ولم يحفل بما ألف بالنثر المرسل من الكتب والقصص .. وجر ذلك الى أن الكتّاب والشعراء أوغلوا في البديع وتفننوا في الزخرف ، واهملوا فنّ القصص فتركوه لادباء الشعب ، ولم يعنوا منه إلا بالمقامات لأنها مظهر الصنعة ، ومحك القدرة ، فحرموا الأدب العربي فنّاً كانوا هم بسليقتهم أقدر الناس على التوفر له والافتنان فيه ..

أن من يطلع على ما أثر عن السلف في النقد والموازنة يجد الخطأ في الاقيسة ، والخلل في الموازين ، والشطط في الاحكام ، وذلك

لتحكم الهوى الخاص ، وإرسال الناقد الحكم على غير قاعدة مرسومة ولا مذهب معين ..

فهم يتكلمون في اللفظ الجزل والركيك ، والاسلوب الرصين والمهلهل ، والمعنى المسروق والمطروق ، والمطلع الجيد والرديء ، والتخلص الحسن والقبيح ، ويجرون في كل أولئك على أذواق تختلف باختلاف الطبقات والهيئات والاجناس ، وربما اكتفوا في تقديم شاعر أو تفضيل بيت بالعبارة العامة أو الإشارة المبهمة أو الهتاف الموجز كقولهم : « ولله دره إذ يقول : » وهذا ما لم يسبق إليه أحد ، وما أحسن هذا البيت ، ولم يعنوا بالخطوط التي تميز كلاماً عن كلام ، ولا بالحدود التي تفرق بين شاعر وشاعر .. فلو نقلت ما قالوه من المدح في شاعر الى شاعر آخر ، لما تغير المعنى ولا اضطراب السياق والأمر كذلك في كل ما ألفوه من الكتب على طراز « اليتيمة » للثعالبي ، ودمية القصر للباخرزي ، وخريدة القصر للاصبهاني ، وريحانة الألباء للخفاجي ، وخلاصة الأثر المحبي ..

من ذلك يتضح ان فهم القدماء لحقيقة الفن الشعري والكتابي حصر للنقد البياني – كما قلت – في الصور والاشكال ، وهذا الحصر نفسه ، قد وجه الادباء الى الاحتفاظ باللفظ دون المعنى ، وبالصورة قبل الفكرة ، ففات أكثرهم ان روعة الكلام لا تكون بالرونق والاناقه والصنعة وحدها ، وإنما تكون مع ذلك بقوة التعبير عما تكنه الضمائر وتحسه المشاعر ، وبدقة التصوير لمختلف الطبائع والعواطف والاخلاق والشهوات والصفات ، حتى نرى صور أصحابها الحقيقيين أو المتخيلين تحرك وتعمل وتقول على مقتضى الغرائز الثابتة والفطر الاصيلة وتكشف الغطاء عن طبيعة الشخص بكلمة تجري على لسانه ، أو حركة تصدر عن يده ثم تكون روعة الكلام ، ببراعة الوصف لمناظر الطبيعة ومظاهر الكون ، حتى تحس فيها الحياة والحركة ،

وتدرك ما بينها وبين النفس في انفعالاتها من اتصال وعلاقة ، ثم تكون أخيراً بشدة التأثير في الافئدة حتى تستيقظ فيها روافد الاهواء والعواطف فتطرب النفس ، أو تغضب ، وتهدأ أو تثور ، وتفرح أو تحزن ، وتحب أو تبغض ، ولو أن نوابغ الكتاب والشعراء فطنوا الى ذلك لكان من هم الناقد أن ينظر – فوق ما ينظر من الالفاظ والصور – في تنسيق المعاني وترتيب الافكار في جملة الكتاب أو القصيدة ، أو المقالة ، أو القصة أو الكلام على العموم ، لأن سلامة الجزء المنفصل أو بلاغة البيت المنفرد ، لا تدل حتماً على سلامة الكل أو على بلاغة القصيدة .. كذلك كان من هم الناقد البياني ، لو اتجه الى المضمون أن يحلل ما ينشأ في نفس القارىء لروائع الكتاب والشعراء من العواطف ، وأن يبين كيف يستطيع الكتاب أو الشاعر أن ينشيء هذه العواطف أو يوجهها ، ومن ثم كانت كتب النقد عند الافرنج عملاً فنياً قائماً بذاته يبوىء أصحابه مقاعد النبوغ والخلود.

على هذه الحالة من الشكلية والسطحية والتعسف مضى النقد العربي حتى بلغ جيلنا الماضي ، فكان الناقد منذ قريب يعمد الى الكتاب القيم في التأريخ أو القانون قد ألفه مؤلفه من دمه وعصبه وعقله وعمره وماله ، فيقف منه موقف الحاسد الأحمق ، ينقد في بعض صفحاته فعلاً عدّى بغير حرفه أو اسماً جمع على غير قياسه ، أو لفظاً لم يجده في معجمه ، ثم يحكم على الكتاب كله بأنه سخيف لا يقرأ ، وضعيف لا يعيش ، ومن النوع أو قريب منه كان نقد طه حسين لنظرات المنفلوطي في أوائل هذا القرن .

ثم أخذ النقد الفني يتطور مع الوعي والتعليم ، والاطلاع على أدب الغرب في الربع الثاني من القرن العشرين ، فغاص من السطح الى القاع ، وانتقل من الشكل الى المضمون ، وتدرع باللغة والعلم والمنطق في نقود العقاد والمازني وشكري ومن لف لفهم .. ثم كاد ينحصر اليوم في القصص والمسرحيات

بما كان يكتب مندور ورشدي وحقي .. ومن جرى مجراهم ، ولعل النقص الذي يعتور النقد الفني الحديث أنه في جملته لا ينبثق من طبيعة الادب العربي ، ولا من بيئته ، وإنما ينبثق من طبيعة الادب الغربي وقواعده ومذاهبه ، فلو أن هؤلاء النقاد اتجهوا بعقيلتهم المتحررة ، وثقافتهم المتجددة الى دراسة أدبنا تحت الضوء الصادر عنها لأوجدوا فيه فناً مستقلاً من النقد المبني على العلم والخبرة والإصالة ، يتم ما بدأه عبد القاهر وأبو هلال وابن الاثير . أما ما نقرأه في الصحف العربية من حين الى حين مما يسميه أصحابه نقداً ، فأنه لا يدخل في هذا الباب ، إلا كما يدخل المجون في نطاق الجد ، أو العبث في سياق المنطق ، كالرجل يقعد به العجز من اللحاق بالقادرين فيقف نفسه موقف القائد الحصيف ، يلمز هذا ويتنادر على ذاك ، ويزعم أنه هو وحده المسيطر على ثمرات الذهن فيحكم بذوقه الخاص على هذا بالقبح وعلى تلك بالفجاجة ، وأمره كله لا يخرج من مألوف الطباع الساخرة الفكهة ، تصور الحق بألوان الباطل لتضحك وتبرز الجميل بمظهر القبيح لتسيء وعيب الناس طبيعة في بعض الناس ، لا يكلفهم إلا تحريك اللسان إذا ألفوا سامعاً أو تحريك القلم إذا وجدوا صحيفة ..

هذا الضرب من النقد أما أن ينبعث من الحقد فيرمي الى التجريح ، وأما أن ينبعث عن الغرور فيسعى الى الهدم ..

عن مجلة الازهر ، الجزء الرابع السنة الاربعون جمادى الاخرة سنة ١٣٨٨ هـ
آب وايلول سنة ١٩٦٨

اراء في القمة للزيات

فتح الزيات في نثره الفني آفاقاً جديدة وأضاف الى المقالة الصحفية باقة يانعة فيها الكثير من قطوف المعرفة ، فاحتل بذلك مكانة فريدة في النثر ، وعالج موضوعات أدبية ، ونقدية ، واجتماعية ، وسياسية وتاريخية ، والزيات كما قدمنا من الكتاب الذين ثقف الأدب العربي والفرنسي ووسع مداركه بالاداب المترجمة من ثقافات الغرب فتكون لديه تراث شامل من الافكار والاحاسيس فكان رحمه الله كاتب فكرة ومبدأ فظهر في آرائه المصلح الاجتماعي والناقد الذي يرسم لمجتمعه وأمته مناهج الاصلاح والعلم والخبر – في تعمير بارع التصوير ، دقيق الفكر جميل الديباجة ، في قوة لفظ ودقة معنى .. ولذلك رأيت من الخير أن اقتبس بعض افكاره ، وأسجلها في ختام هذه الدراسة لتضفي ضوء على صاحب الترجمة ولتكشف أعماقه الفكرية فيزداد به القارىء علماً وخبراً ..

قال في الموقف الأدبي ص ١٣٩ – ١٤٢ وحي الرسالة :

« والحق ان المسارعة في الانتاج العام قبل استكمال وسائله ميزة بينة في أدب الجيل الحديث فان الالمام باللغات الاجنبية والوقوف على قواعد الفن الاوربية لا يجعلان المرء كاتباً في العربية ما لم يدرس هذه اللغة دراسة قوية تردها طيعة لقلمه ، لينة على لسانه ، والاعتماد في اكتساب الأدب على محاكاة

النماذج ، وتقليد المثل لا يقوم عليه فن ، ولا ينهض به فنان معدود ، وما كان المثل ليغني عن القاعدة وهو لا يضيء إلا ناحية من الطريق ، والقريحة نفسها وهي غريزة الادب والفن في الانسان ليست على الكمال اليوم بحيث تجزى عن القواعد ، كذلك الذوق وهو أداة الجمال كما ان العقل أداة الحق ، لا يمكن أن يكون طريقاً مأمونة الى عمل صحيح ، فانه موهبة طبيعية تختلف في الناس وفي الاجناس ، وتحتاج الى المرانة بالدرس والعادة ، وليس لها ما للعقل من سلطان واطمئنان وثبوت ، وانك لتجد عقلاً مستقلاً لا يختلف ولا يتغير ، لأن هناك حقيقة مستقلة تتميز بالوضوح والجلاء ، ولكنك لا تجد مهما تستقريء وتستقصى ذلك الذوق المطلق المستقل الذي لا يختلف باختلاف الألوان والأزمان والامكنة .. أما القواعد فهي نتيجة التجارب وخلاصة الملاحظات على طول القرون ، وضعتها القرائح المنطقية المتعاقبة بعد أن فقهت أصول الأشياء ، ودرست علائق هذه الأصول ، واستخلصت نتائج هذه العلائق ، ثم صاغت هذه النتائج قواعد وقالت لها انها أمثل الطرق لاحسان العمل ... دون أن تخضع عبقريتك لها ، ولا أن تسمح لهواك بالخروج عليها ، فان بين الاستبداد والفوضى نظاماً أحق أن يؤثر ويتبع .

وبعد : فان الفنان والناقد إنما يتعاونان على فهم الجمال ، كما يتعاون القاضي والمحامي على فهم العدل ، فليس من الخير لأحدهما أن يكون مع الآخر على خلاف ، وان الادب الشيخ والأدب الشاب ليتعاونان على قيادة النفس ، كما يتعاون البصر والجناحان على قيادة الطائر ، فليس من خير أحدهما أن يكون من الآخر على قطيعة ..

والأدب الرفيع من بعد ذلك كله صلة المرء بربه ، ينفي الأذى عن لسانه ويذهب الغل عن قلبه ..

(٢)

ان النقد ملكة فنية وتربية أصيلة وثقافة شاملة للاصول مرتكزة على القواعد والذوق السليم ، ولا يحق للناقد ان يمارس هذا الفن الجليل من غير وسائله ومعرفة قواعده ومذاهبه ، أما ما يفعله بعض من تصدى للنقد من الناشئين وحتى غير الناشئين بالتماس الاغلاط الاملائيـة أو الاخطاء البسيطة أو تسفيه فكرة وتقبيح أسلوب والحكم على الكتاب بالفهاهة أو السماجة فليس من فن النقد وإنما هو من باب الهدم والشتم ، ودا- والغيرة أو سوء الفهم .

النقد المزيف :

يقول الزيات في مثل هذا النوع :

« ان هذا الضرب من النقد ، أما أن ينبعث من مكامن الحقـد فيرمي الى التجريح وأما أن ينطلق من مواضع الغرور فيسعى الى الهدم ، كان الناقد منذ قريب يعمد الى الكتاب القيم في الفلسفة ، أو التأريخ ، أو القانون ، قد ألفه مؤلفه من دمه وعصبه وعقله وعمره وماله ، فيقف منه موقف الحاسد الأحمق ينقد في بعض صفحاته فعلاً عدّي بغير حرفه ، أو اسماً جمع على غير قياسه ، وقد يكون لكل منهما وجه – ثم يحكم على الكتاب كله بأنه سخيف لا يقرأ وضعيف لا يعيش ، ثم أصبـح اليوم يعرض للموضوع فيقول :

هذا قديم لأنه يدور على بحث في تأريـخ الشرق أو على معنى من معاني الدين ، أو على أثر من آثار البلاغـة ، وهذا جديد لأنه يقوم على حادثة من حوادث الغرب أو على رجل من رجال الاكاديمية ، أو على غانية من غواني المسرح ، وهذا مقلد لأن أسلوبه شريف ممتنع ، وهذا مجـدد لأن أسلوبه مبتذل ممكن ، ثم تقصف باقلامهم اللينة نخوة الحفـاظ

وحماسة القوة فيصيحون : أميتوا أدب العاطفة وأحيوا أدب القـــوة ، أبيدوا أدب الخاصة وأوجدوا أدب الشعب أنبذوا أدب المقالة والزموا أدب القصة ..

صيحة قرارها ومقامها باطل ، فان اجماع الناس واقع أن خلو الأدب الحديث من أدب القوة ، وأدب القصة خلـل لا بد أن يسد ، ونقص لا بد أن يكمل .. ولكن من الذي يقول ويعني ما يقول : ان وجود هذه الانواع يقتضي عدم الأخرى ؟

أن لكل فن من الادب طبقة من الناس تتذوقه ، وإذا منعتها إياه طلبته ، والناقص لا يكمل برفع نقص ووضع نقص ، والبناء لا يتم بهدم ركن وإقامة ركن ..

أرأيتك [١] إذا كان الأدب كله قوياً يخشن الصدور ، وحماسياً يؤرث الحفائظ ، افما كنت تقول : أين الأدب الذي يصور ألوان الحياة المريرة ويترجم القلوب الكبيرة ، ويرقق حواشي الانفس الجافية ؟

أرأيتك إذا كان الأدب كله شعبيـــاً يعبر بالسنة السوقة وينقل عن عواطف العامة ، أفما كنت تقـــول : أين الأدب الذي يرضي أذواق الخاصة فيجمع بين سمو الفكرة ونبل العاطفة وقوة الاسلوب في صورة من الفن الرفيع تسمو بالنفوس الى المثل الأعلى وتغمر الشعور بالجمال الخالد ..

الأدب صورة النفس ، فلا بد أن ترتسم فيه مشاعر الفرد ، والأدب مرآة الحياة فلا بد أن تنعكس فيه ألوان المجتمع ، وما دام في الناس الحساس والبليد ، والخوّار والجليد ، وفي الدنيـا التفاوت الذي يوجد

---

(١) ارأيتك : بمعنى اخبرني .

بالتمايز ، والالم الذي يفجر بالدموع ، واللذة التي تبعث المسرة ، والمدنية التي تخلق التنوع ، فلا بد أن يكون الادب الصحيح صدى لكل اولئك ..

ليست وظيفة النقد أن يهدم أو يميت أو يشرع ، تلك وظيفة الطبيعة التي تطور كل شيء ، وتغير كل نظام وتسد كل عوز وفق قانون ثابت ..

إنما وظيفة الناقد أن ينظم الموجود ، وينبه الاذهان إلى المفقود ، أما أن يحاول تغيير الطباع بقانون وقلب الاوضاع بمقالة ، ومحو الثابت بنكتة ، فذلك عبث لا يخلق بكرامة انسان ، وتهريج لا يزكو بضمير فنان ..

صدق الفن : [1]

« والصدق في الفن ، جوهر بلاغته ، وسر دوامه ، وهو في البيان وضع اللفظ في موضعه ووصف الشيء بصفته ، ومطابقته الكلام لمقامه ، واكذب ما يكون البيان إذا ترادف لفظ ولفظ وتشابه معنى ومعنى ، وتناقض رأى ورأى وتعارض وجه ووجه ، ولعلك لا تجد فيما تقرأ من هذه المقالات [2] لفظا يجافي المعنى ولا معنى يجانبه الحق .. وأسلوب الكتاب الايجاز ، والايجاز ملاكه الاناة والفطنة ، فاذا قرأته قراءة العجلان ، لا تظفر منه إلا بقبسة العجلان » .

الجمال في البلاغة والشعر :

« ان ابين خصائص خصائص الجمال الذكاء والوفرة ، فتزاحم العواطف ، وتكاثر الصور وتوافر الافكار ، ثم اتساع الخواطر بالذهن النير الذي

(١) مقدمة الجزء الاول من وحي الرسالة .
(٢) افتتاحيات الرسالة .



المشير طه الهاشمي

يحييها ويقويها ويستولدها ، وغزارة اللغة وخصوبتها وقدرتها على أن تعبر عن العلاقات الجديدة للحياة ، أو على أن تفيض من الحرارة والقوة على الحركات المختلفة للنفس ، كل اولئك يملأ شعاب القلب بالاعجاب وذلك الاعجاب الذي نحسه هو عاطفة الجمال » .

خصائص الجمال :

« ان الخصائص المميزة للجمال هي : القوة ، والوفرة[1] ، والذكاء ، والمراد بالقوة شدة العمل وحدته . وبالوفرة كثرة الوسائل وخصوبتها ، وبالذكاء الطريقة الرشيدة المفيدة لتطبيق هذه الوسائل ، ولا جدال في ان الحواس ليست كلها أهلاً لنقل هذه الخصائص الجمالية الثلاث ، وإنما ينفرد منها السمع والبصر بنقل أحاسيسها نقلا قوياً يثير الدهش والاعجاب واللذة . أما الإنفعال الذي يأتيك عن طريق الشم والملوسة والخشونة والصلابة واللدونة والحرارة والبرودة ، فأحاسيس بسيطة عقيمة ، قد توقظ في النفس ذكرى خابية أو عاطفة غافية .

الجمال في المادة :

وشأن الجمال في المادة لا يختلف عن شأنه في الفكر والعاطفة ، فإنك إذا ذهبت تبحث في الطبيعة عن الصفة العامة للجمال لم تجدها غير القوة أو الوفرة أو الذكاء . ففي الحيوان تجد هذه الصفات الثلاث مجتمعة ومتفرقة ، ففي جمال الاسد القوة ، وفي جمال الطاووس الوفرة ، وفي جمال الإنسان الذكاء ، ولا أقصد ذكاء الإنسان في نفسه ، وإنما أقصد

---

(١) الوفرة : اذا كثر الشيء واتسع وتم وكمل .

ذكاء الطبيعة في تهيئته وتثقيفه ، وذكاء الطبيعة معناه مطابقة طرائقها لصورها ، وملائمة وسائلها لغاياتها ، فغايتها من الرجل غير غايتهـا من المرأة ، ولذلك اختلفت الوسائل في الزوجين ، وتباين مقياس الجمـال في الجنسين ، أرادت الطبيعة من الرجل أن يعمل ويقاتل ويحمي زوجه ويعول أسرته ، فزودته بما يحقق هذا المراد ويمضي تلك الإرادة تركيب وثيق محكم تتم ملامحه على السرعة والمهارة والقوة والشجاعـة ، وجسم متجاوب الاعضاء متناظر الشكول متوازن الاوضاع يصلح لكل عمـل ويقدر على كل حركة ويستقيم على أي صورة وسمات من الشهامة والجرأة والحنان والحساسية تفيض من العيون وتنتشر على الوجوه وتختلج عـلى الشفاه ، وجملة من الصفات الخلقية والجسمية تؤلف في الإنسان مزايا الجمال المذكر فإذا قلت رجل جميل كان معنى ذلك أن الطبيعة وهي تكونـه عرفت ما تفعل وفعلت ما تريد .

جمال المرأة :

« ولعلّ جمال المرأة ابدع مثل للجمال الطبيعي لو تدبرتـه ، وسر الاعجاب فيه هو سر الاعجاب في جمال الرجل ، أعني الذكاء ، والذكاء كما قلت ابداع الوسائل الملائمة للغاية ، ثم تطبيق هذه الوسائل على غايتها في نظام دقيق محكم ، فأنت لا تستطيع أن تفقه جمال المرأة إلا إذا وقفت على حكمة الله فيها ، وغرض الطبيعة منها ، وأدركت ما بين طبيعة خلقها وعلة وجودها من المواءمة التي تسترق الافئدة وتدق على افهـام البشر .

السياسة :

ليس من دأبنا أن نعرض للسياسة إلا من حيث اتصالهـا بالخلق أو بالأدب ، والخلق والأدب موضوع السياسة العليـا التي لا تتحزّب ، ولا

تتعصب ، ولا تعرف تخوم المكان ولا حدود الزمان ، ولكن بينها وبين السياسة الدنيا تفاعلا وتبادلا لا يفترقان فهي تؤثر فيهما وهما يؤثران فيها ، وهي تغير منهما وهما يغيران منها ، والخلق بخاصة مساك الامة ، وملاك الأمر ، ولم تؤت النهضات القومية في الشرق إلا من جهة فساده ، ذلك لأن الحال في الأمة العائدة أو الناشئة التي يخرج أهلها وحدانا من ظلام الجهل والغفلة ، أن يسعى المرء فيها ليغنى ، ويغنى ليتزعم ، ويتزعم ليحكم ، ويحكم ليستبد ، ويستبد ليطغى ، ويطغى ليتأله ، سلسلة من الغرائز الجافية الرذيلة حلقاتها الشهوة والطمع والغلبة والاثرة والجموح والبغي ، يصل بينهما جميعاً أنانية غالبة ، وفردية أصيلة ، فالأهل والأصحاب والاحزاب إنما يتعاملون بغير الحق ، ويتجادلون بغير المنطق وابتغاء الفوز من وراء الباطل ، والغلبة من طريق القوة لأن « الانا » لا يعرف الغير ، والذات لا تدرك المعنى ، إلا إذا أضاء العلم ما حولهما فظهرت الاشخاص وبانت الفروق ، ووضحت الحقوق ، وتبرزت المعالم ، وحينئذ يقول كل امرىء لنفسه أول مرة أن في العالم ناساً غيري وان لهم حقاً كحقي ، ومتى شعر المرء بالناس وفطن الى وجود الحق ، تولدت فيه معاني الإنسانية والديمقراطية والعدل ، فيصبح خالصاً للجماعة إذا سعى وللوطن إذا تزعم وللدولة إذا حكم ..

نحن الى اليوم لم نخرج عن ذواتنا في العمل والسياسة والحكومة ، نقيس كل شيء بمقياس الفائدة الخاصة ، ونحمل كل أمر على محمل الهوى الفرد ، ونغلب ارادتنا على إرادة الأمة في الحق المشاع ، حتى اقتنع المستريب بأننا تعلمنا الكلام ولم نتعلم العمل .. وحذقنا فنون الدعاية ولم نحذق أصول الحكم ، وحفظنا مصطلحات الدستور ونسينا مبادىء الشورى كان ذلك مقبولا محمولا والجهل غاش على العيون رائن على الأفئدة ، أما الآن فقد تنبه الغفلان الى أن من استطاع أن يرفع المظلوم

يسهل عليه أن يخفض الظالم .. وتذكر الناسي أن له دستوراً يجعل مصدر السلطات في فم المحكوم لا يد الحاكم .. فمن ذا الذي يوسوس إليه شيطانه أن يرفع في وجه الاسود وأشبال الاسود عصا القطيع ؟ ومن ذا الذي يسول له طغيانه أن يرتفع على كواهل الشعب ويقول أنا سيد الجميع ؟

لقد كان لبعضكم يا زعماء الساعة اخطاء على الامة في بعض الامور ، ملكت عليها الصبر ولم تملك لها المغفرة ، وقد أتاح لكم القدر هذه الفرصة لتصححوا بصواب اليوم خطأ الامس ، وتبددوا بيقين الحاضر ظنون المستقبل ، فهل تدعونها تمر كما يمر أريج الطيب بالرجل الاخشم .

أن بعضكم بلغ ساحل الحياة ، وبعضكم جاوز حدّ الثروة ، وكلكم تفرع ذروة الجاه فماذا يقعدكم عن ابتناء المجد المؤثل وابتغاء الذكر الخالد ..

نريد أن يكون الزعيم لجنسه لا لنفسه ، ولشعبه دون حزبه ، ولغده قبل يومه ؛ حتى يتذوق هذا الشعب المجهود لذة الإخوة في ظل الوطن ، وعزة الحرية في كنف الدستور وجمال المساواة في حمى الحكم الصالح . نريد أن تلغوا سياسة الخطب وتقصروا السنة الوعود وتخفتوا ضجيج المظاهر ، وتكفوا عن كرامة الناس صلف المنصب وزهو السلطان وبطر الجاه ، فان العربي أكره الناس للزعيم المغرور والوزير المتغطرس والنائب الأثر ...

« وحي الرسالة ص ٤٣٥ – ٤٣٧ »
جزء ٢

وكتب تحت مقال - كيف نعالج الفقر :

« هيهات أن يكون في الأرض ايمان ، مـا دام في الأرض فقر ، فان أسباب الفقر ممدودة من الطمع والشـح والأثرة ، وهذه الخلال السوء لا تطمئن عليها نفس مؤمنة ، وان من ظلال الافهام والأقلام ان تعالج الفقر على أنه ناجم من ندرة العمل في البلد أو قلة الخير في الدنيا ، فان العمل ميسور للقادر ورزق الله موفور للحي ، وإذا شكت الامم اكتظاظ المعامل ، ونضوب الموارد ، وضيق الرقعة ، فان مصر الجديدة البكر بينهـا وبين هذه الشكوى أن تمصر المصانع والمعامل والمتاجر والمصارف والشركات وما بالقليل ذلك ..

لا تطلبوا من الفقير العمل قبل أن توفروا له القدرة عليه ، أنه جاهل فاشرعوا له منهل العلم وأنه عليل فانهجوا له سبيل الصحة ، وأنـه معدم فـدبروا له رأس المال ومن بلادة الحس أن الغني يسمعك وأنت تقرأ هذا الكلام ، فلا يظن المخاطب به أحداً غير الحكومة ، فيشارك في النقد ويسرف في الانكار ، ويلح في الطلب ، لأن الحكومة في رأيه يجب أن تلبي كل نداء وأن تؤدي كل واجب . والحكومـة لو درى هذا المتواكل الغدم لا تتسع مواردها لكل رغبة ، فإنها لم تجب منه ومن أمثاله إلا حق العمارة والأمن ، أما حق الله عنده فقد وكلت اداءه الى ضميره ، يعطيـه من يشاء متى يشاء وكيف يشاء ، ولكن الضمائر نامت على هدهدة الشهوات ، والعواطف قست على جفاف المادة ، وبين غفوة الضمير وقسوة العاطفة ذهب وازع الدين ، فـلم يبق إلا وازع السلطان ...

فهل يفكر أولو الأمر أن يعالجوا الفقر بما عالجه الله ، فيجبوا الزكاة ، وينظموا الإحسان ؟ انهم أن فعلوا ذلك لا يجدوا في البيوت عائلا ، ولا في الطريق سائلا ولا في السجون قاتلا ..

وحي الرسالة الجزء الثاني
٦ شباط سنة ١٩٣٩

ومن مقال – اقتلوا الجوع تقتلوا الحروب :

« لا يزال في قدرة الله أن يكابد بنو آدم عقابيل البهيمية الأولى ، فيوطأ المواني ، ويسترق العاني ، ويؤكل الضعيف ، ويكون هنا الطمع والكزازة والأثرة ، وهناك الحسد والحزازة والثورة ، ثم لا يفصل بين الواجد والفاقد غير الحرب ، فالحرب لا تنفك مشتعلة وبين الفرد والفرد وبين الاسرة والاسرة ، وبين الامة والامة ، بالقول أو بالفعل ، وفي السر أو في الجهر ، حتى يتدارك الله عباده فيهيء نفوسهم لفض هذه الخصومة ، بغير هذه الحكومة ..

والخصومة الأبدية بين الناس هي المادة ، والنكبة الازلية على النظام والخلق هي الفقر . وكل ثورة في تاريخ الأمم أو جريمة في حياة الأفراد إنما تمت بسبب قريب أو بعيد إلى الجوع . حتى الشهوة ، شهوة الغرام أو الانتقام لا تقع في تاريخ الجناية إلا في المحل الثاني بعد الجوع لأنها لا تكون إلا عرضاً من أعراض الشبع ، من أجل ذلك جاء دين الله يخفف عن الفقير بالإحسان والعدل ، ويدفع عن الضعيف

بالموده والرحمة ، ولكن عرام النفوس كان أقوى من أن يرده الثواب المغيب والعقاب المؤجل ، فنبت على أمر الله ، وعلات نفسها بالنجاة من باب التوبة المفتوح ، ومن طريق المغفرة الواسع ، ثم جاءت فلسفة الناس أن تجد سلام المجتمع في أنظمة متناقضة بعضها في صدر بعض فوقع العالم من جراء النزاع بين الفردية والاشتراكية ، والصراع بين الدكتاتورية والديمقراطية ، في حرب عنيفة رعناء لا تأصرها آصرة ولا تدركها شفقة حتى أكلت من أمة الاسبان وحدها مليوناً وربعاً من شبابها الآمل العامل ، ثم أخذت تخمد في هذا الميدان الضيق المحدود لتستمر في ميدان لا حدّ لعرضه ولا نهاية لطوله هو العالم ...

وحي الرسالة الجزء الثاني
ص : ٤٩ – ٥٠

المحتوى

من مؤلفاتنا المطبوعة

١ – أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية – بغداد ١٩٦٧ .

٢ – الجزائر بلد المليون شهيد دراسات وانطباعات – بغداد ١٩٦٩.

٣ – الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر – تأليف علي علاء الدين الآلوسي « تحقيقه » – بغداد ١٩٦٦ .

٤ – محمد كرد علي – بغداد ١٩٦٦ .

٥ – أدب الزيات في العراق – بيروت ١٩٧١ .